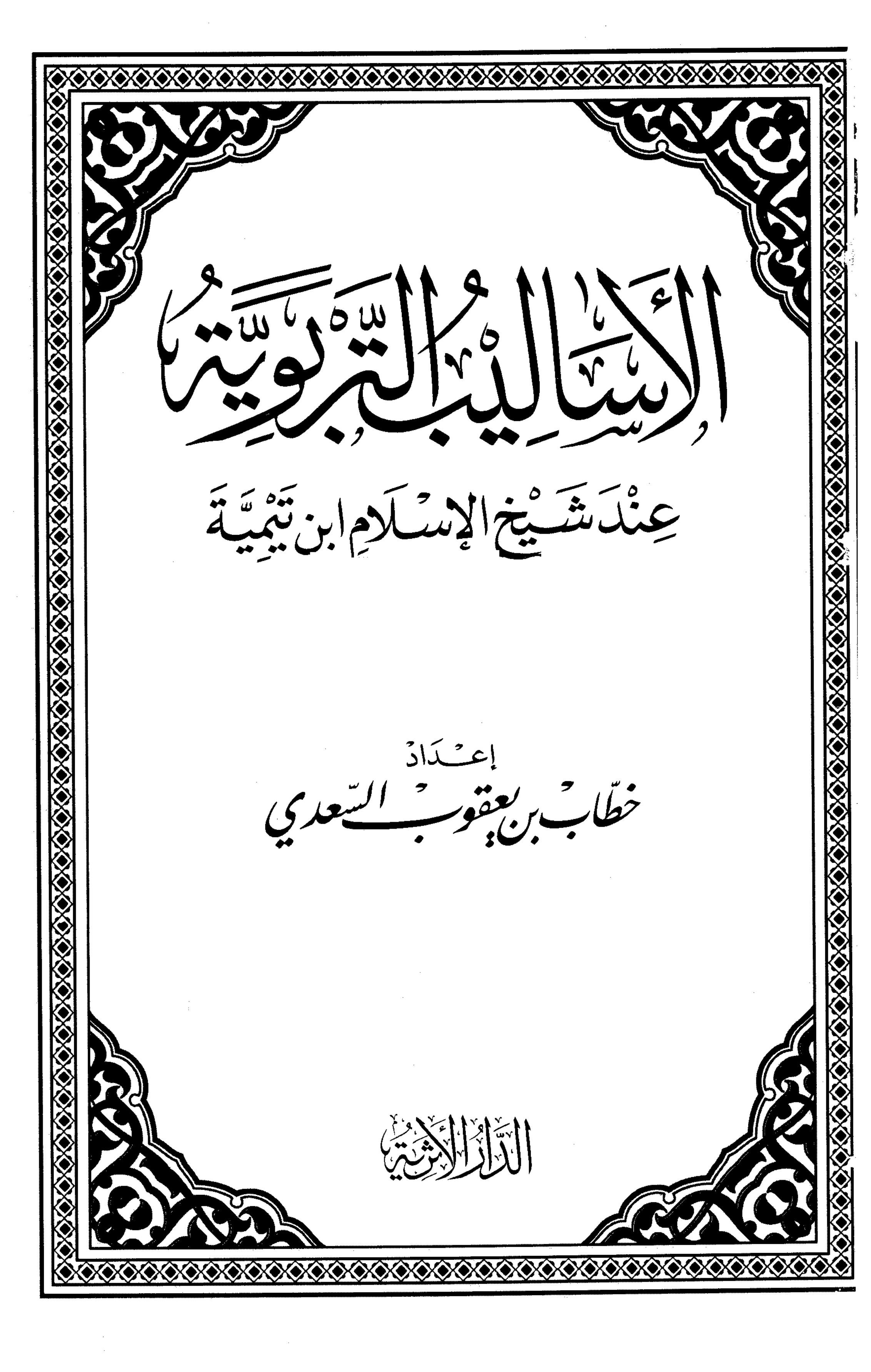
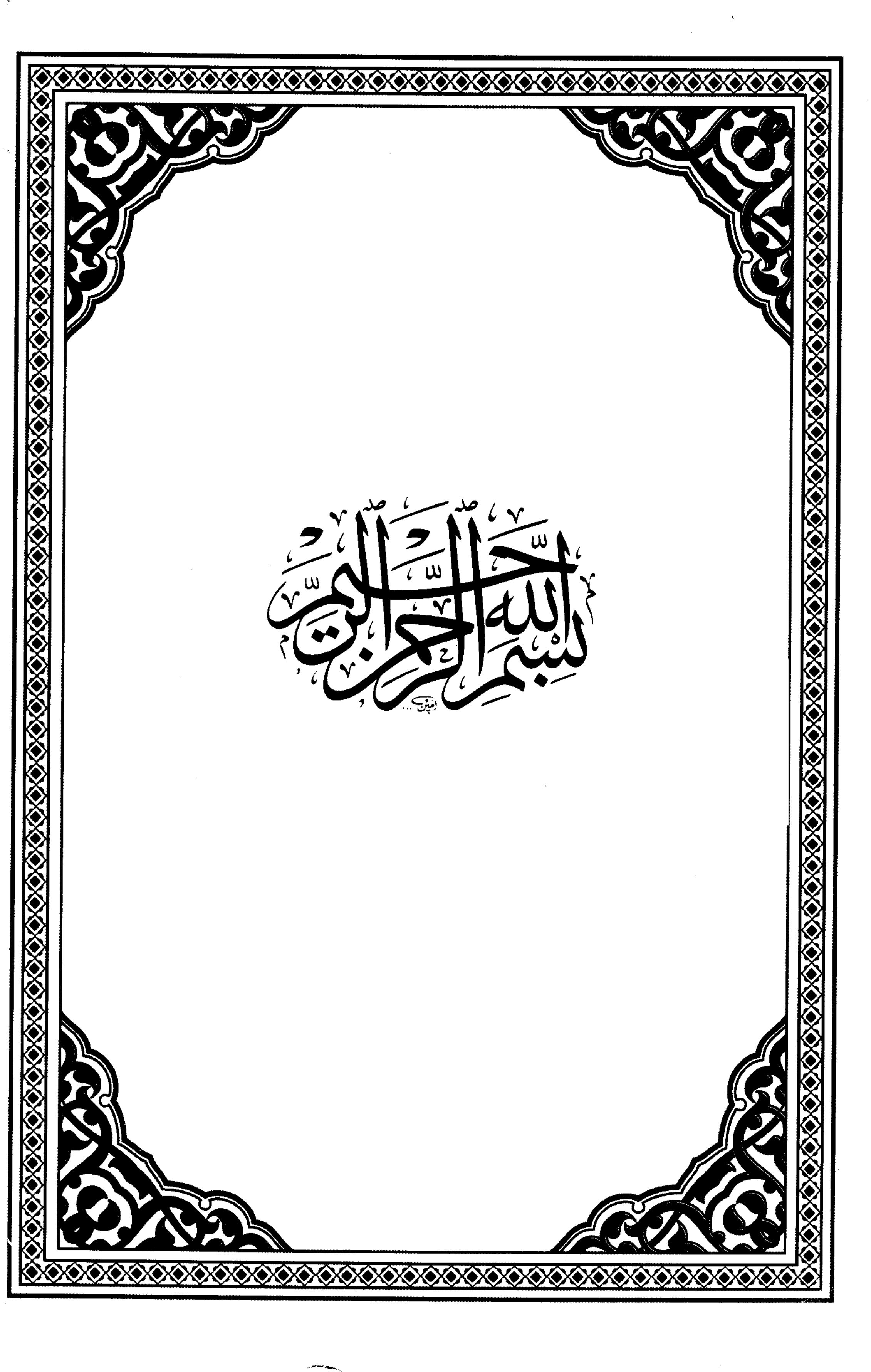


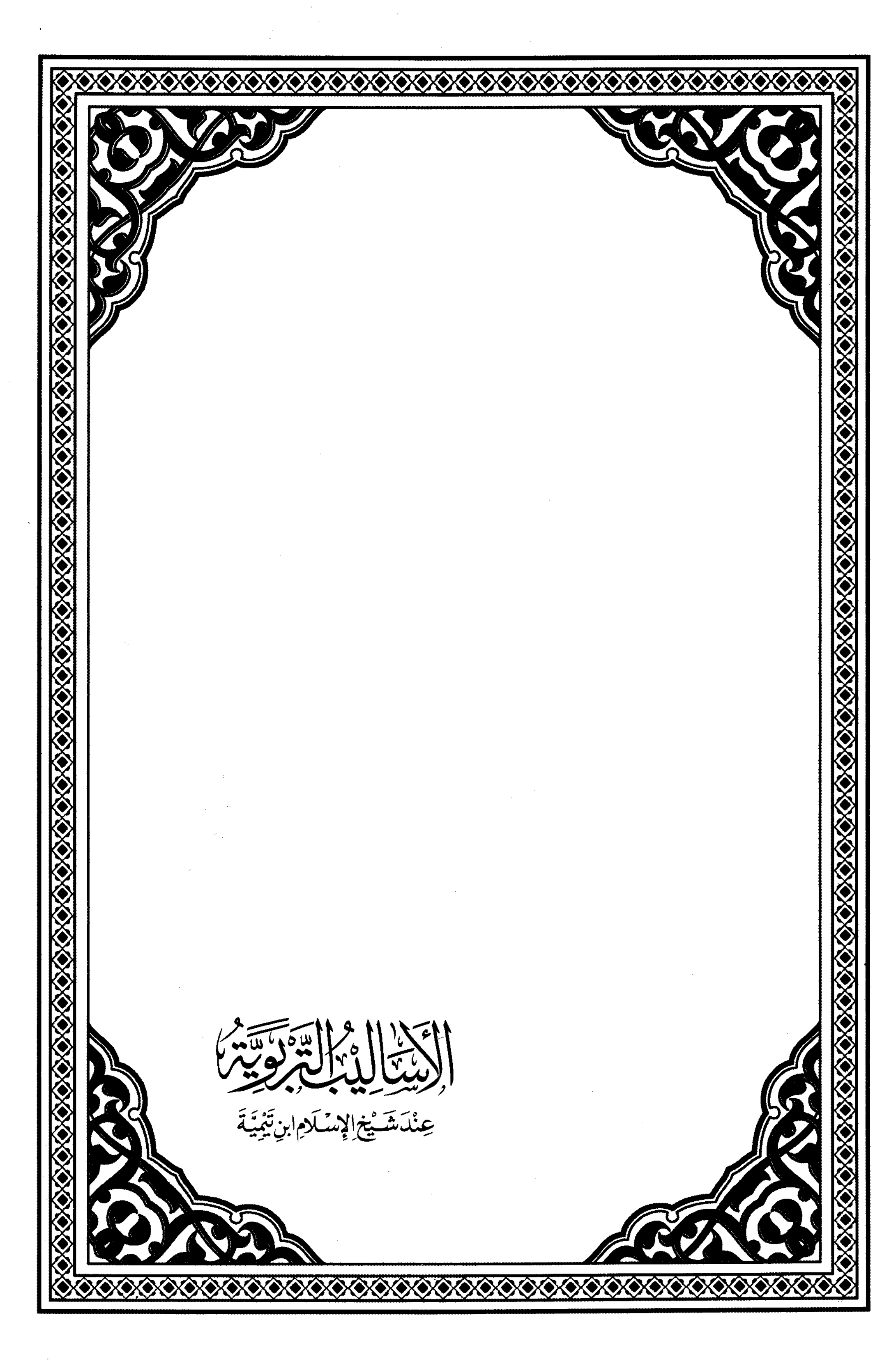
الأساليب التربوية

عند شيخ الإسلام ابن تيمية

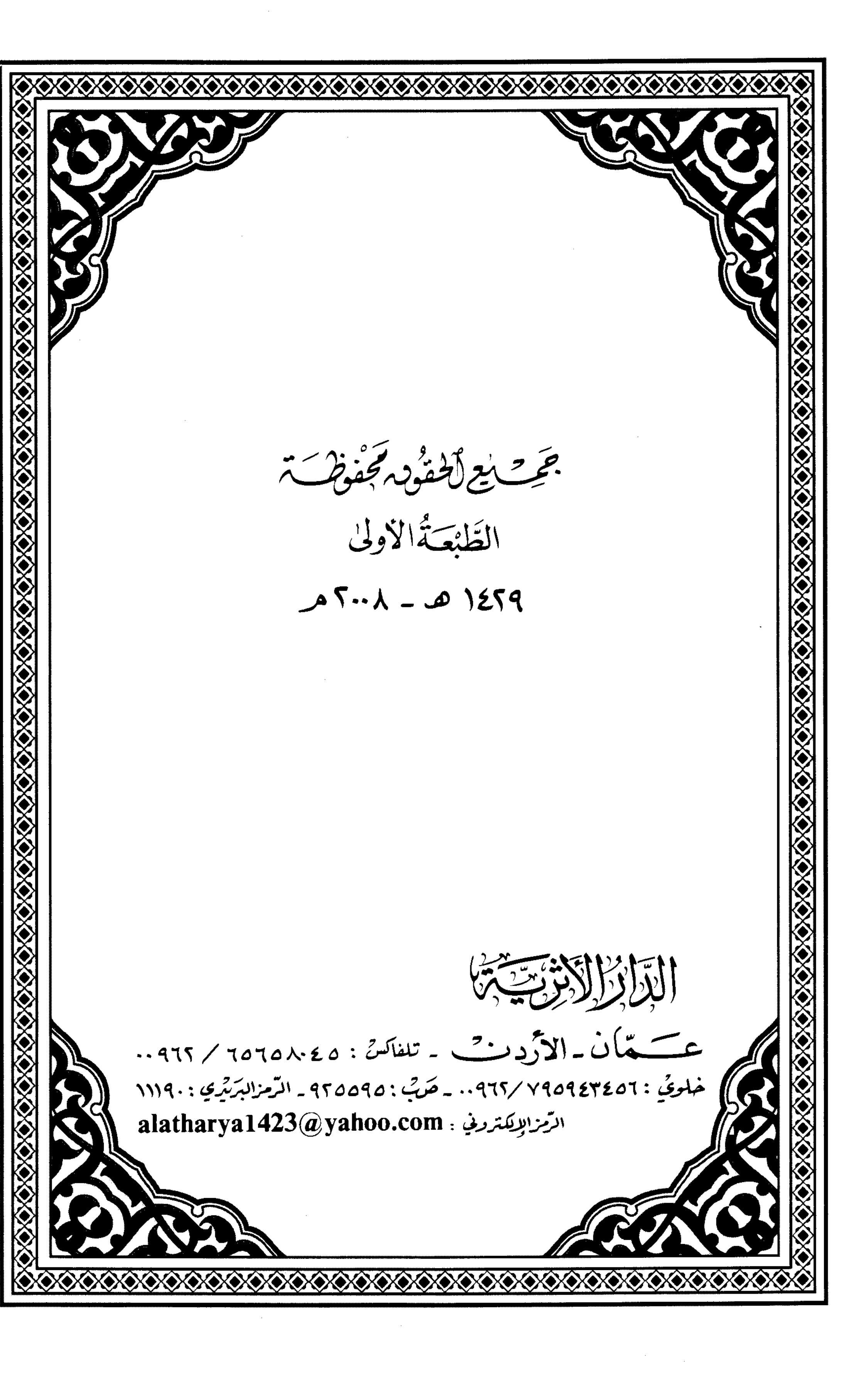
إعداد
خطاب بن يعقوب السعدي

الدار الأثرية


بسم الله الرحمن الرحیم



الأساليب التربوية
عند شيخ الإسلام ابن تيمية



الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

الدار الأثرية

عمّان - الأردن - تلفاكس: ٦٥٦٥٨٠٤٥ / ٠٠٩٦٢

خلوي: ٧٩٥٩٤٣٤٥٦ / ٠٠٩٦٢ - ص.ب: ٩٢٥٥٩٥ - الرمز البريدي: ١١١٩٠

الرمز الإلكتروني: alatharya1423@yahoo.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

[آل عمران - ٧٩]

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل بعد شكر الله ـ جل وعلا ـ للدكتور/ عادل حسن العُقاب على الجهد الذي بذله، والوقت الذي وفره لي للإشراف على هذه الدراسة، والنصائح الغالية التي أسداها لي حتى خرج البحث في أحسن حلة، فجزاه الله خيرا.

وأخصُّ بالشكر كذلك الشيخ/ مشهور حسن سلمان الذي شجعني على المضيِّ قدماً في دراستي، وزودني بكتاب (الفكر التربوي عند ابن تيمية)، وكذلك الشيخ أكرم زيادة الذي كشف لي عن بعض الأعلام والمعاني الواردة في الدراسة.

كما أنني أشكر الدكتور/ شفيق علقم؛ مدير مؤسسة العاصمة للخدمات الجامعية، وابنه/ رائد اللذين كانا عوناً لي على إكمال هذه الدراسة.

والشكر موصول أيضاً إلى/ عماد عامر مدير معهد الخليج التعليمي، الذي أنارني بأفكاره العلمية وخبراته التربوية، وساهم في ترجمة خلاصة الدراسة.

كما أني لا أنسى أن أشكر القائمين على مكتبة جامعة الإمارات العربية المتحدة، ومكتبة جامعة السلطان قابوس، اللتين ساهمتا في توفير بعض المصادر والمراجع لإتمام هذه الدراسة، وكذلك القائمين على مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الذي زودني بقائمة

الكتب والدراسات التي أُجريت حول مجال الدراسة.

ومما أشيد به هنا هو جهد عبد الله المانعي الذي طالما وقف بجانبي، وحمد خميس النيادي الذي أعانني على الاستفادة من مكتبة الجامعة.

وأخيراً أشكر ابني/ أحمد الذي وقف بجانبي لطباعة كثير من مواضيع دراستي هذه، وأشكر كل من كان له فضل عليَّ - بعد الله عزَّ وجلَّ - في إتمام هذه الدراسة، ومنهم الدكتور عبدالرزاق عبد الله البوني، الذي لم يألُ جهداً في مساعدتي والرد على استفساراتي.

أتقدم إليهم جميعاً بالشكر الجزيل، والعرفان الجميل، وأسال الله الجليل أن يمدهم بعون من عنده كما أعانوني على إكمال دراستي هذه.

خلاصة الدراسة

إن التربية من أهم جوانب الحياة البشرية، ولابد لها من أهداف وأساليب لتحقيقها، وإذا كان المربِّي الحقّ هو الله وحده لا شريك له في ربوبيته، فهو رب العالمين جميعاً، فإن أحق من يستفاد منه التربية بعده هم رسله الذين اصطفاهم ورباهم على عينه بالكتاب والحكمة، كما رباهم بنعمه وفضله، ثم ورثتهم من بعدهم الذين تربوا على أيديهم، وتغذوا بعلومهم وأخلاقهم، ثم هكذا يتناقل هذه التربية الخلف عن السلف، وأحظى الناس بها أكثرهم اتباعاً لها علماً وعملاً ودعوةً.

ولهذا وقع اختيار الباحث على أساليب ابن تيمية التربوية، وهو ممن عاش فيما بين القرنين السابع والثامن الهجري، وهما من أقرب العصور شبهاً بالعصر الحاضر، وهو ـ أيضاً ـ إمام اجتمعت فيه صفات المربي الحصيف الغيور على أمته ودينه، الذي كرس حياته منذ صغره على تعلم العلم وتعليمه والعمل به، والسعي لإصلاح مجتمعه بل والأمة، وتخليصها من الذلّ الذي أحاط بها، والتخلف الذي غشيها، مستخدماً في ذلك أساليب تربوية حكيمة مقتبسة من مشكاة النبوة.

ولو لم يكن لابن تيمية من الآثار الإيجابية لتلك الأساليب إلا مدرسته التي تخرج منها تلامذة ملؤوا الدنيا علماً وهدًى لكفى بذلك حاجة إلى إجراء مثل هذه الدراسة ونحوها، فكيف إذا انضم إلى ذلك اهتمام كثير من دعاة الإصلاح والمربين في العالم بعلوم هذا الإمام

والرجوع إليها كلما ضرب الأمة الجمود، علاوةً على إبراز جهود علماء الأمة وعلومهم المباركة، وترسم خطاهم في ذلك، للمشاركة في إصلاح الأمة وتحقيق سعادتها الدنيوية والأخروية خصوصاً في هذا المجال الهامّ، من خلال التعريف بالإمام ابن تيمية ونشأته وظروف عصره، ودوره الإصلاحي الذي قام به في مختلف الجوانب، والأساليب التربوية التي اتبعها لتزكية الجوانب العقلية، والجوانب التربوية والتعليمية، والجوانب الاجتماعية، والتي يظهر من خلالها تحقيقه لمفهوم التربية والمعاني التي يشتمل عليها كما ورد في الدراسة.

لقد استخدم الباحث في دراسته المنهج الوصفي، معتمداً على المصادر والمراجع الأصلية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وعلى تجربته الشخصية، وبعض ما كتب حول جوانب دراسته في الدراستين العربيتين السابقتين اللتين عرض لهما، لاستخلاص أهم الأساليب التربوية التي عني بها الإمام في مجموع فتاويه في الجوانب الثلاثة، والمبادئ التي كان ينطلق منها في كل أساليبه وتصرفاته.

وفي الفصل الأخير قام بعرض النتائج التي توصَّل إليها، والتي كان من أهمها:

١ ـ نشأة ابن تيمية العلمية، وظروف عصره، وحبه للخير وكراهيته للشَّرّ، مع توفيق الله له، ساعده على صقل شخصيته، والصبر والمثابرة في سبيل الإصلاح العلمي والعملي.

٢ ـ كان ابن تيمية يرى أنه لابدَّ للتربية من مربٍّ عالم عامل خبير بأحوال من يربِّيه، عامل على إصلاحه وتأديبه وتنمية قدراته في جميع الجوانب، شيئاً فشيئاً.

٣ ـ لقد استخدم ابن تيمية أساليب تربوية حكيمة، مستنبطة من هدي النبي ﷺ وأصحابه؛ إذ كان يرى أن في اتباعهم غنية عن مخالفتهم وتلمس الهدى من غيرهم، بل ذلك عين الضلال، وكان من أكثر الأساليب التي استعملها أساليب تغيير المنكر باللسان واليد والكتابة، وأساليب الحفاظ على العقل من كل ما من شأنه إضعافه أو انحرافه، وأساليب اجتماعية تدعو إلى التعايش مع الناس بسلام ووئام، وتشجيع كل اجتماع على الخير والإصلاح، ودرء كل شرّ وفساد وظلم.

واختتم الباحث دراسته بعدد من التوصيات التي يأمل أن يستفيد منها المربون؛ كإبراز قائمة بعدد من الأساليب التربوية النبوية، أو تلك التي خلفها العلماء الربانيون، بما يناسب كل مادة دراسية أو موقف تربوي، والعناية بجهود علماء المسلمين والاشتغال بها والغوص في أعماقها، لاستنباط خيراتها، إلى غير ذلك مما سيجده القارئ في هذه الدراسة.

الفصـــل الأول

الإطار العام للدراسة

الفصل الأول

الإطار العام للدراسة

١ ـ ١ ـ المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله أجمعين.

أما بعد؛

لقد امتنّ الله على البشرية جميعاً ببعثة نبينا محمد ﷺ على فترة من الرسل، مربياً ومعلماً للناس، بشريعة سهلة ميسورة شاملة لكل جوانب الحياة ـ إجمالاً أو تفصيلاً[1] ـ صالحة لكل زمان ومكان، تحقق لمن اتبعها السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا

(١) ولقد فهم ذاك المشرك هذه الشمولية فقال لسلمان الفارسي رضي الله عنه كما في (صحيح مسلم: ٢٦٢، وسنن أبي داود: ٧): «قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء، حتى الخِراءة ـ أداب قضاء الحاجة ـ قال: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم»، قال الإمام ابن تيمية في وصيته لأبي القاسم المغربي مبينا شمولية الإسلام كما في مجموع الفتاوى: (ج١٠ ـ ص٦٦٤): «وليجتهد أن يعتصم في كل باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النبي ﷺ».

مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

ولقد تلقى الصحابة الكرام هذه التربية بقبول حسن، ورعوها حقَّ رعايتها علماً وعملاً، ونقلوها إلى من بعدهم كما تركهم عليها رسول الله ﷺ، وكان هذا هو حال المسلمين حتى دبَّ الجهل بينهم، فتُلُقفت علوم مختلفة، ما زالت آثارها السلبية قائمة بين المسلمين في الجانبين العلمي والعملي من حياتهم.

ولقد رحم الله الأمة بأن قيض لها من العلماء الربانيين الذين أوقفوا حياتهم وأموالهم وجهودهم المختلفة لنصح الأمة، واستعادة مكانتها اللائقة بها، كان من بينهم شيخ الإسلام ابن تيمية، الذي اختاره الباحث لدراسة أساليبه التربوية، لما له من إسهامات علمية وعملية في المجال التربوي وغيره، بقيت آثارها الإصلاحية إلى اليوم، يستفيد منها المربون والمصلحون كلما طرق الأمة الجمود.

١ ـ ٢ ـ مشكلة الدراسة:

إن الأساليب التربوية عنصر أساسي من عناصر العملية التربوية التي لا غنى لأحد من الناس عنها، والعالم الإسلامي بعامة، والمجال التربوي فيه بخاصة لم يسلم من الغزو الفكري الذي طال مؤسساته المختلفة، فأدخلت ضمن قائمة أساليبه التربوية أساليب غير تربوية، أو أنها تخالف تعاليم ديننا الإسلامي الحنيف، تحت مزاعم التجديد، والانفتاح، والوصول إلى الأهداف، وغير ذلك من المزاعم التي تدور في فلك مبدأ: «الغاية تبرر الوسيلة»، مع أن المبدأ الإسلامي الحق: «الغاية لا تبرر الوسيلة»، مع ما لتلك الأساليب من آثار سيئة على الأمة وأبنائها كما تقدم.

ومن منطلق القاعدة الشرعية القائلة بأن الضرر يزال، كان لابدَّ على

المؤهلين من أبناء الأمة القيام بهذا الواجب الكفائي كلٌّ في مجال اختصاصه، ولما كانت إزالته تحتاج إلى بديل يشغل مكانه، وقع اختيار الباحث على الأساليب التربوية عند شيخ الإسلام ابن تيميّة الذي أطبقت شهرته الأفاق، وانتشرت مؤلفاته في كل مكان من العالم تقريباً، وأقبل كثير من الناس - على اختلاف مذاهبهم وفلسفاتهم الفكرية - عليها إقبالاً عجيباً، فأصبح كالمحور للنقاش الدائر بينهم، فالكثير يورد ويصدر عنه، ولا أدل على ذلك من اهتمام كثير من العلماء والمربين في العالَم بتراث هذا العالِم قديماً وحديثاً، فلهذا كان حريّاً بالدراسة للكشف عما هنالك من الحقيقة وتجليتها للناس، وهي من الدراسات القليلة في مجال أساليب العلماء الربانيين التربوية، ولعل فيها ما يبر قسم الشيخ أحمد بن محمد بن مرّي عندما أوصى تلامذةَ ابن تيمية بالاهتمام بكتبه ونشرها، وإشاعة نسخها من غير تصرف فيها - ولو كانت مكررة - والحرص على مقابلتها، وجمع الأشباه والنظائر في مكان واحد...، ثم ختم وصيته بقوله: «فلا تيأسوا من قبول القلوب القريبة والبعيدة لكلام شيخنا، فإنه - ولله الحمد - مقبول طوعاً وكرهاً، وأين غايات قبول القلوب السليمة لكلماته، وتتبع الهمم النافذة لمباحثه وترجيحاته، ووالله - إن شاء الله - ليُقيمن الله سبحانه لِنَصر هذا الكلام ونشره، وتدوينه وتفهمه، واستخراج مقاصده، واستحسان عجائبه وغرائبه، رجالاً هم إلى الآن في أصلاب آبائهم، وهذه سنة الله الجارية في عباده وبلاده، والذي وقع من هذه الأمور في الكون لا يحصي عدَدَه غير الله تعالى[1].

---

(١) محمد عزيز شمس، وعلي بن محمد العمران - الجامع لسيرة شيخ الإسلام - مكة المكرمة - دار عالم الفوائد - ط٢ - ١٤٢٢هـ - ص١٥٦.

١ ـ ٣ ـ أسئلة الدراسة:

إن حاجة المربين على مختلف مستوياتهم وتخصصاتهم إلى أساليب تربوية مقتبسة من نور النبوة الصافي، ومن تراث علمائهم أمر ضروري، ولقد حدد الباحث السؤال الرئيسي الآتي:

ما الأساليب التربوية عند الإمام ابن تيمية من خلال كتابه (مجموع الفتاوى)؟ ومن خلال الإجابة عن هذا السؤال أجاب الباحث عن الأسئلة الفرعية الآتية:

١ ـ من هو العالم الرباني الذي استطاع استنباط الأساليب التربوية من مشكاة النبوة، وطبقها عملياً مع نفسه ومع الآخرين، فآتت ثمارها المباركة في حياته وبعد موته؟

٢ ـ ما مفهوم التربية عند الإمام ابن تيميّة؟

٣ ـ ما الأساليب التربوية التي استخدمها الإمام ابن تيميّة؟

١ ـ ٤ ـ أهمية الدراسة:

إن هذه الدراسة تستمدّ أهميتها من أهمية الأساليب التربوية في العملية التعليمية التربوية؛ فإنها وسيلة لتحقيق الأهداف التربوية التي تسعى المؤسسات التربوية المختلفة لتحقيقها، فهي تعمل بجانب عناصر العملية التربوية الأخرى كالمنهاج والمعلم ونحوها، إذ إن نجاح أيّ عملية تربوية منوط بنوع الأسلوب التربوي المستخدم فيها.

كما أنها ستوفر ـ بمشيئة الله ـ أساليب تربوية كثيرة مستمدَّة من هدي النبي ﷺ وهدي صحابته، يمكن من خلالها الوصول إلى الأهداف التربوية بسهولة ويسر، مع كونها مرجعاً هاماً للقائمين على العملية التربوية على اختلاف تخصصاتهم وأدوارهم؛ سواء المعلمين، أو مدراء

المدارس، أو المشرفين، أو مخططي وواضعي المناهج، أو المؤلفين، وحتى الآباء، وأئمة المساجد والخطباء والدعاة، بل والعلماء، إذ الحقيقة أن كثيراً من هؤلاء بحاجة إلى تربية علمية وعملية خاصَّة بهم ليتمكنوا من تربية غيرهم، كما أنها ستساعد على التخلص من الأساليب غير المناسبة.

كما أنها ستفتح المجال أمام التربويين وغيرهم للعناية بالأساليب التربوية التي استخدمها علماؤنا، وإجراء المزيد من الدراسات عليها. إضافة إلى ما يعود على التربويين وطلبة العلم والدعاة وغيرهم من أبناء الأمة من معرفة لقدر هذا العالم، وبيان جهوده، وكيف استطاع بحسن أساليبه التربوية من إصلاح حالة التخلف والفساد السائدة في عصره ومجتمعه، والتي ما زال أثرها الإصلاحي باقياً إلى اليوم، وما يتبع ذلك من قيم وأخلاق ومبادئ تظهر من سيرته وتراثه العلمي الكبير.

وأخيراً هي ضمن جهود الغيورين على إحياء تراث الأمة الإسلامية وجهود علمائها المخلصين المستمدّ من الكتاب والسنة المطهَّرة الصافية من المحدثات والبدع، وإبرازه للأمة للاستفادة منه لتنشيط العملية التربوية وتفعيلها، والعودة بها إلى منابعها الأصيلة لتنال عزها ومكانتها اللائقة بها، وإثراءً للمكتبة التربوية عامة، وقائمة الأساليب التربوية خاصة في العالم الإسلامي وغيره.

١ ـ ٥ ـ تعريفات الدراسة:

عرَّف الباحث المصطلحات الواردة بعنوان الدراسة على النحو التالي:

أ ـ **التربية**: هي قيام المربي العالم العامل بتعليم، وتأديب،

وإصلاح، وتزكية، وتنمية قدرات من يربيه في مختلف الجوانب، شيئاً فشيئاً عن خبرة ودراية به.

ب ـ **الأساليب التربوية**: هي الإجراءات التي يستخدمها المربي وغيره بهدف إحداث تغيير في المتعلم نحو الأفضل بما يعود عليه وعلى غيره بالنفع في دينه أو دنياه، وقد استنبط الباحث هذه الأساليب من كتاب (مجموع الفتاوى) لابن تيميّة.

ج ـ **ابن تيميّة**: هو الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن تيْميّة الحرانيّ، ثم الدمشقيّ، الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر، أحد الأعلام، ولد يوم الإثنين، عاشر ربيع الأول بحرّان، سنة إحدى وستين وستمائة، وتوفي بقلعة دمشق، بالقاعة التي كان محبوساً بها، في ليلة الإثنين العشرين من ذي القعدة، سنة ثمان وعشرين وسبع مئة.

د ـ **مجموع الفتاوى**: هو كتاب ابن تيمية المكوَّن من سبعة وثلاثين مجلداً[1]، والذي اختاره الباحث للتعرُّف من خلاله على أساليبه التربوية.

١ ـ ٦ ـ محددات الدراسة:

إن ابن تيمية عالم من أعلام الفكر التربوي الإسلامي الأصيل، كرَّس حياته كلها للعلم والعمل والدعوة إلى الله تعالى على بصيرة، وتكونت له مدرسة تربوية على منهج النبي ﷺ وأصحابه، وعلماء السلف الصالح الكرام، وحمل دعوته بعده تلامذته الذين ملؤوا الدنيا علماً في شتى العلوم الشرعية والتاريخية وغيرها، فلهذا كان ابن تيمية محلَّ اهتمام كثير من الباحثين من المسلمين والمستشرقين وغيرهم.

(١) في طبعته القديمة كما سيأتي بيانه.

وقد كان لهذا الإمام الهمام أساليبه التربوية التي تتراءى من خلال مواقفة وردوده ودعوته، ودوره لنصرة الحق وأهله، وتعامله مع الأحداث المختلفة، والصراعات العديدة التي قاساها طيلة حياته مع أصناف مختلفة من البشر؛ بين رعاة ورعية، وعلماء ودعاة، وخاصة وعامة، ومسلمين وكفار وملحدين وغيرهم.

والباحث لا ينوي استقصاء تلك الأساليب كلها؛ إذ إنها مفرقة بين دفات كتبه وردوده وفتاويه، ولا يمكن الوصول إليها إلا بالغوص في أعماقها والتنقيب عنها في مظانِّها، وإنما اكتفى بالاقتصار على الأساليب التربوية المتعلقة بالجوانب العقلية، والجوانب التربوية والتعليمية، والجوانب الاجتماعية في كتابه (مجموع الفتاوى) لمزيد الحاجة إليها، كما يمكن تعميم نتائج هذه الدراسة في ضوء المحددين التاليين:

١ - **العيني**: وهو كتب ابن تيمية؛ والتي تتمثل في دراسة كتابه (مجموع الفتاوى) الذي استوعب قدراً كبيراً من أساليبه التربوية؛ فهو يضم جملة كبيرة من أنفس ما كتب هذا الإمام بين تأليف ابتدائي أو ردود على خصومه من المسلمين، أو من الكافرين، أو جواب على سؤال ورد إليه، أو شرح لما خفي من العلوم، إلى غير ذلك من مراسلاته وكتاباته وتعليقاته.

٢ - الطريقة المستخدمة في الدراسة:

يستخدم الباحث المنهج الوصفي؛ حيث يتناول كتاب: (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميّة) بالدراسة والتحليل، لتحديد الأساليب التربوية التي اتبعها الإمام أو تطرق إليها قدر الإمكان، مستعيناً بالمصادر والمراجع التي اعتنت بهذا الشأن، ككتاب (البداية والنهاية) لابن كثير، علاوة على دراستين عربيتين سابقتين حول بعض جوانب الدراسة الحالية.



الفصل الثاني

الإطار النظري والدراسات السابقة



الفصل الثاني

نشأة ابن تيمية

٢ ـ ١ ـ المقدمة:

لقد كتب جمع من العلماء ـ قديماً وحديثاً ـ عن حياة هذا العالم الجليل، وسيرته وآثاره العلمية والفكرية والإصلاحية في الشرق والغرب، بدءاً بطلابه ومعاصريه، ثم من أتى بعدهم وإلى يومنا هذا من موافقين ومخالفين، منهم من كتب عنه ضمن تراجم العلماء، ومنهم من أفرده بترجمة خاصة، ومنهم من أفرد لذلك مؤلفاً خاصاً، منها ما هو مطبوع، ومنها ما لم يطبع، أو لم يعثر عليه بعد.

وفي الزمن الحاضر عُقدت ندوات ومؤتمرات وأمسيات وفعاليات بشأنه، ما بين مختصر ومطوَّل، بل أقيم في المملكة العربية السعودية مشروع علمي كبير عُرف باسم: ((آثار شيخ الإسلام ابن تيمية وما لحقها من أعمال))، وهو يشمل آثاره التي خلفها رحمه الله؛ ككتبه ورسائله وفتاويه، وذلك بطبع ما لم يسبق طبعه، وتحقيق بعض ما سبق طبعه، وما لحقها من أعمال من المختصرات والاختيارات والشروح والتعليقات ونحوها، إضافة إلى سيرته العطرة، وجمعها من كتب التراجم والسير العامة. وقد صدر عنه عدة مؤلفات من أعمال الشيخ وما اتصل بها، منها كتاب (الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون)، وقد حوى خمساً وسبعين ترجمة من كتب التراجم

العامة؛ مخطوطها ومطبوعها[١].

وخصَّه جمع من العلماء بالتأليف؛ منهم ابن عبد الهادي، وابن ناصر الدين الدمشقي، وعبد الرحمن المقدسي، وللشيخ مرعي بن يوسف كتابان، وللبزار وابن فضل الله العمري...، وغيرهم.

وعقد مهرجان كبير حضره أكثر قادة الفكر في العالم الإسلامي في دمشق سمي: أسبوع الفقه الإسلامي ومهرجان ابن تيمية من ١٦ ـ ٢٠ شوال سنة ١٣٠٨هـ، وطبعت أعمال هذا الأسبوع والمهرجان في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب في القاهرة سنة ١٣٧٢هـ. كما أُلفت عن علمه وفكره وآثاره في عصرنا الحاضر رسائل عديدة وكتب مفيدة، وكتبت المقالات الكثيرة في المجلات العلمية في الشرق والغرب، تظهر فضله وعلمه[٢].

---

(١) تقدمت الإشارة إليه والنقل عنه، ولمزيد الفائدة انظر: بكر بن عبد الله أبو زيد ـ المداخل إلى آثار شيخ الإسلام ابن تيمية وما لحقها من أعمال ـ مكة المكرمة ـ دار عالم الفوائد ـ ١٤٢٢هـ ـ ص٩ ـ ١٢ فقد قال: «لا أعلم عالماً في الإسلام حظي بترجمته، ونشر آثاره، ودراسة اختياراته العلمية مثل ما حظي به هذا الإمام».

(٢) عبدالرحمن سليمان العثيمين ـ حاشية: المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، لابن مفلح ـ الرياض ـ مكتبة الرشد ـ ١٩٩٠م ـ ج١ ـ ص١٣٢ (٨٩)، وقال: أخباره في: (طبقات الحنابلة): ٢/ ٣٨٧، و(المنهج الأحمد): ٤٢٤، و(مختصره): ١٤١. وينظر: (برنامج الوادياشي): ١٠٥، و(معجم شيوخ الذهبي): ١٠، و(المعجم المختص): ٧، و(العبر): ١٠٥، و(الوافي بالوفيات): ٧/ ١٥، و(فوات الوفيات): ١/ ٧٤، و(تذكرة التنبيه): ٢/ ١٨٥، و(درة الأسلاك): ١٢٩، و(النجوم الزاهرة): ٩/ ٢٧١، و(مرآة الجنان): ٤/ ١٧٧، و(المنهل الصافي): ١/ ٣٥٨، و(الدرر الكامنة): ١/ ١٥٤، و(طبقات المفسرين): ١/ ٤٥، و(البدر الطالع): ١/ ٦٣.

ولقد تتبع الباحث سيرته في المصادر والمراجع الموثوقة والمقرَّبة من الإمام؛ ككتاب (البداية والنهاية) لتلميذه ابن كثير[١]، وكتابي (معجم الشيوخ) و (سير أعلام النبلاء) لتلميذه الذهبي[٢]، وكتاب (المقصد

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير ـ البداية والنهاية ـ القاهرة ـ دار أبي حيان ـ ١٩٩٦م، وقال ج١٤ ـ ص١٧٦ : وقد أفردت له تراجم كثيرة، وصنف في ذلك جماعة من الفضلاء وغيرهم، وسألخص من مجموع ذلك ترجمة وجيزة في ذكر مناقبه، وفضائله، وشجاعته، وكرمه، ونصحه، وزهادته، وعبادته، وعلومه المتنوعة الكثيرة المجودة، وصفاته الكبار والصغار التي احتوت على غالب العلوم ومفرداته، في الاختيارات التي نصرها بالكتاب والسنة، وأفتى بها.

(٢) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ـ معجم الشيوخ؛ (المعجم الكبير) ـ الطائف ـ مكتبة الصديق ـ ١٩٨٨م، وسير أعلام النبلاء ـ بيروت ـ مؤسسة الرسالة ـ ١٩٩٦م ـ ط١١، ولا شك أن ذلك يدحض مزاعم من يغمز في ابن تيمية متوهماً استبعاد الذهبي له من (النبلاء)، بسبب عدم ظهور ترجمته في المطبوع من (السير)!

على أن بشار عواد معروف قد ذكر في مقدمته لكتاب (السير: ١/ ١٠ ـ ٩٦): «أن الإمام الذهبي ذكر الأعلام وأسقط المشهورين والمغمورين، وحاول أن يوجد موازنة بين الأعلام في النوعية والأزمان والأمكنة. . . ، قال: وقد نظم الذهبي كتاب (السير) على الطبقات، فجعله في أربعين طبقة تقريبا، وآخر ما في المجلد الثالث عشر من نسخة ابن طوغان هي آخر الطبقة الخامسة والثلاثين» ـ وهي التي انتهت بها نسخة مؤسسة الرسالة، والتي بلغت خمساً وعشرين مجلداً مع الفهارس ـ «ولا أستبعد أن يتضمن المجلد الرابع عشر خمس طبقات إذا قايسنا ذلك ببقية المجلدات. . . ، وقد جرت عادة النسّاخ والمؤلفين، او كليهما على الإشارة والنص على انتهاء الكتاب، إلا أننا حينما نقرأ آخر المجلد الثالث عشر لا نجد أية إشارة من المؤلف أو الناسخ إلى انتهاء الكتاب». اهـ

وما توقعه الدكتور بشار هو الواقع؛ فقد ترجم له الذهبي في (السير)، ونقلها عنه ابن الوزير في: (العواصم والقواصم في الذبّ عن سُنة أبي القاسم، بيروت، الرسالة، ١٩٩٢م، ص٢٦١ ـ ٢٦٤) وأثبتها محققه؛ شُعيب =

الأحمد في ذكر أصحاب الإمام أحمد)[١]، و(طبقات الحفاظ)[٢] للسيوطي وغيرها، وذلك بهدف التحقق من صحة ما ينسب إليه أو يقال عنه أو فيه، إذ إن ابن تيميّة قد ناله ما نال أمثاله من الأذى والزور والبهتان، ليس في حياته فحسب، بل وبعد موته، ولا يضر السحاب نبح الكلاب!

ولقد أوذي من هو خير من ابن تيميّة؛ رسول الله ﷺ وصحابته وتابعيهم بإحسان، وقيل فيهم أشد مما قيل فيه ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وهكذا تتابع المبطلون على معاداة الحق وأهله؛ بلسان قالهم تارة، وبلسان حالهم في أحوال كثيرة، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

٢ ـ ٢ ـ نسب ابن تيمية:

أ ـ اسمه: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيْميّة الحراني، ثم الدمشقي[٣].

= الأرنؤوط، فقال: «إنما أثبتناها هنا لأن المجلد الذي فيه هذه الترجمة من (سير أعلام النبلاء) ـ وهو الأخير ـ لم يُطبع؛ لأننا لم نجد نسخة منه صالحة للنشر، ونصها: «وهذه ترجمة الإمام ابن تيمية من (النبلاء) للذهبي، نقلتها إلى هنا، لأني قد أكثرت عنه النقل في هذا الكتاب. . . ، قال أبو عبد الله الذهبي فيه: الشيخ الإمام، العالم، المفسر، الفقيه، المجتهد، الحافظ، المحدث، شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التصانيف الباهرة، والذكاء المفرط. . .».

(١) ابن مفلح ـ المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد ـ المصدر السابق ـ ج١ ـ ص١٣٢ ـ ١٣٩.

(٢) عبدالرحمن السيوطي ـ طبقات الحفاظ ـ عابدين / القاهرة ـ مكتبة وهبة ـ ١٩٧٣م ـ ص٥١٦ ـ ٥١٧.

(٣) ابن مفلح ـ المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد ـ المصدر السابق ـ =

ب ـ عائلته: **الحراني**؛ نسبة إلى حرَّان، وهي مدينة مشهورة بالجزيرة، خرج منها علماء أجلاء؛ منهم بنو تيميّة وغيرهم.

ذكر ابن جرير الطبري في تاريخه أن هاران ـ عم إبراهيم الخليل وأبو زوجته سارة ـ هو الذي عمرها فسميت به، ثم عربت به فقيل: حرَّان، وكان لإبراهيم ﷺ وعلى نبينا وبقية الأنبياء أخ يسمى بهاران أيضاً، وهو والد لوط ﷺ[1].

قال ياقوت الحموي: حرَّان بتشديد الراء وآخره نون، يجوز أن يكون فعّالاً:

من حرن الفرس، إذا لم ينقد، ويجوز أن يكون فَعلان من الحرّ؛ يقال: رجل حرّان أي: عطشان، وأصله من الحرّ، وامرأة حرّى، وهو حرّان يرّان، والنسبة إليها حرْناني، بعد الراء الساكنة نون على غير قياس، كما قالوا: مناني في النسبة إلى ماني، والقياس مانوي وحرّاني، والعامة عليهما.

قال أبو عون في زيجه: طول حرّان سبع وسبعون درجة، وعرضها سبع وثلاثون درجة، وهي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مُضر، بينها وبين الرّها يوم، وبين الرِّقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم. . .، وذكر قوم أنها أول مدينة بنيت على

= ج١ ـ ص٨٩، وابن عبدالهادي ـ العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام بن تيمية ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي ـ ص١٨.

(١) ابن العماد ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ بيروت ـ المكتب التجاري للطباعة والنشر ـ بلا تاريخ ـ ج٢ ـ ص١٩٧، وقال: قال في الصحاح: وحران اسم بلد، والنسبة إليه حرنائي على غير قياس، والقياس حرّاني على ما عليه العامة.

الأرض بعد الطوفان، وكانت منازل الصابئة، وهم الحرانيون الذين يذكرهم أصحاب كتب الملل والنحل.

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦]: إنه أراد حرّان[١]، وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ۝٧١﴾ [الانبياء: ٧١]: هي حرّان.

وفتحت في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد عياض بن غنم، نزل عليها قبل الرّها فخرج إليه مقدّموها فقالوا له: ليس بنا امتناع عليكم، ولكنا نسألكم أن تمضوا إلى الرّها فمهما دخل فيه أهل الرّها فعلينا مثله، فأجابهم عياض إلى ذلك، ونزل على الرّها وصالحهم...، فصالح أهل حرّان على مثاله[٢]، وينسب إليها جماعة كثيرة من أهل العلم، ولها تاريخ[٣].

ج ـ مسكنه: قال ياقوت الحموي عن قرية أجداد ابن تيمية: (باجَدّا) بفتح الجيم وتشديد الدال وألف مقصورة، قرية كبيرة بين رأس عين والرّقّة، قال أحمد بن الطيب: عليها سور، وكان مسلمة بن عبدالملك أقطع موضعها رجلاً من أصحابه يقال له: أسيد السلمي فبناها وسورها، وفيها بساتين تسقيها عين تنبع من وسطها، يشرب منها الناس، وما فضل يسقي زروعها، وهي قرب حصن مسلمة بن عبد الملك، منها محمد[٤]

---

(١) القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ـ القاهرة ـ دار الحديث ـ ١٩٩٤ ـ ج٧ ـ ص٣٥٢.

(٢) وقد أسند الخطيب البغدادي في تاريخه: ج١، ص١٨٤: «أنه صالحهم على الجزية».

(٣) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ ١٩٩٠م ـ ج١ ـ ص٣٧٢ ـ (١٢٨١)، وقال: «حران أيضاً من قرى حلب، وحران الكبرى وحران الصغرى قريتان بالبحرين لبني عامر بن الحارث بن أنمار بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس، وحران أيضاً قرية بغوطة دمشق».

(٤) أخو عبد الله بن أبي القاسم؛ والد جد ابن تيميّة.

ابن أبي القاسم الخضر بن محمد الحرّاني يعرف بابن تيميّة، وهو اسم لجدَّته، وكانت واعظة البلد، يعرف بالباجداي، وكان شيخا معظماً بحران وخطيبها وواعظها ومفتيها، ولأهل حرَّان فيه اعتقاد طاهر صالح، وكان نافذ الأمر فيهم مطاعاً، سمع الحديث ورواه، ولي منه إجازة، ورأيته غير مرة، ومات سنة ٦١٢هـ، وقد أسنّ[١].

د ـ كنيته: أبو العباس.

هـ ـ أوصافه: لقد وصف ابن تيميّة بأوصاف متعددة تظهر فضله وشرفه؛ من ذلك ما قاله السيوطي: الشيخ الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام، علم الزهاد، نادرة العصر، تقيّ الدين أبو العباس أحمد...، أحد الأعلام.

وقال ابن عبد الهادي[٢]: هو الشيخ الإمام الرباني، إمام الأئمة، ومفتي الأمة، وبحر العلوم، سيد الحفاظ، وفارس المعاني والألفاظ، فريد العصر، وقريع الدهر، شيخ الإسلام، بركة الأنام، وعلّامة الزمان، وترجمان القرآن، علم الزهاد، وأوحد العباد، قامع المبتدعين، وآخر المجتهدين[٣]، تقي الدين؛ أبو العباس أحمد ابن الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين أبي المحاسن عبدالحليم ابن الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبدالسلام...، نزيل دمشق وصاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها.

---

(١) ياقوت الحموي ـ المصدر السابق ـ ج٢ ـ ص٢٧١ ـ ٢٧٣.

(٢) ابن عبدالهادي ـ العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ المصدر السابق ـ ص١٨.

(٣) لعله يقصد بذلك في عصره، لأن الاجتهاد لم ينقطع، ولن ينقطع حتى لا يقال في الأرض: لا إله إلا الله.

و ـ شهرته: اشتهر بشيخ الإسلام ابن تيميّة، كما اشتهر بأحد الوصفين: شيخ

الإسلام(١)، ....

(١) قال الشيخ محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي في (الرد الوافر ـ بيروت ـ المكتب الإسلامي: ص٢٤، ٢٣)، عندما رد على من زعم أن من سمي ابن تيمية: «شيخ الإسلام» كافر، لا تصح الصلاة وراءه! «وهذا القول الشنيع الذي نرجو من الله العظيم أن يعجل لقائله جزاءه، قد أبان قدر قائله في الفهم، وأفصح عن مبلغه من العلم، وكشف عن محله من الهوى، ووصف كيف اتباعه لسبيل الهدى، ولا يرد بأكثر من روايته عنه ونسبته إليه، فكلام الإنسان عنوان عقله، يدل عليه، أما علم هذا القائل: أن لفظة شيخ الإسلام تحتمل وجوها من معاني الكلام؟!
منها: أنه شيخ في الإسلام قد شاب وانفرد بذلك عمن مضى من الأتراب، وحصل على الوعد المبشر بالسلامة أنه من شاب شيبة في الإسلام فهي له نور يوم القيامة.
ومنها: ما هو في عرف العوام أنه العدة ومفزعهم إليه في كل شدة.
ومنها: أنه شيخ الإسلام بسلوكه طريقة أهله، قد سلم من شر الشباب وجهله، فهو على السنة في فرضه ونفله. ـ ومنها: شيخ الإسلام بالنسبة إلى درجة الولاية، وتبرك الناس بحياته؛ فوجوده فيهم الغاية.
ومنها: أن معناه المعروف عند الجهابذة النقاد المعلوم عند أئمة الإسناد أن مشايخ الإسلام والأئمة الأعلام هم المتبعون لكتاب الله عزّ وجلّ المقتفون لسنة النبي ﷺ، الذين تقدموا بمعرفة أحكام القرآن ووجوه قراءاته وأسباب نزوله وناسخه ومنسوخه، والأخذ بالآيات المحكمات، والإيمان بالمتشابهات، قد أحكموا من لغة العرب ما أعانهم على علم ما تقدم، وعلموا السنة نقلاً وإسناداً وعملاً بما يجب العمل به، اعتماداً وإيماناً بما يلزم من ذلك اعتقاداً واستنباطاً للأصول والفروع من الكتاب والسنة، قائمين بما فرض الله عليهم، متمسكين بما ساقه الله من ذلك إليهم، متواضعين لله العظيم الشان، خائفين من عثرة اللسان، لا يدعون العصمة ولا =

وابن تيميّة[١] ـ وهو الأشهر ـ.

ز ـ مولده: كان مولده يوم الإثنين، عاشر ربيع الأول بحرّان، سنة إحدى وستين وستمائة، وسافر والداه به وبإخوته إلى الشام عند جور التتار، فساروا بالليل ومعهم الكتب على عجلة لعدم الدواب، فكاد العدو يلحقهم، ووقفت العجلة، فابتهلوا إلى الله واستغاثوا به فنجوا وسلموا[٢].

= يفرحون بالتبجيل، عالمين أن الذي أوتوا من العلم قليل، فمن كان بهذه المنزلة حكم بأنه إمام، واستحق أن يقال له: شيخ الإسلام، وإذا نظرنا في مشايخ الإسلام بعد طبقة الصحابة وجدنا منهم خلقاً بهذه المثابة...، ولقد صدق العلامة الإمام قاضي قضاة الإسلام؛ بهاء الدين أبو البقاء محمد بن عبد البر بن يحيى السبكي الشافعي ـ رحمه الله ـ حيث يقول لبعض من ذكر له الكلام في ابن تيميّة فقال: والله يا فلان! ما يبغض ابن تيميّة إلا جاهل أو صاحب هوى؛ فالجاهل لا يدري ما يقول، وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به انتهى.

مع أن جماعة من الأئمة ـ فيهم كثرة ـ ترجموه بذلك وشهروا بإمامته ومرتبته وقدره، أتراهم بهذا من الكفار الذين استوجبوا خلود النار؟! لا والذي يقول للشيء كن فيكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون».

(١) قال ابن عبدالهادي في العقود الدرية ـ المصدر السابق ـ ص١٨: «قيل إن جده محمد بن الخضر حج على درب تيماء، فرأى هناك طفلة، فلما رجع وجد امرأته قد ولدت له بنتا فقال: يا تيميّة! يا تيميّة! فلقب بذلك.

وقال ابن النجار: ذكر لنا أن جده محمداً كانت أمه تسمى تيميّة، وكانت واعظة، فنسب إليها وعرف بها».

(٢) ابن عبدالهادي ـ المصدر السابق ـ ص١٨، وابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق: ج١٤/ ١٧٢.

٢ ـ ٣ ـ عصره:

لقد ولد ابن تيمية في عصر خلافات سياسية وأطماع دولية، لِما كانت عليه الدولة الإسلامية في الخلافة العباسية من الضعف، لقد ولد في عصر تخلف فكري، وعقدي، وخلقي، واقتصادي، واجتماعي، في بيئة عشعشت فيها الخرافة والدجل والإلحاد والزندقة، وهذه سنة الله في خلقه حين يضعف العلم وينتشر الجهل، ويضعف الوازع الإيماني والسلطاني، ومع هذا لم تزل الدولة الإسلامية باقية، والخلافة الإسلامية قائمة إلا من شذ وخرج عن الجماعة، ومن هنا سيعرض الباحث إلى ناحيتين يظهر منهما حالة المجتمع الذي عاصره ابن تيمية؛ وهما:

أ ـ الناحية السياسية وبعض حكام عصره:

قال ابن العماد[١]: في سنة إحدى وستين وستمائة، في ثامن المحرم عقد مجلس عظيم للبيعة، وجلس الحاكم بأمر الله؛ أبو العباس أحمد ابن الأمير أبي علي بن أبي بكر ابن الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر العباسي، فأقبل عليه الملك الظاهر بيبرس البندقداري ومد يده إليه وبايعه بالخلافة، ثم بايعه الأعيان، وقلد حينئذ السلطنة للملك الظاهر بيبرس، فلما كان من الغد خطب بالناس خطبة حسنة؛ أولها: «الحمد لله الذي أقام لآل العباس ركناً وظهيراً»، ثم كتب بدعوته وإمامته إلى الأقطار وبقي في الخلافة أربعين سنة وأشهراً، وهو التاسع والثلاثون من بني العباس.

وفيها خرج الظاهر إلى الشام، وتحيل على صاحب الكرك الملك

---

(١) ابن العماد ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ المصدر السابق ـ ج٥ ـ ص٣٠٤ ـ ٣٠٥.

المغيث حتى نزل إليه، فكان آخر العهد به، لأنه كان كاتب هلاكو على أن يأخذ له مصر، وطلب منه عشرين ألف فارس، وأخرج كتبه بمصر وقرأها على العلماء، فأفتوا بعدم إبقاء من هذا فعله .

وفيها وصل كرمون المقدم في طائفة كبيرة من التتار قد أسلموا، فأنعم عليهم الملك الظاهر.

وفيها راسل بركة الملك الظاهر، ثم كانت وقعة هائلة بين بركة وبين ابن عمه هلاكو، فانهزم هلاكو ـ ولله الحمد ـ وقتل خلق من رجاله وغرق خلق .

ب ـ الناحية الأمنية والاجتماعية والاقتصادية:

قال ابن كثير في حوادث سنة سبع وستين وستمائة: وفي أواخر ذي الحجة هبت ريح شديدة أغرقت مائتي مركب في النيل، وهلك فيها خلق كثير، ووقع هناك مطر شديد جدّاً، أصاب الشام من ذلك صاعقة أهلكت الثمار، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وفيها أوقع الله تعالى الخلف بين التتار من أصحاب أبغا وأصحاب ابن منكوتمرا ـ ابن عمه ـ وتفرقوا واشتغلوا ببعضهم بعضاً ـ ولله الحمد ـ.

وفيها خرج أهل حرَّان منها، وقدموا الشام، وكان فيهم شيخنا العلامة أبو العباس أحمد بن تيمية، صحبة أبيه وعمره ست سنين، وأخوه زين الدين عبدالرحمن[1]، ....

(١) قال الذهبي في ترجمته في (معجم الشيوخ)؛ (المعجم الكبير) ـ المصدر السابق ـ ج١ ـ ص٣٦١ ـ ٣٦٢: «عبدالرحمن بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تَيمِية، الشيخ زين الدين الحراني، عالم فاضل، خيِّر ديِّن، ولد سنة ثلاث وستين وستمائة وسمع ـ حضوراً ـ من ابن عبد الدَّائم ـ وسماعاً ـ من ابن أَبي اليُسر وأصحاب حنبل، توفي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

وشرف الدين عبد الله[١] وهما أصغر منه[٢].

---

(١) قال ابن العماد في (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) ـ المصدر السابق ـ ج٦ ـ ص٧٦ ـ ٧٧، فيمن توفي سنة سبع وعشرين وسبعمائة: «المفتي الزاهد القدوة شرف الدين؛ عبد الله... الحنبلي، الفقيه الإمام المتقن أبو محمد، أخو الشيخ تقي الدين، ولد في حادي عشر محرم سنة ست وستين وستمائة بحران، وقدم مع أهله إلى دمشق رضيعاً، فحضر بها على ابن أبي اليسر وغيره، ثم سمع ابن علان وابن الصيرفي وخلقاً، وسمع المسند والصحيحين وكتب السنن وتفقه في المذهب حتى أفتى، وبرع أيضاً في الفرائض والحساب وعلم الهيئة وفي الأصلين، والعربية، وله مشاركة قوية في الحديث، ودرس بالحنبلية مدة.

وكان صاحب صدق وإخلاص، قانعاً باليسير، شريف النفس شجاعاً مقداماً مجاهداً زاهداً عابداً ورعاً، يخرج من بيته ليلاً ويأوي إليه نهاراً، ولا يجلس في مكان معين بحيث يقصد فيه، لكنه يأوي المساجد المهجورة خارج البلد فيختلي فيها للصلاة والذكر، وكان كثير العبادة والتألُّه والمراقبة والخوف من الله تعالى، ذا كرامات وكشوف، كثير الصدقات والإيثار بالذهب والفضة في حضره وسفره مع فقره وقلة ذات يده، وكان رفيقه في المحمل في الحج يفتش رحله فلا يجد فيه شيئاً ثم يراه يتصدق بذهب كثير جدّاً! وهذا أمر مشهور معروف عنه، وحج مرات متعددة، وكان له يد طولى في معرفة تراجم السلف ووفياتهم، في التواريخ المتقدمة والمتأخرة.

وجلس مع أخيه مدة في الديار المصرية، وقد استدعي غير مرّة وحده للمناظرة، فناظر وأفحم الخصوم، توفي رحمه الله تعالى يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الأولى بدمشق، وصُلِّيَ عليه الظهر بالجامع، وحمل إلى القلعة فصلى عليه أخواه؛ تقي الدين وعبد الرحمن وغيرهما، صلى عليه أخواه في السجن، لأن التكبير عليه كان يبلغهم، وكان وقتاً مشهوداً، ثم صلى عليه مرَّة ثالثة ورابعة، وحمل على الرؤوس والأصابع، فدفن في مقابر الصوفية». وقد قال الذهبي في (معجم الشيوخ) ـ ج١ ـ ص٣٢٤ ـ نحو هذا.

(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٣ ـ ص٣٢٦.

وفي شعبان[١] ركب الملك الناصر في أبهة الملك، وشق القاهرة ـ وكان يوماً مشهوداً ـ وكان هذا أول ركوبه، ودقت البشائر بالشام، وجاء المرسوم من جهته فقرئ على المنبر بالجامع؛ فيه الأمر بنشر العدل وطيّ الظلم وإبطال ضمان الأوقاف والأملاك إلا برضى أصحابها.

وفي اليوم الثاني والعشرين من شعبان، درس بالمسرورية القاضي جمال الدين القزويني ـ أخو إمام الدين ـ وحضر أخوه وقاضي القضاة شهاب الدين الخويي والشيخ تقي الدين ابن تيمية، وكان درساً حافلاً[٢].

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وستمائة، وفي ليلة الأحد ثاني ربيع الأول كسر المحبوسون بحبس باب الصغير الحبس، وخرجوا منه على حمية، وتفرقوا في البلد، وكانوا قريباً من مائتي رجل، فنهبوا ما قدروا عليه، وجاؤوا إلى باب الجابية[٣] فكسروا أقفال الباب البراني، وخرجوا منه إلى بر البلد، فتفرقوا حيث شاؤوا لا يقدر أحد على ردِّهم، وعاثت الحرافشة[٤] في ظاهر البلد، فكسروا أبواب البساتين، وقلعوا من الأبواب والشبابيك شيئاً كثيراً، وباعوا ذلك بأرخص الأثمان[٥].

وقال ابن العماد: قدم به والده وبأخويه عند استيلاء التتار على البلاد، إلى دمشق سنة سبع وستين[٦].

---

(١) أي سنة ثلاث وتسعين وستمائة.
(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٣ ـ ص٤٢٩.
(٣) قرية بدمشق.
(٤) ضعاف الناس والسوقة منهم.
(٥) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١١.
(٦) ابن العماد ـ شذرات الذهب ـ المصدر السابق ـ ج٥ ـ ص٨٠، وهكذا قال ابن مفلح وغيره.

٢ ـ ٤ ـ نشأته:

لقد نشأ ابن تيمية نشأة عجيبة فريدة، هيّأ الله له أسباب الإمامة في الدين بما جبله عليه من الصفات الخِلْقية والخُلُقية العديدة، التي فاق بها أقرانه؛ ونشأته في بيت علم وفضل ودين، متوارث كابراً عن كابر؛ فمن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر:

أ ـ والده عبد الحليم:

قال ابن كثير: الشيخ الإمام العالم شهاب الدين عبد الحليم ابن الشيخ الإمام العلامة مجد الدين عبد الله بن عبد الله بن أبي القاسم ابن تيمية الحرَّاني، والد شيخنا العلامة العلم تقي الدين ابن تيمية، مفتي الفرق، الفارق بين الفرق، كان له فضيلة حسنة، ولديه فضائل كثيرة، وكان له كرسي بجامع دمشق يتكلم عليه عن ظاهر قلبه، وولي مشيخة دار الحديث السكرية بالقصاعين، وبها كان سكنه، ثم درس ولده الشيخ تقي الدين بها بعده في السنة الآتية[١].

وقال الذهبي: قرأ المذهب حتى أتقنه على والده، ودرّس وأفتى وصنّف.

وصار شيخ البلد بعد أبيه، وخطيبه وحاكمه، وكان إماماً محققاً كثير الفنون، له يد طولى في الفرائض والحساب والهيئة، ديناً متواضعاً حسن الأخلاق جواداً من حسنات العصر، تفقه عليه ولداه أبو العباس، وأبو محمد، وحدثنا عنه على المنبر ـ ولده ـ وكان قدومه إلى دمشق بأهله وأقاربه مهاجراً سنة سبع وستين، وكان من أنجم الهُدى، وإنما اختفى

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٣ ـ ص٣٨٧.

من نور القمر وضوء الشمس. يشير إلى أبيه وابنه[١].

ب ـ جده عبدالسلام:

قال ابن كثير في ترجمته: الشيخ مجد الدين ابن تيمية صاحب (الأحكام) عبدالسلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن علي بن تيمية الحرّاني الحنبلي، جدّ الشيخ تقي الدين ابن تيمية، ولد في حدود سنة تسعين وخمسمائة، وتفقه في صغره على عمه الخطيب فخر الدين، وسمع الكثير، ورحل إلى البلاد، وبرع في الحديث والفقه وغيره، ودرّس وأفتى، وانتفع به الطلبة، ومات يوم الفطر بحرّان[٢].

ج ـ وفاة والده:

قال ابن مفلح: وتوفي والده الشيخ شهاب الدين وكان عمره إذ ذاك إحدى وعشرين سنة، فقام بوظائفه.

د ـ وفاة والدته: قال ابن كثير عنها: الشيخة الصالحة؛ ست المنعم بنت عبد الرحمن بن علي ابن عبدوس الحرّانية، والدة الشيخ تقي الدين ابن تيمية، عمرت فوق السبعين سنة، ولم ترزق بنتاً قط، توفيت يوم الأربعاء العشرين من شوال، ودفنت بالصوفية، وحضر جنازتها خلق كثير وجمٌّ غفير ـ رحمها الله ـ[٣].

---

(١) ابن العماد ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ المصدر السابق ـ ج٥ ـ ص٣٧٦.

(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٣ ـ ص٢٤٢.

(٣) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١٠١.

٢ ـ ٥ ـ محنته وصبره:

لقد تعرض ابن تيمية إلى محن كثيرة متنوعة، قام فيها كلها ـ إن شاء الله ـ نصرة لدين الله، وإظهاراً للحق الذي أكثر الناس له كارهون، وهذا واجب العلماء الربانيين المصلحين الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، تجاوباً مع قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ظهر من خلالها صبره، وخلقه في المصائب، ورضاه عن الله فيما قدّر عليه، وهو أعلى درجة من مجرد الصبر، وقد نصره الله في كل ما وقع له وفتن بسببه، وهذه سنته سبحانه فيمن قام بالحق له وحده، كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقد ذكرها الباحث معنوناً لها، متنقلاً بينها من محنة إلى محنة أو إلى منحة ونعمة، وكم أراد أعداؤه له النقم فكانت نِعماً!

قال ابن مفلح: ووقع له أمور وأحوال قام عليه فيها المعاند والحاسد إلى أن وصل الحال به أن وُضع في قلعة دمشق في مقام أبي الدرداء رضي الله عنه، سنة ست وعشرين في شعبان إلى ذي القعدة سنة ثمان وعشرين، ثم مرض أياماً ولم يعلم أكثر الناس مرضه(١). وإليك ـ أولاً ـ بعض تلك المحن، وموقفه ممن تسبب فيها:

أ ـ محنة الحموية:

قال ابن كثير(٢): وكان قد وقع في أواخر دولة لاجين بعد خروج

---

(١) ابن مفلح ـ المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد ـ المصدر السابق ـ ج١ ـ ص١٣٨ ـ ١٣٩.

(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٧، في حوادث سنة ثمان وتسعين وستمائة.

قبجق من البلد محنة للشيخ تقي الدين ابن تيمية؛ قام عليه جماعة من الفقهاء، وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضي جلال الدين الحنفي، فلم يحضر، فنودي في البلد في العقيدة التي كان قد سأله عنها أهل حماة المسماة (بالحموية)، فانتصر له الأمير سيف الدين جاعان، وأرسل يطلب الذين قاموا عنده، فاختفى كثير منهم، وضرب جماعة ممن نادى على العقيدة، فسكت الباقون، فلما كان يوم الجمعة عمل الشيخ تقي الدين الميعاد بالجامع على عادته، وفسر في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، ثم اجتمع بالقاضي إمام الدين يوم السبت، واجتمع عنده جماعة من الفضلاء، وبحثوا في الحموية وناقشوه في أماكن فيها، فأجاب عنها بما أسكتهم بعد كلام كثير، ثم ذهب الشيخ تقي الدين وقد تمهدت الأمور وسكنت الأحوال.

ب - وشاية الحسّاد:

قال ابن كثير: وفي هذا الشهر[١] ثار جماعة من الحسدة على الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وشكوا منه: أنه يقيم الحدود، ويعزر، ويحلق رؤوس الصبيان، وتكلم هو أيضاً فيمن يشكو منه ذلك، وبين خطأهم، ثم سكنت الأمور[٢].

ج - محنة تزوير اليعفوري وأحمد الغناري:

قال ابن كثير[٣] في حوادث سنة اثنتين وسبعمائة من الهجرة: وفي جمادى الأولى وقع بيد نائب السلطنة كتاب مزوَّر فيه: أن الشيخ تقي

(١) شوال، سنة إحدى وسبعمائة.
(٢) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٢٦.
(٣) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٣٠.

الدين ابن تيمية والقاضي شمس الدين ابن الحريري، وجماعة من الأمراء والخواص الذين بباب السلطنة يناصحون التتر ويكاتبونهم ويريدون تولية قبجق على الشام، وأن الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني يعلمهم بأحوال الأمير جمال الدين الأفرم، وكذلك كمال الدين ابن العطار، فلما وقف عليه نائب السلطنة عرف أن هذا مفتعل، ففحص عن واضعه، فإذا هو فقير كان مجارا بالبيت الذي كان مجاور محراب الصحابة، يقال له: اليعفوري، وآخر معه يقال له: أحمد الغناري، وكانا معروفين بالشرّ والفضول، ووجد معهما مسودة هذا الكتاب، فتحقق نائب السلطنة ذلك، فعزّرا تعزيراً عنيفاً، ثم وسطا بعد ذلك وقطعت يد الكاتب الذي كتب لهما هذا الكتاب؛ وهو التاج المناديلي .

د ـ محنة الأحمدية:

قال ابن كثير في حوادث سنة خمس وسبعمائة: وفي يوم السبت تاسع جمادى الأولى حضر جماعة كثيرة من الفقراء الأحمدية إلى نائب السلطنة بالقصر الأبلق، وحضر الشيخ تقي الدين ابن تيمية، فسألوا من نائب السلطنة بحضرة الأمراء: أن يكف الشيخ تقي الدين إمارته عنهم، وأن يسلم لهم حالهم، فقال لهم الشيخ: هذا ما يمكن، ولا بد لكل أحد أن يدخل تحت الكتاب والسنة قولاً وفعلاً، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه، فأرادوا أن يفعلوا شيئاً من أحوالهم الشيطانية التي يتعاطونها في سماعاتهم، فقال الشيخ: تلك أحوال شيطانية باطلة ـ وأكثر أحوالهم من باب الحيل والبهتان ـ ومن أراد منهم أن يدخل النار! فليدخل أولاً إلى الحمام، وليغسل جسده غسلاً جيداً ويدلكه بالخل والأشنان، ثم يدخل بعد ذلك إلى النار ـ إن كان صادقاً ـ ولو فرض أن أحداً من أهل البدع دخل النار بعد أن يغتسل فإن ذلك لا يدل على

صلاحه ولا على كرامته، بل حاله من أحوال الدجاجلة المخالفة للشريعة إذا كان صاحبها على السنة، فما الظن بخلاف ذلك!

فابتدر شيخ المنيبع الشيخ صالح وقال: نحن أحوالنا إنما تنفق عند التتر، ليست تنفق عند الشرع، فضبط الحاضرون عليه تلك الكلمة، وكثر الإنكار عليهم من كل أحد، ثم اتفق الحال على أنهم يخلعون الأطواق الحديد من رقابهم، وأن من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه، وصنف الشيخ جزءاً في طريقة الأحمدية، وبين فيه أحوالهم ومسالكهم وتخيلاتهم، وما في طريقتهم من مقبول ومردود بالكتاب، وأظهر الله السنة على يديه وأخمد بدعتهم، ولله الحمد والمنة[1].

هـ ـ محنة الواسطية:

قال ابن كثير في حوادث سنة خمس وسبعمائة: وفي يوم الإثنين ثامن رجب حضر القضاة والعلماء وفيهم الشيخ تقي الدين ابن تيمية عند نائب السلطنة بالقصر، وقرئت عقيدة الشيخ تقي الدين الواسطية، وحصل بحث في أماكن منها، وأخرت مواضع إلى المجلس الثاني.

فاجتمعوا يوم الجمعة بعد الصلاة؛ ثاني عشر الشهر المذكور، وحضر الشيخ صفي الدين الهندي، وتكلم مع الشيخ تقي الدين كلاماً كثيراً، ولكن ساقيته لاطمت بحراً! ثم اصطلحوا على أن يكون الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني هو الذي يحاققه من غير مسامحة، فتناظرا في ذلك، وشكر الناس من فضائل الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني وجودة ذهنه وحسن بحثه؛ حيث قاوم ابن تيمية في البحث وتكلم معه، ثم انفصل الحال على قبول العقيدة، وعاد الشيخ إلى منزله معظماً مكرماً.

---

(١) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٤٦ ـ ٤٧.

وبلغني أن العامة حملوا له الشمع من باب النصر إلى القصّاعين على جاري عادتهم في أمثال هذه الأشياء .

وكان الحامل على هذه الاجتماعات كتاب ورد من السلطان في ذلك، كان الباعث على إرساله قاضي المالكية ابن مخلوف، والشيخ نصر المنبجي شيخ الجاشنكير وغيرهما من أعدائه، وذلك أن الشيخ تقي الدين ابن تيمية كان يتكلم في المنبجي، وينسبه إلى اعتقاد ابن عربي، وكان للشيخ تقي الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه لتقدمه عند الدولة وانفراده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الناس له ومحبتهم له، وكثرة أتباعه، وقيامه في الحق وعلمه وعمله.

ثم وقع بدمشق خبط كثير وتشويش بسبب غيبة نائب السلطنة، وطلب القاضي جماعة من أصحاب الشيخ وعزر بعضهم.

ولما قدم نائب السلطنة ذكر له الشيخ تقي الدين ما جرى في حقه وحق أصحابه في غيبته، فتألم النائب لذلك ونادى في البلد: أن لا يتكلم أحد في العقائد، ومن عاد إلى تلك حلَّ ماله ودمه، ورتبت داره وحانوته، فسكنت الأمور.

وقد رأيت فصلاً من كلام الشيخ تقي الدين في كيفية ما وقع في هذه المجالس الثلاثة من المناظرات.

ثم عقد المجلس الثالث في يوم سابع شعبان بالقصر، واجتمع الجماعة على الرضى بالعقيدة المذكورة .

وفي هذا اليوم عزل ابن صصرى نفسه عن الحكم بسبب كلام سمعه من بعض الحاضرين في المجلس المذكور؛ وهو من الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني، ثم جاء كتاب السلطان في السادس والعشرين من شعبان

فيه إعادة ابن صصرى إلى القضاء، وذلك بإشارة المنبجي، وفي الكتاب: إنا كنا سمعنا بعقد مجلس للشيخ تقي الدين ابن تيمية، وقد بلغنا ما عقد له من المجالس، وأنه على مذهب السلف، وإنما أردنا بذلك براءة ساحته مما نسب إليه.

ثم جاء كتاب آخر في خامس رمضان يوم الإثنين، وفيه الكشف عمّا كان وقع للشيخ تقي الدين ابن تيمية في أيام جاغان والقاضي إمام الدين القزويني، وأن يحمل هو والقاضي ابن صصرى إلى مصر، فتوجها على البريد نحو مصر، وخرج مع الشيخ خلق من أصحابه وبكوا وخافوا عليه من أعدائه، وأشار عليه نائب السلطنة ابن الأفرم بترك الذهاب إلى مصر، وقال له: أنا أكاتب السلطان في ذلك وأصلح القضايا، فامتنع الشيخ من ذلك، وذكر له أن في توجهه لمصر مصلحة كبيرة ومصالح كثيرة، فلما توجه لمصر ازدحم الناس لوداعه ورؤيته، حتى انتشروا من باب داره إلى قرب الجسورة فيما بين دمشق والكسوة، وهم فيما بين باكٍ وحزين ومتفرج ومتنزه ومزاحم متغالٍ فيه.

فلما كان يوم السبت دخل الشيخ تقي الدين غزة، فعمل في جامعها مجلساً عظيماً، ثم دخلا معاً إلى القاهرة والقلوب معه وبه متعلقة، فدخلا مصر يوم الإثنين الثاني والعشرين من رمضان ـ وقيل إنهما دخلاها يوم الخميس ـ.

فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة، عقد للشيخ مجلس بالقلعة اجتمع فيه القضاة وأكابر الدولة، وأراد أن يتكلم على عادته، فلم يتمكن من البحث والكلام، وانتدب له الشمس ابن عدنان خصماً احتساباً، وادعى عليه عند ابن مخلوف المالكي أنه يقول: إن الله فوق العرش حقيقة، وأن الله يتكلم بحرف وصوت.

فسأله القاضي جوابه، فأخذ الشيخ في حمد الله والثناء عليه فقيل له: أجب، ما جئنا بك لتخطب!

فقال: ومن الحاكم فيّ؟

فقيل له: القاضي المالكي.

فقال له الشيخ: كيف تحكم فيّ وأنت خصمي؟!

فغضب غضبا شديدا وانزعج، وأقيم مرسما عليه، وحبس في برج أياما، ثم نقل منه ليلة العيد إلى الحبس المعروف بالجب، هو وأخواه شرف الدين عبد الله، وزين الدين عبد الرحمن.

وأما ابن صصرى فانه جُدد له توقيع بالقضاء بإشارة المنبجي شيخ الجاشنكير حاكم مصر، وعاد إلى دمشق يوم الجمعة سادس ذي القعدة والقلوب له ماقتة، والنفوس منه نافرة، وقرئ تقليده بالجامع، وبعده قرئ كتاب فيه الحط على الشيخ تقي الدين! ومخالفته في العقيدة! وأن ينادى بذلك في البلاد الشامية! وألزم أهل مذهبه بمخالفته! وكذلك وقع بمصر؛ قام عليه جاشنكير وشيخه نصر المنبجي، وساعدهم جماعة كثيرة من الفقهاء والفقراء، وجرت فتن كثيرة منتشرة، نعوذ بالله من الفتن.

وفي ليلة عيد الفطر أحضر الأمير سيفُ الدين سلار ـ نائب مصر ـ القضاةَ الثلاثة وجماعة من الفقهاء، فالقضاة: الشافعي، والمالكي، والحنفي، والفقهاء: الباجي، والجزري، والنمراوي، وتكلموا في إخراج الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الحبس، فاشترط بعض الحاضرين عليه شروطا بذلك؛ منها:

ـ أنه يلتزم بالرجوع عن بعض العقيدة.

وأرسلوا إليه ليحضر ليتكلموا معه في ذلك، فامتنع من الحضور، وصمم، وتكررت الرسل إليه ست مرات، فصمم على عدم الحضور،

ولم يلتفت إليهم، ولم يعدهم شيئاً، فطال عليهم المجلس، فتفرقوا وانصرفوا غير مأجورين.

وفي اليوم الثامن والعشرين من ذي الحجة أخبر نائب السلطنة بوصول كتاب من الشيخ تقي الدين من الحبس الذي يقال له: الجب، فأرسل في طلبه فجيء به، فقرئ على الناس، فجعل يشكر الشيخ ويثني عليه وعلى علمه وديانته وشجاعته وزهده، وقال: «ما رأيت مثله». وإذا هو كتاب مشتمل على ما هو عليه في السجن، من التوجه إلى الله، وأنه لم يقبل من أحد شيئاً لا من النفقات السلطانية ولا من الكسوة ولا من الإدرارات ولا غيرها، ولا تدنس بشيء من ذلك.

وفي هذا الشهر يوم الخميس السابع والعشرين منه، طلب أخوا الشيخ تقي الدين: شرف الدين وزين الدين من الحبس إلى مجلس نائب السلطان سلار، وحضر ابن مخلوف المالكي، وطال بينهم كلام كثير، فظهر شرف الدين بالحجة على القاضي المالكي بالنقل والدليل والمعرفة، وخطّأه في مواضع ادَّعى فيها دعاوى باطلة، وكان الكلام في مسألة العرش، ومسألة الكلام، وفي مسألة النزول....

وفي يوم الجمعة رابع عشر صفر اجتمع قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة بالشيخ تقي الدين ابن تيمية في دار الأوحدي من قلعة الجبل، وطال بينهما الكلام، ثم تفرقا قبل الصلاة، والشيخ تقي الدين مصمم على عدم الخروج من السجن.

فلما كان يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الأول، جاء الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى ملك العرب إلى السجن بنفسه، وأقسم على الشيخ تقي الدين ليخرجنَّ إليه، فلما خرج أقسم عليه ليأتينَّ معه إلى دار

سلار، فاجتمع به بعض الفقهاء بدار سلار، وجرت بينهم بحوث كثيرة، ثم فرقت بينهم الصلاة، ثم اجتمعوا إلى المغرب، وبات الشيخ تقي الدين عند سلار، ثم اجتمعوا يوم الأحد بمرسوم السلطان جميع النهار، ولم يحضر أحد من القضاة بل اجتمع من الفقهاء خلق كثير أكثر من كل يوم، منهم: الفقيه نجم الدين ابن رفع، وعلاء الدين التاجي، وفخر الدين ابن بنت أبي سعد، وعز الدين النمراوي، وشمس الدين ابن عدنان، وجماعة من الفقهاء، وطلبوا القضاة فاعتذروا بأعذار؛ بعضهم بالمرض، وبعضهم بغيره لمعرفتهم بما ابن تيمية منطوٍ عليه من العلوم والأدلة، وأن أحداً من الحاضرين لا يطيقه، فقبل عذرهم نائب السلطنة، ولم يكلفهم الحضور بعد أن رسم السلطان بحضورهم، أو بفصل المجلس على خير، وبات الشيخ عند نائب السلطنة، وجاء الأمير حسام الدين مهنا يريد أن يستصحب الشيخ تقي الدين معه إلى دمشق، فأشار سلار بإقامة الشيخ بمصر عنده ليرى الناس فضله وعلمه، وينتفع الناس به، ويشتغلوا عليه، وكتب الشيخ كتاباً إلى الشام يتضمن ما وقع له من الأمور[١].

و ـ محنة الصوفية:

قال البرزالي: وفي شوال منها ثكا الصوفية بالقاهرة على الشيخ تقي الدين، وكلموه في ابن عربي وغيره إلى الدولة، فردوا الأمر في ذلك إلى القاضي الشافعي، فعقد له مجلس، وادعى عليه ابن عطاء بأشياء، فلم يثبت عليه منها شيء، لكنه قال: لا يستغاث إلا بالله؛ لا يستغاث بالنبي استغاثة بمعنى العبارة، ولكن يتوسل به، ويتشفع به إلى الله، فبعض

(١) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٤٨ ـ ٥٩.

الحاضرين قال: ليس عليه في هذا شيء، ورأى القاضي بدر الدين ابن جماعة أن هذا فيه قلة أدب! فحضرت رسالة إلى القاضي أن يعمل معه ما تقتضيه الشريعة، فقال القاضي: قد قلت له ما يقال لمثله.

ثم إن الدولة خيروه بين أشياء:

إما أن يسير إلى دمشق أو الإسكندرية بشروط أو الحبس؟! فاختار الحبس، فدخل عليه جماعة في السفر إلى دمشق ملتزماً ما شرط، فأجاب أصحابه إلى ما اختاروا جبراً لخواطرهم، فركب خيل البريد ليلة الثامن عشر من شوال، ثم أرسلوا خلفه من الغد بريداً آخر، فردّوه! وحضر عند قاضي القضاة ابن جماعة وعنده جماعة من الفقهاء، فقال له بعضهم: إن الدولة ما ترضى إلا بالحبس، فقال القاضي: وفيه مصلحة له.

واستناب شمس الدين التونسي المالكي، وأذن له أن يحكم عليه بالحبس، فامتنع وقال: ما ثبت عليه شيء، فأذن لنور الدين الزواوي المالكي، فتحير! فلما رأى الشيخ توقفهم في حبسه قال: أنا أمضي إلى الحبس، وأتبع ما تقتضيه المصلحة!

فقال نور الدين الزواوي: يكون في موضع يصلح لمثله، فقيل له: الدولة ما ترضى إلا بمسمى الحبس، فأرسل إلى حبس القضاة في المكان الذي كان فيه تقي الدين ابن بنت الأعز حين سجن، وأذن له أن يكون عنده من يخدمه، كان ذلك كله بإشارة نصر المنبجي لوجاهته في الدولة؛ فإنه كان قد استحوذ على عقل الجاشنكير الذي تسلطن فيما بعد وغيره من الدولة والسلطان مقهور معه.

واستمر الشيخ في الحبس يُستفتى ويقصده الناس ويزورونه، وتأتيه

الفتاوى المشكلة التي لا يستطيعها الفقهاء من الأمراء وأعيان الناس، فيكتب عليها بما يحير العقول من الكتاب والسنة .

ثم عُقد للشيخ مجلس بالصالحية بعد ذلك كله، ونزل الشيخ بالقاهرة بدار ابن شقير، وأكبَّ الناس على الاجتماع به ليلاً ونهاراً.

وفي ليلة سلخ صفر ـ من سنة تسع وسبعمائة ـ توجه الشيخ تقي الدين ابن تيمية من القاهرة إلى الإسكندرية ـ صحبة أمير مقدم ـ فأدخله دار السلطان وأنزله في برج منها فسيح متسع الأكناف، فكان الناس يدخلون عليه ويشتغلون في سائر العلوم، ثم كان بعد ذلك يحضر الجمعات ويعمل المواعيد على عادته في الجامع، وكان دخوله إلى الإسكندرية يوم الأحد.

وبعد عشرة أيام وصل خبره إلى دمشق، فحصل عليه تألم، وخافوا عليه غائلة الجاشنكير وشيخه المنبجي، فتضاعف له الدعاء، وذلك أنهم لم يمكنوا أحداً من أصحابه أن يخرج معه إلى الإسكندرية، فضاقت له الصدر؛ وذلك أنه تمكن منه عدوه نصر المنبجي، وكان سبب عداوته له أن الشيخ تقي الدين كان ينال من الجاشنكير ومن شيخه نصر المنبجي ويقول: زالت أيامه وانتهت رياسته وقرب انقضاء أجله، ويتكلم فيهما وفي ابن عربي وأتباعه، فأرادوا أن يسيروه إلى الإسكندرية كهيئة المنفي، لعلّ أحداً من أهلها يتجاسر عليه فيقتله غيلة! فما زاد ذلك الناس إلا محبة فيه، وقرباً منه، وانتفاعاً به، واشتغالاً عليه، وحنواً وكرامة له.

وجاء كتاب من أخيه يقول فيه: إنَّ الأخ الكريم قد نزل بالثغر المحروس على نية الرباط، فإن أعداء الله قصدوا بذلك أموراً يكيدونه بها ويكيدون الإسلام وأهله، وكانت تلك كرامة في حقنا، وظنوا أن ذلك

يؤدي إلى هلاك الشيخ، فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة وانعكست من كل الوجوه وأصبحوا وأمسوا ومازالوا عند الله وعند الناس العارفين سود الوجوه، يتقطعون حسراتٍ وندماً على ما فعلوا، وانقلب أهل الثغر أجمعين إلى الأخ مقبلين عليه مكرمين له، وفي كل وقت ينشر من كتاب الله وسنة رسوله ما تقرُّ به أعين المؤمنين، وذلك شجًى في حلوق الأعداء.

واتفق أنه وجد بالإسكندرية إبليس قد باض فيها وفرَّخ وأضلَّ بها فرق السبعينية والعربية، فمزق الله بقدومه عليهم شملهم وشتَّت جموعهم - شذر مذر- وهتك أستارهم وفضحهم، واستتاب جماعة كثيرة منهم، وتوّب رئيساً من رؤسائهم، واستقر عند عامة المؤمنين وخواصِّهم؛ من أمير وقاضٍ وفقيه ومفتٍ وشيخ وجماعة المجتهدين إلا من شذَّ من الأغمار الجهال مع الذلة والصغار محبة الشيخ وتعظيمه، وقوبل كلامه والرجوع إلى أمره ونهيه، فعلت كلمة الله بها على أعداء الله ورسوله، ولعنوا سرّاً وجهراً وباطناً وظاهراً في مجامع الناس بأسمائهم الخاصة بهم، وصار ذلك عند نصر المنبجي المقيم المقعد، ونزل به من الخوف والذلّ ما لا يعبّر عنه.

والمقصود أن الشيخ تقي الدين أقام بثغر الإسكندرية ثمانية أشهر، مقيماً ببرج متسع مليح نظيف، له شباكان؛ أحدهما إلى جهة البحر، والآخر إلى جهة المدينة، وكان يدخل عليه من شاء، ويتردد إليه الأكابر والأعيان والفقهاء، ويقرؤون عليه ويستفيدون منه، وهو في أطيب عيش وأشرح صدر.

قلت: وقد أخبرني القاضي جمال الدين بن القلانسي بتفاصيل هذا

المجلس وما وقع فيه من تعظيمه وإكرامه، مما حصل له من الشكر والمدح من السلطان والحاضرين من الأمراء، وكذلك أخبرني بذلك قاضي القضاة منصور الدين الحنفي، ولكن أخبار ابن القلانسي أكثر تفصيلاً، وذلك أنه كان إذ ذاك قاضي العساكر ـ وكلاهما كان حاضراً هذا المجلس ـ ذكر لي: أن السلطان لما قدم عليه الشيخ تقي الدين ابن تيمية نهض قائماً للشيخ أول ما رآه، ومشى له إلى طرف الإيوان واعتنقا هناك هنيهة، ثم أخذ معه ساعة إلى طبقة فيها شباك إلى بستان فجلسا ساعة يتحدثان، ثم جاء ويد الشيخ في يد السلطان، فجلس السلطان وعن يمينه ابن جماعة قاضي مصر، وعن يساره ابن الخليلي الوزير، وتحته ابن صصرى، ثم صدر الدين علي الحنفي، وجلس الشيخ تقي الدين بين يدي السلطان على طرف طراحته.

ثم إن الشيخ بعد اجتماعه بالسلطان نزل إلى القاهرة، وعاد إلى بث العلم ونشره، وأقبلت الخلق عليه ورحلوا إليه؛ يشتغلون عليه ويستفتونه ويجيبهم بالكتابة والقول، وجاء الفقهاء يعتذرون مما وقع منهم في حقه فقال: قد جعلت الكلَّ في حلّ.

وبعث الشيخ كتاباً إلى أهله يذكر ما هو فيه من نعم الله وخيره الكثير، ويطلب منهم جملة من كتب العلم التي له، ويستعينون على ذلك بجمال الدين المزي؛ فإنه يدري كيف يستخرج له ما يريده من الكتب التي أشار إليها، وقال في هذا الكتاب: والحق كل ما له في علوّ وازدياد وانتصار، والباطل في انخفاض وسفول واضمحلال، وقد أذل الله رقاب الخصوم، وطلب أكابرهم من السلم من يطول وصفه، وقد اشترطنا عليهم من الشروط ما فيه عز الإسلام والسنة، وما فيه قمع الباطل والبدعة، وقد دخلوا تحت ذلك كله، وامتنعنا من قبول ذلك منهم حتى

يظهر إلى الفعل، فلم نثق لهم بقول ولا عهد، ولم نجبهم إلى مطلوبهم حتى يصير المشروط معمولاً والمذكور مفعولاً، ويظهر من عز الإسلام والسنة للخاصة والعامة ما يكون من الحسنات التي تمحو سيئاتهم، وذكر كلاماً طويلاً يتضمن ما جرى له مع السلطان في قمع اليهود والنصارى وذلهم، وتركهم على ما هم عليه من الذلة والصغار.

ز ـ محنة فتوى الطلاق:

قال ابن كثير: وفي يوم الخميس ثاني عشرين رجب[1]، عقد مجلس بدار السعادة للشيخ تقي الدين ابن تيمية بحضرة نائب السلطنة، وحضر فيه القضاة والمفتون من المذاهب، وحضر الشيخ، وعاتبوه على العود إلى الإفتاء بمسألة الطلاق، ثم حبس في القلعة فبقي فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً، ثم ورد مرسوم من السلطان بإخراجه يوم الإثنين؛ يوم عاشوراء من سنة إحدى وعشرين.

ح ـ محنة فتوى الزيارة:

قال البرزالي: وفي يوم الإثنين عند العصر سادس عشر شعبان[2] اعتقل الشيخ الإمام العالم العلامة تقي الدين ابن تيمية بقلعة دمشق، حضر إليه من جهة نائب السلطنة تنكز مشد الأوقاف، وابن الخطيري؛ أحد الحجاب بدمشق، وأخبراه أن مرسوم السلطان ورد بذلك، وأحضرا معهما مركوباً ليركبه، وأظهر السرور والفرح بذلك وقال: أنا كنت منتظراً لذلك، وهذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة.

وركبوا جميعاً من داره إلى باب القلعة، وأخليت له قاعة، وأجري

(١) أي من سنة عشرين وسبعمائة، ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١٢٣.
(٢) سنة ست وعشرين وسبعمائة، ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١٧.

إليها الماء، ورسم له بالإقامة فيها[(١)]، وأقام معه أخوه زين الدين يخدمه بإذن السلطان، ورسم له ما يقوم بكفايته.

قال البرزالي: وفي يوم الجمعة عاشر الشهر المذكور، قرئ بجامع دمشق الكتاب السلطاني الوارد باعتقاله، ومنعه من الفتيا .

وهذه الواقعة سببها فتيا وجدت بخطه في السفر وإعمال المطيّ إلى زيارة قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقبور الصالحين.

قال: وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان، أمر قاضي القضاة الشافعي بحبس جماعة من أصحاب الشيخ تقي الدين في سجن الحكم، وذلك بمرسوم نائب السلطنة، وإذنه له فيه فيما تقتضيه الشريعة في أمرهم، وعزر جماعة منهم على دواب، ونودي عليهم، ثم أُطلقوا سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية فإنه حبس بالقلعة[(٢)] وسكتت القضية.

وفي يوم الأربعاء عاشر القعدة درَّس بالحنبلية برهان الدين أحمد بن هلال الزرعي الحنبلي، بدلاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وحضر عنده القاضي الشافعي وجماعة من الفقهاء، وشقَّ ذلك على كثير من أصحاب الشيخ تقي الدين، وكان ابن الخطيري الحاجب قد دخل على الشيخ تقي الدين قبل هذا اليوم فاجتمع به وسأله عن أشياء بأمر نائب السلطنة، ثم يوم الخميس دخل القاضي جمال الدين بن جملة وناصر الدين مشد الأوقاف، وسألاه عن مضمون قوله في مسألة الزيارة، فكتب ذلك في درج، وكتب تحته قاضي الشافعية بدمشق: قابلت الجواب عن هذا السؤال المكتوب على خط ابن تيمية، إلى أن قال: وإنما المحز جعله

(١) وهو ما يعرف ـ اليوم ـ بالإقامة الجبرية.

(٢) وأفرج عنه يوم الثلاثاء عشرين ذي الحجة، سنة ثماني وعشرين وسبعمئة؛ بعد وفاة شيخه بشهر تقريباً.

زيارة قبر النبي ﷺ وقبور الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصية بالإجماع مقطوعاً بها .

فانظر الآن هذا التحريف على شيخ الإسلام! فإن جوابه على هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء والصالحين، وإنما فيه ذكر قولين: في شد الرحل والسفر إلى مجرد زيارة القبور، وزيارة القبور من غير شدّ رحل إليها مسألة، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى .

والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شدّ رحل بل يستحبها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك، ولم يتعرض إلى هذه الزيارة في هذا الوجه في الفتيا، ولا قال إنها معصية، ولا حكى الإجماع على المنع منها، ولا هو جاهل قول الرسول: (**زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة**)[1]، والله سبحانه لا يخفى عليه شيء، ولا يخفى عليه خافية ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ط ـ محنة منعه الكتب والأوراق:

قال ابن كثير: وفي يوم الإثنين تاسع جمادى الآخرة، أُخرج ما كان عند الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الكتب والأوراق والدواة والقلم،

(١) الحديث أخرجه مسلم: (٩٧٧) ٢٢٦٠ و٢٢٦١، وأما حديث: (لا تشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد. . . .)، فهو حديث متواتر عن جمع من الصحابة؛ منهم أبو بصرة الغفاري عند أحمد (٦/ ٣٩٨) كما في الإرواء: (٣/ ٢٣٠)، قال: «لقيت أبا هريرة وهو يسير إلى مسجد الطور ليصلي فيه، قال: فقلت له: لو أدركتك قبل أن ترتحل ما ارتحلت، قال: ولِمَ؟ قال: فقلت: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تشد. . .)، انظر البخاري: ١١٨٩، ومسلم: ١٣٩٧، وأبو داود: ٢٠٣٣، والترمذي: ٣٢٦، والنسائي: ٧٠٠، وابن ماجه: ١٤١٠، ومسند أحمد: ١١٤٧٣.

ومنع من الكتب والمطالعة، وحملت كتبه في مستهلّ رجب إلى خزانة الكتب بالعادلية الكبيرة.

قال البرزالي: وكانت نحو ستين مجلداً وأربع عشرة ربطة كراريس، فنظر القضاة والفقهاء فيها، وتفرقوها بينهم! وكان سبب ذلك أنه أجاب - لمّا كان رد عليه التقي ابن الأخنائي المالكي في مسألة الزيارة - فرد عليه الشيخ تقي الدين واستجهله، وأعلمه أنه قليل البضاعة في العلم، فطلع الأخنائي إلى السلطان وشكاه، فرسم السلطان عند ذلك بإخراج ما عنده من ذلك، وكان ما كان كما ذكرنا(١).

٢ - ٦ - صفحه عمّن أساء إليه:

قال ابن القلانسي: سمعت الشيخ تقي الدين يذكر ما كان بينه وبين السلطان من الكلام لما انفردا في ذلك الشباك الذي جلسا فيه؛ وأن السلطان استفتى الشيخ في قتل بعض القضاة، بسبب ما كانوا تكلموا فيه، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشنكير، وأنهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضاً، وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم، وإنما كان حنقه عليهم بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله ومبايعة الجاشنكير، ففهم الشيخ مراد السلطان، فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء، ويُنكر أن ينال أحداً منهم بسوء، وقال له إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم! فقال له: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً، فقال الشيخ: من آذاني فهو في حلّ، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح(٢).

---

(١) ابن كثير - المصدر السابق - ج١٤ - ص١٧٠.

(٢) ابن كثير - المصدر السابق - ج١٤ - ص٦٩ - ٧٠.

وقال الشيخ البرزالي: ولما دخل السلطان إلى مصر يوم عيد الفطر لم يكن له دأب إلا طلب الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الإسكندرية معززاً مكرماً مبجلاً، فوجه إليه في ثاني يوم من شوال بعد وصوله بيوم أو يومين، فقدم الشيخ تقي الدين على السلطان في يوم ثامن الشهر، وخرج مع الشيخ خلق من الإسكندرية يودعونه، واجتمع بالسلطان يوم الجمعة، فأكرمه وتلقاه ومشى إليه في مجلس حفل فيه قضاة المصريين والشاميين، وأصلح بينه وبينهم، ونزل الشيخ إلى القاهرة، وسكن بالقرب من مشهد الحسين والناس يترددون إليه، والأمراء والجند وكثير من الفقهاء والقضاة منهم من يعتذر إليه ويتنصل مما وقع منه، فقال: أنا حللت كل من آذاني(١).

٢ ـ ٧ ـ كرمه:

قال البزار: «حدثني الشيخ العالم الفاضل المقرئ أبو محمد عبد الله ابن الشيخ الصالح المقرئ أحمد بن سعيد قال: كنت يوماً جالساً بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه، فجاء إنسان فسلم عليه، فرآه الشيخ محتاجاً إلى ما يعتمُّ به، فنزع الشيخ عمامته ـ من غير أن يسأله الرجل ذلك ـ فقطعها نصفين، واعتمَّ بنصفها ودفع النصف الآخر إلى ذلك الرجل(٢)».

قال ابن القيم: وشاهدت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ إذا خرج إلى الجمعة، يأخذ ما وجد في البيت من خبز أو غيره فيتصدق

(١) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٦٨ ـ ٧٠.
(٢) البزار ـ الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ـ بيروت ـ المكتب الإسلامي ـ ص٦٣.

به في طريقه سرًّا، وسمعته يقول: إذا كان الله قد أمرنا بالصدقة بين يدي مناجاة رسول الله، فالصدقة بين يدي مناجاته تعالى أفضل، وأولى بالفضيلة(١).

٢ ـ ٨ ـ ورعه:

لقد ضرب رحمه الله في الورع أروع الأمثلة؛ فقد قُرب ـ مرة ـ إليه طعامٌ فلم يأكل، فقيل له: ألا تأكل؟ فقال: «كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس؟!(٢)».

٢ ـ ٩ ـ وفاته وجنازته:

قد أورد ابن كثير خبر وفاته وجنازته(٣) مفصلة بما لا مزيد عليها، آثرت ذكرها هنا لما فيها من العبر والفوائد؛ فقد قال نقلا عن الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه: وفي ليلة الإثنين العشرين من ذي القعدة توفي الشيخ الإمام العالم العلم العلامة الفقيه الحافظ الزاهد العابد المجاهد القدوة ـ شيخ الإسلام ـ تقي الدين أبو العباس أحمد ابن شيخنا الإمام العلامة المفتي شهاب الدين أبي المحاسن عبدالحليم ابن الشيخ الإمام شيخ الإسلام أبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم محمد ابن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني ثم الدمشقي، بقلعة دمشق، بالقاعة التي كان محبوساً بها .

---

(١) ابن القيم ـ زاد المعاد ـ المرجع السابق ـ ج١ ـ ص٤٠٧.
(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١١٣.
(٣) في حوادث سنة ثمان وعشرين وسبع مائة.

وحضر جمع كثير إلى القلعة، وأذن لهم في الدخول عليه، وجلس جماعة عنده قبل الغسل، وقرؤوا القرآن وتبركوا برؤيته وتقبيله، ثم انصرفوا، ثم حضر جماعة من النساء، ففعلن مثل ذلك، ثم انصرفن واقتصروا على من يغسله، فلما فرغ من غسله أخرج، ثم اجتمع الخلق بالقلعة والطريق إلى الجامع، وامتلأ الجامع أيضاً، وصحنه والكلاسة وباب البريد وباب الساعات إلى باب اللبادين والغوارة.

وحضرت الجنازة في الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك، ووضعت في الجامع، والجند قد احتاطوا بها يحفظونها من الناس من شدة الزحام، وصُلِّي عليه أولاً بالقلعة؛ تقدم في الصلاة عليه أولاً الشيخ محمد بن تمام، ثم صُلِّي عليه بالجامع الأموي، عقيب صلاة الظهر، وقد تضاعف اجتماع الناس على ما تقدم ذكره، ثم تزايد الجمع إلى أن ضاقت الرحاب والأزقة والأسواق بأهلها ومن فيها.

ثم حمل - بعد أن صُلِّي عليه - على الرؤوس والأصابع، وخرج النعش به من باب البريد، واشتدّ الزحام، وعلت الأصوات بالبكاء والنحيب، والترحم عليه والثناء والدعاء له، وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم وثيابهم، وذهبت النعال من أرجل الناس وقباقيبهم ومناديل وعمائم لا يلتفتون إليها لشغلهم بالنظر إلى الجنازة، وصار النعش على الرؤوس، تارة يتقدم وتارة يتأخر وتارة يقف حتى تمر الناس، وخرج الناس من الجامع من أبوابه كلها، وهي شديدة الزحام، كل باب أشد زحمة من الآخر.

ثم خرج الناس من أبواب البلد جميعها من شدة الزحام فيها، لكن كان معظم الزحام من الأبواب الأربعة؛ باب الفرج الذي أخرجت منه الجنازة، وباب الفراديس، وباب النصر، وباب الجابية، وعظم الأمر

بسوق الخيل، وتضاعف الخلق وكثر الناس، ووضعت الجنازة هناك، وتقدم للصلاة عليه هناك أخوه؛ عبد الرحمن.

فلما قُضيت الصلاة حمل إلى مقبرة الصوفية، فدفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله - رحمهما الله - وكان دفنه قبل العصر بيسير، وذلك من كثرة من يأتي ويصلي عليه من أهل البساتين وأهل الغوطة وأهل القرى وغيرهم، وأغلق الناس حوانيتهم، ولم يتخلف عن الحضور إلا من هو عاجز عن الحضور مع الترحم والدعاء له، وأنه لو قدر ما تخلف، وحضر نساء كثيرات؛ بحيث حزرن بخمسة عشر ألف امرأة غير اللاتي كن على الأسطحة وغيرهن، الجميع يترحمن ويبكين عليه فيما قيل.

وأما الرجال فحزروا بستين ألفاً، إلى مائة ألف، إلى أكثر من ذلك، إلى مائتي ألف، وشرب جماعة الماء الذي فضل من غسله، واقتسم جماعة بقية السدر الذي غسل به، ودفع في الخيط الذي كان فيه الزئبق الذي كان في عنقه بسبب القمل مائة وخمسون درهما، وقيل إن الطاقية التي كانت على رأسه دفع فيها خمسمائة درهم، وحصل في الجنازة ضجيج وبكاء كثير...، ورئيت له منامات صالحة كثيرة، ورثاه جماعة بقصائد جمة.

ولما مات كنت غائباً عن دمشق بطريق الحجاز، ثم بلغنا خبر موته بعد وفاته، بأكثر من خمسين يوماً لما وصلنا إلى تبوك، وحصل التأسف لفقده رحمه الله.

قال ابن كثير: ثم ذكر الشيخ علم الدين بعد إيراد هذه الترجمة، جنازة أبي بكر بن أبي داود وعظمها، وجنازة الإمام أحمد ببغداد وشهرتها، وقال الإمام أبو عثمان الصابوني: سمعت أبا عبدالرحمن

السيوفي يقول: حضرت جنازة أبي الفتح القواس الزاهد مع الشيخ أبي الحسن الدارقطني، فلما بلغ إلى ذلك الجمع العظيم أقبل علينا وقال: سمعت أبا سهل بن زياد القطان يقول: سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول: سمعت أبي يقول: قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم الجنائز.

قال: ولا شك أن جنازة أحمد بن حنبل كانت هائلة عظيمة، بسبب كثرة أهل بلده واجتماعهم لذلك وتعظيمهم له، وأن الدولة كانت تحبه، والشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله توفي ببلدة دمشق وأهلها لا يعشرون أهل بغداد حينئذ كثرة، ولكنهم اجتمعوا لجنازته اجتماعاً لو جمعهم سلطان قاهر وديوان حاصر، لما بلغوا هذه الكثرة التي اجتمعوها في جنازته وانتهوا إليها، هذا مع أن الرجل مات بالقلعة محبوساً من جهة السلطان، وكثير من الفقهاء والفقراء يذكرون عنه للناس أشياء كثيرة مما ينفر منها طباع أهل الأديان - فضلاً عن أهل الإسلام - وهذه كانت جنازته.

قال: وقد اتفق موته في سحر ليلة الإثنين المذكور، فذكر ذلك مؤذن القلعة على المنارة بها، وتكلم به الحراس على الأبرجة، فما أصبح الناس إلا وقد تسامعوا بهذا الخطب العظيم والأمر الجسيم، فبادر الناس على الفور إلى الاجتماع حول القلعة من كل مكان أمكنهم المجيء منه، حتى من الغوطة والمرج، ولم يطبخ أهل الأسواق شيئاً، ولا فتحوا كثيراً من الدكاكين التي من شأنها أن تفتح أوائل النهار على العادة، وكان نائب السلطنة تنكز قد ذهب يتصيد في بعض الأمكنة، فحارت الدولة ماذا يصنعون، وجاء الصاحب شمس الدين غبريال، نائب القلعة، فعزاه فيه، وجلس عنده، وفتح باب القلعة لمن يدخل من الخواص والأصحاب والأحباب، فاجتمع عند الشيخ في قاعته خلق من أخصاء أصحابه من الدولة وغيرهم من أهل البلد والصالحية، فجلسوا عنده

يبكون ويثنون على مثل ليلى، يقتل المرء نفسه، وكنت فيمن حضر هناك، مع شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي رحمه الله، وكشفت عن وجه الشيخ، ونظرت إليه وقبلته، وعلى رأسه عمامة بعذب مغروزة، وقد علاه الشيب أكثر مما فارقناه، وأخبر الحاضرين أخوه، زين الدين عبد الرحمن: أنه قرأ هو والشيخ منذ دخل القلعة ثمانين ختمة، وشرعا في الحادية والثمانين، فانتهينا فيها إلى آخر اقتربت الساعة: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥]، فشرع عند ذلك الشيخان الصالحان الخيران عبد الله بن المحب وعبد الله الزرعي؛ الضرير ـ وكان الشيخ رحمه الله يحب قراءتهما ـ فابتدآ من أول سورة الرحمن حتى ختما القرآن، وأنا حاضر أسمع وأرى. ثم شرعوا في غسل الشيخ، وخرجت إلى مسجد هناك، ولم يدعوا عنده إلا من ساعد في غسله، منهم: شيخنا الحافظ المزي، وجماعة من كبار الصالحين الأخيار ـ أهل العلم والإيمان ـ فما فُرغ منه حتى امتلأت القلعة، وضج الناس بالبكاء والثناء والدعاء والترحم، ثم ساروا به إلى الجامع فسلكوا طريق العمادية على العادلية الكبيرة، ثم عطفوا على ثلث الناطفانيين، وذلك أن سويقة باب البريد كانت قد هدمت لتصلح، ودخلوا بالجنازة إلى الجامع الأموي، والخلائق فيه بين يدي الجنازة وخلفها وعن يمينها وشمالها مالا يحصى عدتهم إلا الله تعالى، فصرخ صارخ، وصاح صائح: هكذا تكون جنائز أئمة السنة! فتباكى الناس وضجوا عند سماع هذا الصارخ.

ووُضع الشيخ في موضع الجنائز مما يلي المقصورة، وجلس الناس من كثرتهم وزحمتهم على غير صفوف، بل مرصوصين رصّاً لا يتمكن أحد من السجود إلا بكلفة ـ جوّ الجامع ـ وبرّى الأزقة والأسواق، وذلك

قبل أذان الظهر بقليل، وجاء الناس من كل مكان، ونوى خلق الصيام؛ لأنهم لا يتفرغون في هذا اليوم لمأكل ولا لشرب، وكثر الناس كثرة لا تحد ولا توصف.

فلما فرغ من أذان الظهر أقيمت الصلاة عقبه على السدة خلاف العادة، فلما فرغوا من الصلاة، خرج نائب الخطيب لغيبة الخطيب بمصر فصلى عليه إماماً، وهو الشيخ علاء الدين الخراط، ثم خرج الناس من كل مكان من أبواب الجامع والبلد كما ذكرنا، واجتمعوا بسوق الخيل، ومن الناس من تعجل بعد أن صلى في الجامع إلى مقابر الصوفية، والناس في بكاء وتهليل في مخافتة كل واحد بنفسه، وفي ثناء وتأسف والنساء فوق الأسطحة من هناك إلى المقبرة يبكين ويدعين ويقلن: هذا العالم!

وبالجملة كان يوماً مشهوداً لم يعهد مثله بدمشق، إلا أن يكون في زمن بني أمية حين كان الناس كثيرين، وكانت دار الخلافة، ثم دفن عند أخيه قريباً من أذان العصر على التحديد، ولا يمكن أحد حصر من حضر الجنازة، وتقريب ذلك أنه: عبارة عمّن أمكنه الحضور من أهل البلد وحواضره، ولم يتخلف من الناس إلا القليل من الصغار والمخدرات(١)، وما علمت أحداً من أهل العلم - إلا النفر اليسير - تخلف عن الحضور في جنازته، وهم ثلاثة أنفس: ابن جملة، والصدر، والقفجاري، وهؤلاء كانوا قد اشتهروا بمعاداته، فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم، بحيث إنهم علموا متى خرجوا قتلوا وأهلكهم الناس، وتردد شيخنا الإمام العلامة برهان الدين الفزاري إلى قبره في الأيام الثلاثة، وكذلك جماعة

(١) عنى بهن النساء ذوات الخدور.

من علماء الشافعية، وكان برهان الدين الفزاري يأتي راكباً على حماره وعليه الجلالة والوقار، وعملت له ختمات كثيرة، ورئيت له منامات صالحة عجيبة، ورثي بأشعار كثيرة، وقصائد مطولة جدا[١]. وفي يوم الجمعة آخر شهر ربيع الآخر، صُلِّي عليه بالمدينة النبوية[٢].

٢ ـ ١٠ ـ مناقبه وثناء العلماء عليه:

لقد شهد لهذا العالم الحبر بالخير والفضل والإحسان القاصي والداني، والقريب والبعيد، والبر والفاجر، والموافق والمخالف، في زمنه والأزمان التي جاءت بعده، بل حتى أعداءه وخصومه لم يمنعهم ذلك من الشهادة له بالعلم وما له من الفضل، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١]، وهذا من تزكية الله له في الدنيا قبل الآخرة، وذلك من عاجل بشرى المؤمن، وقد ثبت عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (**من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرّاً وجبت له النار، أنتم شهداء الله على**

---

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١٧١ ـ ١٧٦، بتصرف، وبنحو هذا قال الذهبي، والسيوطي، وابن العماد في (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) ـ المصدر السابق ـ ج٥. ص٨٤.

(٢) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١٨١ في حوادث سنة تسع وعشرين وسبعمائة.
ولم يكن الشيخ يرضى بما وقع في جنازته من الغلو والمخالفات التي صدرت من بعض الجهلة والعوام، كما هو واضح في سيرته ومصنفاته؛ فهذا شأن أنبياء الله وأوليائه، وإنما يقر على الغلو فيه وتعظيمه بغير حق من يريد علوّاً في الأرض وفساداً؛ كفرعون ونحوه، ومشائخ الضلال الذين غرضهم العلوّ في الأرض والفساد، والفتنة بالأنبياء والصالحين، واتخاذهم أرباباً، والإشراك بهم مما يحصل في مغيبهم وفي مماتهم. (ج٢٧/ ٨١).

خلقه)[١]. ولعل في هذه الشهادات ما يُذهب غيظ كثير ممن ينتسب إلى العلم، فيعرف لهذا الإمام فضله .

أولاً - ذكر بعض من أثنى عليه من أهل العلم:

أ - قال العلامة الحافظ ابن ناصر الدين في شرح بديعته، بعد ثناء جميل، وكلام طويل: وأثنى عليه الذهبي وخلق بثناء حميد؛ منهم: الشيخ عماد الدين الواسطي العارف، والعلامة تاج الدين عبد الرحمن الفزاري، وابن الزملكاني، وأبو الفتح، وابن دقيق العيد، وحسبه من الثناء الجميل قول أستاذ أئمة الجرح والتعديل، أبي الحجاج المزي الحافظ الجليل، قال عنه: ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحدا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله، ولا أتبع لهما منه[٢].

ب - وقال الذهبي: فريد العصر علماً، ومعرفةً، وذكاءً، وحفْظاً، وكرماً، وزهداً، وفرط شجاعة، وكثرة تآليف، والله يصلحه ويسدّده، فلَسْنَا - بحمد الله - ممَّن نَغْلُو فيه ولا نجفو عنه، ما رُئِي كاملاً مثل أئمة التابِعين وتابِعيهم، فما رأيتهُ إلّا بِبطْنِ كتَاب، ولـم يخلُف بعده مثلُه في العلم، ولا من يقارِبه[٣].

وقال: شيخنا وشيخ الإسلام...، سمع الحديث وأكثر بنفسه من

---

(١) مسند أحمد، والبخاري ومسلم والنسائي؛ كما في صحيح الجامع - ج٢ - ص١٠٣٢ - رقم: (٥٩٥٠).

(٢) ابن العماد - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - المصدر السابق - ج٦ - ص٨٤.

(٣) الذهبي - معجم الشيوخ، (المعجم الكبير) - المصدر السابق - ج١ - ص٥٦ - ٥٧.

طلبه، وكتب وخرج ونظر في الرجال والطبقات، وحصّل ما لم يحصّله غيره، وبرع في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه بطبع سيال، وخاطر وقاد، إلى مواضع الإشكال ميال، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها، وبرع في الحديث وحفظه؛ فقلّ من يحفظ ما يحفظ من الحديث معزوّاً إلى أصوله وصحابته، مع شدة استحضار له وقت إقامة الدليل، وفاق الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب وفتاوى الصحابة والتابعين، بحيث إنه إذا أفتى لم يلتزم بمذهب، بل بما يقوم دليله عنده، وأتقن العربية أصولاً وفروعاً وتعليلاً واختلافاً، ونظر في العقليات وعرف أقوال المتكلمين ورد عليهم، ونبه على خطئهم وحذر، ونصر السنة بأوضح حجج وأبهر براهين، وأوذي في ذات الله من المخالفين، وأخيف في نصر السنة المحضة حتى أعلى الله مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وكبت أعداءه، وهدى به رجالاً كثيرة من أهل الملل والنحل، وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالباً، وعلى طاعته، وأحيا به الشام، بل الإسلام بعد أن كاد ينثلم ـ خصوصاً في كائنة التتار ـ[١].

وقال أيضاً: وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه[٢].

ج ـ قال علم الدين البرزالي: أثنى عليه وعلى علومه وفضائله جماعة

---

(١) ابن العماد ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ المصدر السابق ـ ج٦ ـ ص٨٠ ـ ٨٢.

(٢) ابن العماد ـ المصدر السابق ـ ج٦ ـ ص٨٢.

من علماء عصره؛ مثل القاضي الخوبي، وابن دقيق العيد، وابن النحاس، والقاضي الحنفي - قاضي قضاة مصر - ابن الحريري، وابن الزملكاني وغيرهم.

ووجدت بخط ابن الزملكاني أنه قال: اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها، وأن له اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتدين، وكتب على تصنيف له هذه الأبيات[١]:

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلّت عن الحصر

هو حجة لله قاهرة ... هو بيننا أعجوبة الدهر

هو آية للخلق ظاهرة ... أنوارها أرْبَت على الفجر

وهذا الثناء عليه، وكان عمره يومئذ نحو الثلاثين سنة، وكان بيني وبينه مودة وصحبة من الصغر، وسماع الحديث والطلب من نحو سنة.

وله فضائل كثيرة، وسيرته وما جرى بينه وبين الفقهاء والدولة، وحبسه مرات، وأحواله لا يحتمل ذكر جميعها هذا الموضع وهذا الكتاب[٢].

د - قال ابن مفلح: الإمام الفقيه المجتهد الحافظ المفسر أبو العباس الحافظ تقي الدين، شيخ الإسلام وعلم الأعلام[٣].

---

(١) وقد كتب ابن الزملكاني بخطه على كتاب (إبطال الحيل): ترجمة الكتاب، واسم الشيخ، وترجم له ترجمة عظيمة، وأثنى عليه شيئاً كثيراً، وكتب تحته بخطه هذه الأبيات، كما قال ابن مفلح - المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد - المصدر السابق - ج١ - ص١٣٦.

(٢) ابن كثير - البداية والنهاية - المصدر السابق - ج١٤ - ص١٧٣.

(٣) ابن مفلح - المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد - المصدر السابق - ج١ - ص١٣٥.

هـ ـ وقال الشيخ شرف الدين: أنا أرجو بركته ودعاه وهو صاحبي وأخي. ذكر ذلك البِرْزاليُّ في تاريخه.

و ـ وقال قاضي القضاة شهاب الدين الخوِيِّي[(١)]: أنا على اعتقاد الشيخ تقي الدين، فعوتب في ذلك فقال: لأن ذهنه صحيح، ومواده كثيرة، فهو لا يقول إلا الصحيح.

ز ـ كان شمس الدين ابن الحريري[(٢)] يقول: إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام، فمن؟

وقال لبعض أصحابه: أتحب الشيخ تقي الدين؟ قال: نعم، قال: والله لقد أحببت شيئاً مليحاً[(٣)].

ح ـ قال ابن العماد: وللشيخ أثير الدين أبي حيان الأندلسي[(٤)] ـ النحوي ـ لما دخل الشيخ إلى مصر واجتمع به، فأنشد أبو حيان:

لما رأينا تقي الدين لاح لنا داعٍ إلى الله فرْد ما له وَزَرُ

---

(١) هو: شهاب الدين محمد بن أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى الخويي، منسوب إلى خوى من أعمال أذربجان [معجم البلدان: ٢/٤٠٨] من قضاة دمشق ومشاهير علمائها.

(٢) هو قاضي القضاة شمس الدين ابن الحريري أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي عمر وعثمان بن أبي الحسن عبدالوهاب الأنصاري الحنفي ولد سنة ثلاث وخمسين، وسمع الحديث، واشتغل، وقرأ الهداية، وكان فقيهاً جيداً، ودرس بأماكن كثيرة بدمشق، ثم ولي القضاء بها، ثم خطب إلى قضاء الديار المصرية فاستمر بها مدة طويلة، محفوظ العرض، لا يقبل من أحد هدية، ولا تأخذه في الحكم لومة لائم.

(٣) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١٧٩.

(٤) هو الإمام المعروف النحوي اللغوي المفسر؛ محمد بن يوسف النفزي الغرناطي الأندلسي صاحب (البحر المحيط)، وغيره.

على مُحيّاه من سيما الأُولى صحبوا   خيرَ البرية نورٌ دونه القمر
حَبْر تسربل مِنه دَهرُه حبراً   بحر تقاذف من أمواجه الدُّرر
قام ابن تيميةٍ في نصر شِرعتنا   مَقام سيدِ تيمٍ إذ عصت مُضر
فأظهر الدين إذا آثاره دَرست   وأخمد الشركَ إذ طارت له شَرر
يا من تحدَّث عن علم الكتاب أصِخ   هذا الإمام الذي قد كان يُنتَظَر

يشير بهذا إلى أنه المجدد.

ط ـ وممن صرح بذلك الشيخ عماد الدين الواسطي، وقد توفي قبل الشيخ، وقال في حق الشيخ بعد ثناء طويل جميل ما لفظه: فوالله، ثم والله، ثم والله ! لم يُر تحت أديم السماء مثل شيخكم ـ ابن تيمية ـ علماً وعملاً، وحالاً، وخلقاً، واتباعاً، وكرماً، وحلماً، وقياماً في حق الله عند انتهاك حرماته، أصدق الناس عقداً، وأصحهم علماً وعزماً، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همة، وأسخاهم كفّاً، وأكملهم اتباعاً لنبيه محمد ﷺ ، ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلى النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، يشهد القلب الصحيح إن هذا هو الاتباع حقيقة .

ي ـ وقال الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد، وقد سئل عن ابن تيمية بعد اجتماعه به: كيف رأيته؟ فقال: «رأيت رجلاً سائر العلوم بين عينيه، يأخذ ما شاء منها، ويترك ما شاء! فقيل له: فلم لا تتناظران؟ قال لأنه يحب الكلام وأحب السكوت!»

ك ـ وكان الشيخ العارف بالله أبو عبد الله بن قوام يقول: «ما أسلمت معارفنا إلا على يد ابن تيمية».

ل ـ وقال ابن رجب: «كانت العلماء والصلحاء والجند والأمراء

والتجار وسائر العامة تحبه، لأنه منتصب لنفعهم ليلاً ونهاراً بلسانه وعلمه[١]».

م ـ قال ابن العماد: «شيخ الإسلام، تقي الدين، أبو العباس أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني، الحنبلي ـ بل المجتهد المطلق ـ[٢]».

ن ـ قال ابن حجر[٣]: «ثارت فتنة عظيمة بين الحنابلة والأشاعرة بدمشق، وتعصب الشيخ علاء الدين البخاري ـ نزيل دمشق ـ على الحنابلة، وبالغ في الحط على ابن تيمية، وصرح بتكفيره، فتعصب جماعة من الدماشقة لابن تيمية، وصنف صاحبنا الحافظ شمس الدين ابن ناصر الدين جزءاً في فضل ابن تيمية، وسرد أسماء من أثنى عليه وعظمه من أهل عصره فمن بعدهم على حروف المعجم، مبيناً لكلامهم، وأرسله إلى القاهرة، فكتب عليه غالب المصريين التصويب، وخالفوا علاء الدين البخاري في إطلاق القول بتكفيره، وتكفير من أطلق عليه أنه شيخ الإسلام، وخرج مرسوم السلطان إلى أن كل أحد لا يعترض على مذهب غيره، ومن أظهر شيئاً مجمعاً عليه سُمع منه، وسكن الأمر». انتهى.

---

(١) عبدالحي بن العماد ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ المصدر السابق ـ ج٥ ـ ص٨٣ ـ ٨٤.

(٢) في حوادث سنة خمس وثلاثين وثمانمائة كما عند ابن العماد ـ المصدر السابق ـ ج٦ ـ ص٨٠.

(٣) ابن العماد ـ المصدر السابق ـ ج٧ ـ ص٢١١.

ثانياً ـ ثناء خصومه ومخالفيه عليه:

أ ـ تقي الدين السبكي: فقد كتب إلى الحافظ الذهبي في أمر الشيخ تقي الدين: «فالمملوك يتحقق أن قدره وزخارة بحره وتوسعته في العلوم الشرعية والعقلية، وفرط ذكائه واجتهاده بلغ من ذلك كل المبلغ الذي يتجاوزه الوصف، والمملوك يقول ذلك دائماً، وقدره في نفسي أكثر من ذلك وأجلّ مع ما جمعه الله تعالى من الزهادة والورع والديانة، ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه، وجريه على سَنَن السلف، وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان، بل في أزمان».

ب ـ صدر الدين الحنفي: قال ابن كثير: «جلست يوماً إلى القاضي صدر الدين الحنفي بعد مجيئه من مصر، فقال لي: أتحب ابن تيمية؟ قلت: نعم، فقال لي ـ وهو يضحك ـ: والله لقد أحببت شيئاً مليحاً! وذكر لي قريبا مما ذكر ابن القلانسي، لكن سياق ابن القلانسي أتم[١]».

ج ـ الصدر بن الوكيل: قال ابن كثير: «كان مسرفاً على نفسه قد ألقى جلباب الحياء فيما يتعاطاه من القاذورات والفواحش، وكان ينصب العداوة للشيخ ابن تيمية ويناظره في كثير من المحافل والمجالس، وكان يعترف للشيخ تقي الدين بالعلوم الباهرة، ويثني عليه، ولكنه كان يجاحف عن مذهبه وناحيته وهواه، وينافح عن طائفته[٢]».

د ـ علي بن يعقوب بن جبريل البكري: قال ابن كثير: «الشيخ الإمام الزاهد نور الدين أبو الحسن المصري الشافعي، له تصانيف، وقرأ مسند الشافعي على وزيرة بنت المنجا، ثم إنه أقام بمصر، وقد كان في جملة

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٧١.
(٢) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١٠١ ـ ١٠٢.

من ينكر على شيخ الإسلام ابن تيمية، أراد بعض الدولة قتله فهرب واختفى عنده، لمّا كان ابن تيمية مقيماً بمصر».

هـ قاضي **المالكية ابن مخلوف** كان يقول: «ما رأينا مثل ابن تيمية! حرّضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا[١]».

(١) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٧٠.

الفصل الثالث

الدراسات السابقة



الفصـل الثالث

الدراسات السابقة

لم يقف الباحث ـ رغم التقصي والبحث[١] ـ على أي دراسة محلية أو عربية أو أجنبية في مجال دراسته، وإنما وقف على عدة دراسات حول ابن تيمية؛ منها ما ركّز على الجوانب التربوية، ومنها ما ركز على النواحي الشخصية والعلمية، ومنها ما ركز على النواحي الدعوية وغيرها، ولقد وقف على دراسة أجنبية واحدة حول فكر ابن تيمية التربوي لماجد عرسان الكيلاني، ترجمت إلى اللُّغة العربية بعنوان: (الفكر التربوي عند ابن تيمية)، أفاد منها الباحث في بعض الجوانب من دراسته.

(١) لقد قام الباحث بالاتصال والبحث عن المستخلصات وأدلة الدراسات والرسائل العلمية بالجامعات الأردنية، والسعودية، والمصرية، وفي دولة الإمارات العربية المتحدة، وسلطنة عمان، وتفقد معارض الكتاب التي أقيمت في الدولتين الأخيرتين فيما بين مارس/ إلى إبريل/ ٢٠٠٥م، كما قام بزيارات ميدانية لمكتبة زايد بدولة الإمارات العربية المتحدة، واطلع على مستخلصات الرسائل العلمية، إضافة إلى الاستقصاء المقدم للباحث من مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، علاوة على البحث في شبكة الانترنت، فلم يعثر على أي دراسة لها علاقة مباشرة بموضوع دراسته الحالية، وإنما وقف على عناوين بعض الدراسات التي أجريت في الأردن حول الأساليب التربوية عند بعض علماء المسلمين، وهي قليلة جدّاً.

وقد أفاد الباحث من دراستين عربيتين سابقتين، كان لهما تعلق بالجوانب الفكرية والتربوية عند ابن تيمية، في خدمة بعض جوانب دراسته المتعلقة بمباحثها.

فالأولى بعنوان: (**دراسات في فكر ابن تيمية**)، لعبد اللطيف محمد العبد، حول حياة ابن تيمية وفكره في التصوف والعقل، نشر مكتبة النهضة المصرية، بالقاهرة، سنة ١٩٨١م، هدف من خلالها إلى دراسة فكر ابن تيمية، ليقدمها للمفكرين والقراء، وإحياء لفكر ابن تيمية، ومساهمة منه في تجلية بعض المواقف الفكرية لهذا العالم العلم المسلم، ومشاركة في إحياء التراث الفكري العربي الإسلامي.

ومع صغر حجمها، وقلة مباحثها، وندرة مراجعها، إلا أن الباحث قد أحسن ربط موضوعاتها وتسلسلها، مع كثرة فوائدها، وحسن عبارتها، وجودة انتقائها، ولقد اقتصر في دراسته على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تعرض فيه لحياة ابن تيمية، واستوعب فيها قدراً كبيراً من سيرته وترجمته ومناقبه، مبتدئاً بولادته ونشأته العلمية، والحوادث الكثيرة إبّان ولادته، كما تعرض فيها إلى ذكائه وحفظه للَّذين كانا سبباً في تبحره في العلوم المختلفة، وبين فيها حرصه على الوقت في طلب العلم وتعليمه، واهتمامه بالقرآن، قراءة وتفسيراً، إذ كان يرى أن أسلوبه ومنهجه في الاستدلال لإثبات الحقائق هو خير المناهج وأشدها تأثيراً في النفوس، ولذلك كان كثير الاستشهاد بالقرآن الكريم في كتاباته.

كما تتطرق إلى غيرته على الشرع الحنيف المستمدة من البصيرة الواعية التي منحه الله إياها، والتي بها تتكشف لها الأدلة والعلل والحجج، وهذا قد أعانه على معارضة أهل البدع والأهواء، وإظهار عيوبهم ودحض شبههم.

كما ذكر أن الشيخ اهتم بدراسة الخط والعلوم الرياضية، ثم تدرج باعتناءٍ إلى دراسة العلوم الدينية؛ من الفقه والأصول والفرائض والتفسير والحديث، وكان اتجاهه نحو العلوم مبكراً، فلم يكن مثل غيره من الأطفال يلهو ويلعب، ومع هذا لم يكن منفصلاً عن الحياة والمجتمع، بل كان يلقي الدروس مكان والده وهو لم يتجاوز الثانية والعشرين.

ثم تطرق إلى مؤلفاته الكثيرة وفتاويه، وموقفه المتسامح من خصومه.

كما ذكر اهتمام الشيخ بالعبادة، وأنه كان من الأوّابين المنيبين، وأنه كان يتحلى باليقين والمشاهدة، ولم يكن يسأل إلا ربه ولا يشكو إلا إليه مع مخاطبته للناس ومشاركته لهم في أفراحهم وأحزانهم، إضافة إلى شجاعته ومجاهدته في سبيل الله بلسانه ويده وماله، فلا يخاف في الله لومة لائم، وقد كان يتسم بالتواضع، كما كان الكرم سجية له، واستدل على منزلته بين المسلمين بثناء العلماء عليه قديماً وحديثاً حتى خصومه، وأما إخلاصه فقد كانت مظاهره تبدو في كل تصرفاته قولاً وفعلاً.

وأخيراً تحدث عن وفاته، وعن جنازته التي لم يُشهد مثلها.

القسم الثاني: وقد تعرض فيه لرأي ابن تيمية في التصوف؛ من حيث نشأته، وتاريخه، ودعاته، والمغالون فيه، وبيّن الفرق بين بعض أهله المعتدلين وبين أهله المغالين فيه، كما بيّن تأثير الصوفية المنتسبين إلى الإسلام على الصوفية في الأديان الأخرى وبالعكس، وبين الفرق بين متصوفة الفقهاء ومتصوفة العبّاد، ومتصوفة الجهمية ومتصوفة الاتحادية، كما رد من عدة وجوه ـ لا دافع لها ـ قول غلاة الصوفية: بأن الولي أعظم من الرسول، وبين من هو الولي الحق الذي ذكر في الكتاب والسنة، والفرق بينه وبين ولي الشيطان، الذي يحسب الجاهل أنه أوتي

كرامات أولياء الرحمن، وإنما هي ضلالات الشياطين وتلبيساتهم.

ثم تعرض لكرامات الصحابة، وهي تابعة لما اتفق عليه أهل السنة من التصديق بكرامات الأولياء، وما يجريه الله على أيديهم من خوارق العادات في العلوم والمكاشفات والتأثيرات، بخلاف المعتزلة الذين أنكروها، وذكر عنه أن الكرامات تعين صاحبها على البر والتقوى، بخلاف أولياء الجن الذين تعينهم شياطينهم على الإثم والعدوان، وأن الكرامة ليست هدفاً مقصوداً للمسلم، وإنما تكون بحسب حاجة الرجل، فقد يأتي ضعيف الإيمان منها ما يقوي إيمانه، ويسد حاجته، وبعكس هذا يكون قوي الإيمان لعلو درجته وكمال يقينه، ونقل عنه طائفة من كرامات بعض الصحابة والتابعين.

وبين ما يُحمد من الزهد وما لا يحمد منه؛ وهو ما خالف الشريعة، وأن واجب السالك طريق الزهد أن يسلك بعلم سليم يوافق الشريعة، ولهذا ضلَّ من المتفقهة الذين اهتموا بطهارة الظاهر، بل زادوا على المشروع فيها، وأهملوا طهارة الباطن، وعلى العكس من هؤلاء؛ تجد بعض المتصوفة تنحصر هممهم في طهارة القلب مع التزيّد فيها على المشروع، ويتركون من طهارة البدن ما أمر الله به إيجاباً أو استحباباً .

ويَذكر عنه بأنه لا يرى بأساً من اعتزال الناس في فضول المباحات، وفيما لا ينفع، وذلك يكون بالزهد فيه، ولا بأس من الخلوة لمن أراد تحقيق علم أو عمل، مع المحافظة على الجمعة والجماعة.

ثم ذكر سهولة عيش شيخ الإسلام، وتقشفه، وزهده، وعلمه، وعمله، وورعه، الذي كان سبباً فيما حصل له من كرامات أظهرها الله على يديه.

القسم الثالث: تطرق فيه لرأي ابن تيمية في العقل، وذكر أن ابن تيمية يستفيد من كل المفكرين والنظار فيما كان فيه من التأييد والتدعيم لمذهب أهل السنة والجماعة، وأنه يعترف لكل فئة أو لكل عالم بما فيه من خير، كما يبيّن ما هو عليه من باطل.

وذكر اهتمام ابن تيمية بالعقل من خلال مؤلفاته العديدة فيه، وبيانه لمفهوم العقل عند اليونانيين الذين يعتبرونه جوهراً قائماً بنفسه، وأما الفلاسفة فيعتقدون وجود عقل كلي كوني مستقل، وأن عنه صدر كل شيء، بل زادوا بأن جعلوه هو الإله!

أما في اللُّغة والشريعة الإسلامية: فالعقل مصدر عقل يعقل عقلاً، وفيه معنى المنع والتقييد والتريث، وقد يراد بالعقل: الغريزة التي جعلها الله في الإنسان ليعقل بها، وبين أن العقل هو ضابط التكليف، و بدونه لا يساوي الإنسان شيئاً، وإعمال العقل في الفهم عن الله ورسوله ﷺ هو أسمى غايات العقل، فاحترامه للعقل هو الذي جعله يتسامى عن التقليد، بحيث كان إذا أفتى لم يلتزم بمذهب بعينه، بل بما يقوم عليه الدليل، ولا يعتدّ بالدليل إلا إذا سلم من المعارضة، ولا دليل دون ملازمة المدلول، ومن هنا احترم الإسلام العقل؛ فجعل للمجتهد المصيب أجرين، وللمجتهد المخطئ أجراً واحداً؛ لأنه استعمل عقله، بخلاف القوانين الوضعية التي لا تعترف بالخطأ والنسيان.

وأما بالنسبة لعلاقة العقل أو الشرع بالمنطق، فقد بين أن علم المنطق مُقحم في علوم الشريعة، وليس هو مما جاء به المرسلون، وهو لا يحتاج إليه الذكي، ولا ينتفع منه البليد، وبين أنه لا تعارض بين العقل الصريح والنقل الصحيح، فما ظُن فيه من التعارض، فإنما هو في الذهن

لا في الواقع، فإن وُجد تعارض حقيقة، فإما أن يكون النقل ليس بثابت، أو أن العقل أخطأ الفهم، فالرسل عليهم الصلاة والسلام جاءوا بما يحير العقول لا بما تحيله العقول.

وتعرّض لنقد بعض مناهج الفلسفة التي لا تعتمد على علوم الرسل، ولا على المعقول عند البشر، وإنما تعتمد على ما أسمته بالخيال! وصدقوا؛ فإنه مخالف للحقيقة المقصودة بالبحث عند العقلاء، وبذلك فسدت عليهم الأدلة العقلية والنقلية.

وقد أفاد منها الباحث في بعض جوانب ترجمة ابن تيمية، وبعض أساليبه التربوية الحكيمة في التعامل مع المخالفين، كما سيأتي في الفصل الرابع إن شاء الله.

أما الدراسة الثانية فكانت بعنوان: **(أعلام التربية في تاريخ الإسلام (١) ابن تيمية)**، لعبدالرحمن النحلاوي، بدار الفكر، بدمشق، تصوير ١٩٨٨م، عن الطبعة الأولى عام ١٩٨٦م، حاول فيها المؤلف إبراز الأفكار التربوية لابن تيمية وأرائه من خلال رسائله التي رد بها على المنحرفين، أو الخصوم، أو طلابه المسترشدين السائلين، بهدف بيان منهج ابن تيمية التربوي، والأسس التي ينطلق منها، ومصادر المعرفة التي تحدث عنها.

تعرض الباحث فيها لسيرة ابن تيمية وبيئته الحضارية والاجتماعية التي نشأ فيها، وتوليه للتدريس بعد وفاة أبيه بسنة، وذكر أنه كان ينهج النهج الذي يعود بالإسلام إلى عهد الصحابة في عقائده وفروعه، وتحدث عن دوره في ميدان السياسة وقتال التتار، وعن محنته وسجنه ووفاته.

ثم تحدث فيها عن اهتمامات ابن تيمية التربوية؛ فذكر بعض أُسسه

التربوية التي يعني بها: منطلقاته الاعتقادية أو الفكرية أو السلوكية لإيجاد حياة سليمة اجتماعياً وفكرياً وروحياً وعاطفياً، بما يتوافق والفطرة الإنسانية السوية.

فأول تلك الأسس: الأساس الديني؛ الذي يتمثل في الإقرار بالشهادتين، وجعلهما أول ما يطالب به المكلف، وهو الأساس الذي تبنى عليه التربية والحياة والسلوك، ولهذا الأساس دلالات تربوية؛ مثل ترتيب الأولويات، وتقديم الغايات على الطرق الموصلة إليها وأسبابها، ومراعاة أحوال المتعلمين في تقديم الأولويات، ومراعاة الفروق الفردية بينهم.

والتربية مبنية عند ابن تيمية على أساس الاستسلام لله والانقياد له، والإخلاص له سبحانه، والتفكر في مخلوقاته، وفهم للعقيدة يحرض الوجدان والسلوك على الشعور الطيب والعمل الصالح، فالإيمان والإسلام ـ عنده ـ يدعوان إلى محبة الحق والبحث عنه والعمل به، وللرغبة والرهبة تأثير عظيم في معاونة الاعتقاد، وللاعتقاد تأثير عظيم في الفعل والترك، وبهذا يكون للشهادتين معنى شموليًّا تربويًّا من ناحية شمولها للتربية الوجدانية، والتربية العملية السلوكية المرتبطة بها، والمنبثقة عنها، والتربية الفكرية العلمية التي يصحبها السلوك الموافق لها، وكل من هذه الجوانب يتكامل ويترابط ويتناسق مع الجانب الآخر .

الأساس الثاني: هو الأساس الاجتماعي؛ الذي هو من أهم جوانب التربية المعاصرة في نظر المؤلف، إذ إن علم الاجتماع وما تفرع عنه من علم الاجتماع التربوي أصبح رافداً هامًّا من روافد التربية، وابن تيمية يرى أن مجرد التجمع والتعايش لا يحقق الغرض من الاجتماع البشري،

فلا بد من التنظيم والقيادة والتربية على التناصح، والأمر والائتمار، والتزام منهج رباني يبنى عليه التنظيم الاجتماعي في التربية والحياة كلها، ويعتبر أن أركان الاجتماع البشري هي: الآمر، والمأمور، والدستور الذي ينظم العلاقة بينهما؛ فالآمر هم: العلماء والأمراء، وشرطهما: القوة كل بحسبه، والأمانة بكل معانيها، وهم نواب الله على عباده.

وأما المأمور فهم الرعية: فيجب تربيتهم على الطاعة للآمر إلا في المعصية.

وأما الدستور: فهو القرآن والسنة، الذي ينظم علاقة الراعي بالرعية، ويفصل بينهما عند التنازع، فهو توكيل مشروط بطاعة الله ورسوله ﷺ، فنجد أن نظرته إلى علاقة الراعي بالرعية تقوم على الطبيعة الإنسانية، من جهة أنهم يحبون الاجتماع، كما تقوم على الأمر والنهي، كما وردا في القرآن والسنة، وأن يتعاون الجميع على البر والتقوى والتراحم.

الأساس الثالث: وهو الأساس المنهجي الفكري؛ حيث يرى ابن تيمية: أن طرق المعارف كثيرة متنوعة، وأن أعظمها معرفة الله، وأن طرق الوصول إليها واسعة، ولها مصادر تعتبر مقياساً لمعرفة الصحيح المقبول من الضعيف المردود ـ وإن سمِّي بأسماء جميلة حسنة، خصوصاً في الغيبيات ـ وهذه المصادر هي:

أولا: ما جاءت به الرسل: لأنه حق في نفسه؛ وهو القرآن والسنة، ويعبر عنها أحياناً بالأدلة السمعية؛ لأنها تبلغنا عن طريق الأخبار، وهي شاملة لأصول الدين وفروعه، خلافاً لمصادر الاستدلال الأخرى؛ كالعقل أو ما يسمى بالبراهين اليقينية.

ثم فصّل هذا المصدر؛ فجعل في الدرجة الأولى: تفسير القرآن والحديث من طريق النبي ﷺ، ويدخل فيه كل ما يُعرف حده بالشرع،

فلا يصح معارضته بقياس أو رأي أو معقول، لكن لا بد من تحقق صحة نسبة الحديث للنبي ﷺ، وكل من خالف الكتاب والسنة فهو داخل في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

وجعل في الدرجة الثانية صحة السند إلى قائله، وفهم النص على ظاهره؛ وهو الحقيقة الشرعية، فإن لم يرد في القرآن أو السنة الصحيحة تفسير يبين المراد، فالأصل الأخذ بظاهر النص، ولا يعدل عنه إلى التأويلات والمجاز ونحوه إلا بأربعة شروط؛ ذكرها .

فإن كان له أكثر من معنى تمسك بما فهمه السلف؛ لأنهم أحرص على الخير، وأعلم باللُّغة من غيرهم.

فان لم تجد في أقوال السلف فالقياس على النص، وهو القياس الصحيح الذي وردت به الشريعة؛ وهو الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين، والأول قياس الطرد، والثاني قياس العكس، وهو من العدل الذي بعث الله به رسوله ﷺ، وليس في الشريعة ما يخالف القياس الصحيح، فينبغي تربية النشئ على هذا المنهج السويّ.

ثانياً: الفطرة: ويعني بها[1] القوة الغريزية التي تعين على معرفة الحق ومحبته، والتي فطر الله كل مولود عليها؛ فجمهور العقلاء مطمئنون إلى الإقرار بالله تعالى، وإذا ذُكر لأحدهم اسمه تعالى وجد نفسه ذاكرة له، مقبلة عليه، كما إذا ذُكر له ما هو معروف عنده من المخلوقات،

---

(١) عبدالرحمن النحلاوي ـ أعلام التربية في تاريخ الإسلام ـ دمشق ـ دار الفكر ـ ١٩٨٨م ـ ص٦٤ ـ ٦٦ ـ نقلاً عن (درء تعارض العقل والنقل) ـ ج٨ ـ ص٣٧ - ٣٨.

ويبرهن على وجودها بمبدأ السببية؛ وهو: أن وجود المسَبَّب يلزم منه وجود المسبِّب، ومبدأ الهوية؛ ومن معانيه: أنه يلزم الجزء ما يلزم الكل المشتمل عليه.

فعلم أن معرفته في الفطرة أثبت وأقوى، إذ كان وجود العبد ملزوم وجوده، وحاجاته معلقة به سبحانه وتعالى، بل كل ما يخطر بقلب العبد ويريده فهو ملزوم له، وخواطر العباد وإراداتهم لا نهاية لها؛ وانتقال الذهن من الملزوم إلى اللازم لا ينحصر، فلا حياة بلا محي، وهكذا وجود الكائنات: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]، كما أنه مفطور على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠].

ولابد أن تكون الفطرة سليمة لتصح المعرفة الناجمة عنها، لأنها قد يعرض لها ما يفسدها ويمرضها، فترى الحق باطلاً، كما في البدن إذا فسد أو مرض[1].

ومن أسباب مرض الفطرة: اتباع الهوى، والتقليد الأعمى، فيجب الحفاظ على فطر الناس من أسباب انحرافها، وتطهيرها مما علق بها.

ثالثاً: الأدلة العقلية، ومفادها ترتيب النتائج على مقدمات يُسلم الخصم بها؛ إما لوضوحها للعيان، وإما لما سبق من البرهان والاتفاق عليها...، وإجراء الدليل بهذا الأسلوب يسمى استدلالاً، وصحة النتائج تعتمد على أمور؛ أهمها:

صحة المقدمات، والربط بينها وبين المقدمات، أو لزوم النتائج عن

(١) عبدالرحمن النحلاوي ـ المرجع السابق ـ ص٦٦-٦٧، نقلاً عن (درء تعارض العقل والنقل: ج٣/ ص٣٠٦).

المقدمات، أو وضوح العلاقة بين النتائج والمقدمات، وهذا المصدر تابع للمصدرين السابقين، فلا بد أن تكون نتائجه موافقة لهما؛ إذ إن الشرع دل عليها وهدى إليها، والفطرة إذا كانت صحيحة وزنت بالميزان العقلي، وإذا كانت فاسدة لم يزدها المنطق إلا فساداً.

رابعاً: الإدراك الحسي، وهو نوعان:

«باطن: وهو ما يحسه الإنسان بباطنه؛ كالجوع والفرح ونحو ذلك من أحوال النفس، فهكذا يحسون ما في بواطنهم من محبته سبحانه، وتعظيمه والذل له، والافتقار إليه، مما اضطروا إليه وفطروا عليه، ويُحِسون أيضاً ما يحصل في بواطنهم من المعرفة المتضمنة لمثله الأعلى في قلوبهم[١]».

والقلوب مفطورة على أن تتجلى لها من الحقائق ما هي مستعدة لتجليها فيها؛ فاذا تجلى فيها شيء أحست به إحساساً باطناً بواسطة تجليه فيها، فنفس مشاهدة القلوب لنفسه تبارك وتعالى أمر ممكن لبعض خلقه؛ كنبينا ﷺ.

وحس ظاهر: ولظهوره لم يُحتج إلى شرحه، وقسمه إلى قسمين آخرين فقال: «والإحساس نوعان: نوع بلا واسطة؛ كالإحساس بنفس الشمس والقمر والكواكب، وإحساس بواسطة؛ كالإحساس بالشمس والقمر والكواكب في مرآة أو ماء أو نحو ذلك[٢]».

خامساً: النقل والخبر والتواتر؛ ويعرفه أهل الحديث بأنه: نقل

(١) عبدالرحمن النحلاوي ـ المرجع السابق ـ ص٧٥ ـ ٧٦ ـ نقلاً عن (درء تعارض العقل والنقل: ٨/ ٤٠، ٤١).

(٢) عبدالرحمن النحلاوي ـ المرجع السابق ـ ص٧٥ ـ ٧٦ نقلاً عن (درء تعارض العقل والنقل: ٨/ ٤١، ٤٠).

الخبر أو الحقيقة العلمية جمع عن جمع، لا يعقل تواطؤهم على الكذب، وابن تيمية يتبع منهج أهل الحديث في قبول الخبر أو رده، ويعتبر أنهم إذا أخبروا عن علم ضروري حصل العلم بمُخْبَر أخبارهم، وإن لم يكن المخبَر به مشاهداً؛ كما يشهد المسلمون كلهم أن عمر بن عبدالعزيز كان عادلاً، وأن الحجاج كان ظالماً، والعدل والظلم ليس أمراً مشاهداً بالظاهر.

سادساً: الإلهام؛ وهو إشراق المعرفة وانبثاقها دفعة واحدة بدون مقدمات معينة، تُذكِّر لمحفوظ أو خبره واضحة، والعلاقة بينه وبين الفطرة هي أن كلاً منهما علم ضروري لا يمكن دفعه، لكنه مع كون الإلهام لا يمنع حصول العلم بثبوت الخالق وصدق رسوله ﷺ، إلا أن الاستدلال به على الأحكام محل نظر، فلا بد للإلهام من موافقة الشرع، وموافقة غيره كذلك من مصادر المعرفة، ولابد أن يكون المُلهَم مع ذلك مؤمناً عابداً، متبعاً للقرآن والسنة، كما كان عمر رضي الله عنه أفضل الملهَمين، ومع هذا كان يعتصم بما جاء به الرسول ﷺ ويرجع إليه.

ويحاول المؤلف أن يشبه الإلهام بما يسمى في التربية الحديثة بالافتراض، بجامع أن الفرضية لا تصح إلا إذا أيدها الحس والتجريب والعقل والعلم، والافتراض يخطر على الذهن إشراقاً وحدساً كالإلهام[1].

ثم تطرق المؤلف إلى بعض المبادئ التربوية عند ابن تيمية؛ وهي:

(١) عبدالرحمن النحلاوي ـ المرجع السابق ذكره ـ ص٧٨ ـ ٧٩ نقلاً عن(درء تعارض العقل والنقل: ج٨/ ٤٣).

ـ المبدأ الأول: أن كل مولود يولد على الفطرة، وهذا يستلزم براءته وسلامته واستعداده للإسلام ونحو ذلك، وموجبات الفطرة ومقتضاها تحصل شيئاً بعد شيء، بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض[١].

وبناء عليه، فإنه ينبغي تنشئة الطفل بما يوافق الإسلام، وتجنيبه ما يخالفه، فإن فطرته قابلة للانحراف والمرض ـ ولو كان الطفل من أولاد المشركين ـ خلافاً لرأي جان جاك روسو الذي يرى تركه يتربى في الطبيعة حتى يبلغ الثانية عشرة!

ـ المبدأ الثاني: وهو مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين والمكلفين؛ ويعني به التمايز بين المكلفين والمتعلمين، وتفاوتهم فيما بينهم بالتحصيل، وبالقدرات والمهارات، وبالاستعداد العقلي والذكاء، وبصفاء الفطرة وسلامتها، وغير ذلك مما يتفاوت فيه الناس في مجال التعلم والتكليف الشرعي[٢].

وبهذا يكون ابن تيمية قد سبق كثيراً من التربويين؛ أمثال الفرنسي (بينيه)، ووضع لهذا المبدأ أسساً عندما رد على الذين زعموا أن أول واجب على المكلف النظر والاستدلال، دون أن يراعوا ظروف المكلفين وأحوالهم! ووضع له الاعتبارات التالية: ـ

أ ـ اختلاف ترتيب الواجبات باختلاف أحوال الناس، «فلا يكون

---

(١) عبدالرحمن النحلاوي ـ المرجع السابق ـ ص٩٢ ـ نقلاً عن (درء تعارض العقل والنقل: ج٨/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤).

(٢) عبدالرحمن النحلاوي ـ المرجع السابق ـ ص٩٥ ـ نقلاً عن (درء تعارض العقل والنقل: ج٨/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤).

أول ما يؤمر به هذا من أمور الصلاة هو أول ما يؤمر به هذا[(١)]».

ب ـ اختلاف الناس بالتحصيل العلمي والمهارات العملية؛ «فكما أنهم ـ أي الناس ـ متنوعون في ترتيب الوجوب، فهم متنوعون في ترتيب الحصول علماً وعملاً[(٢)]».

ج ـ مراعاة هذه الفروق عند المعاملة؛ «فلا يمكن أن يجعل ما يخص بعضهم شاملاً لجميعهم[(٣)]».

د ـ اختلاف طرق العلم، فقد عاب على المتكلمين حصرهم لطرق العلم وأسبابه

فيما رأوه، فقال: «وحصر هؤلاء العلم بالله وبصدق رسله في ترتيب معين، وحصر هؤلاء للوصول إلى الله في طريق معين، كل هذا مع كونه في نفسه مشتملاً على حق وباطل، فالحق منه لا يوجب الحصر...، وطرق العلم والأحوال وأسباب ذلك وترتيبه، أوسع من أن تحصر في بعض هذه الطرق[(٤)]».

ـ **المبدأ الثالث:** تصديق العلم بالعمل، وبنى عليه الأفكار والمسلمات التالية:

---

(١) عبدالرحمن النحلاوي ـ المرجع السابق ـ ص٩٧ ـ نقلاً عن (درء تعارض العقل والنقل: ج٨/ ١٦ ـ ١٧).

(٢) عبدالرحمن النحلاوي ـ المرجع السابق ـ ص٩٨ ـ نقلاً عن (درء تعارض العقل والنقل: ج٨/ ١٦ ـ ١٧).

(٣) عبدالرحمن النحلاوي ـ المرجع السابق ـ ص٩٩ ـ نقلاً عن (درء تعارض العقل والنقل: ج٨/ ص ٤٣).

(٤) عبدالرحمن النحلاوي ـ المرجع السابق ـ ص١٠٠. نقلاً عن (درء تعارض العقل والنقل) ج٨/ ١٦ ـ ١٧.

١ ـ أن الإيمان قول وعمل، فلا يتم إلا بهما.

٢ ـ أن الإرادة أساس العمل، ونقل عن ابن تيمية قوله: «إن أصل طريقتهم ـ أي أهل السنة ـ الإرادة التي هي أساس العمل(١)».

٣ ـ الارتباط بين العلم والعمل، فيعتبر أن التمكن من العلم والقدرة على فعله شرط في التكليف، ولا يعذر بتركه لطلب العلم لمجرد عجزه عن العمل به.

٤ ـ وجوب طلب العلم والحق حتى يبلغ درجة اليقين بحسب التمكن من الطلب والقدرة عليه، والإنسان يعرف من نفسه ما إذا وصل إلى العلم اليقين، كما يدرك أنه إذا رأى شيئاً فقد رآه يقيناً(٢)، والتقصير في طلب العلم اليقين ـ غالباً ـ سببه اتباع الظن والهوى، ومن وصل إليه تبين له جهله السابق، وذلك يعتبر منه توبة؛ لأنه رجع إلى الحق(٣).

يتبين من العرض السابق أن المؤلف ركز دراسته حول الأسس التربوية التي ينطلق منها ابن تيمية، وهي ما تشكل ـ في الواقع ـ منهجه العلمي والعملي، وما يدين الله به، وقد رتبه ترتيباً أولويًّا؛ بحيث جعل أولها هو أقواها دلالة، كما أنه قدم فهم السلف ـ وهم الذين عاصروا التنزيل، وتربوا على يد النبي ﷺ ـ على القياس، وذلك لأن القياس يعني استخدام العقل لقياس الشيء بمثيله، وإلحاق النظير بنظيره، وقد كان

---

(١) عبدالرحمن النحلاوي ـ المرجع السابق ـ ص١٠٣ ـ نقلاً عن ابن تيمية ـ الاستقامة ـ تحقيق محمد رشاد سالم ـ ط/ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض - ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م ـ ص١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) لكن ليس هذا على إطلاقه؛ إذ قد يظن الجاهل أو الغرور أنه يعلم شيئا ما ـ وقد يؤكد ذلك بالقسم ـ فإذا جاء التحقيق تبين أنه بخلاف ذلك.

(٣) عبدالرحمن النحلاوي ـ المرجع السابق ـ ص١٠٣ ـ نقلاً عن ابن تيمية.

للصحابة الحظ الأوفر من ذلك مع ما لهم من مزية العلم بكلام النبي ﷺ ومقاصده وأحواله، فكل ما كان في عصرهم فأفتوا فيه بقول، أو عملوا فيه بعمل، فالحق لن يعدوهم في ذلك، وأما ما جدّ بعدهم فإنه يمكن التوصل إلى معرفته باستخدام نفس طرق المعرفة التي استعملوها.

وقد ذكر جلّ طرق المعرفة - إن لم تكن كلها - وذكر لها من الأدلة والشواهد ما يصدقها، وذكر ما ينافيها، مع توضيحها بإيجاز، وذكر ما يعرض لها من أسباب قبول أو رد.

وبالرغم من صغر حجم الدراسة إلا أن مضمونها قيّم، فهي - في نظر الباحث - بحق من أنفع ما كتب في موضوعها؛ وقد احتوت على مباحث تخدم الدراسة الحالية في بعض مباحثها بصورة مباشرة؛ كالأسس التربوية التي كان ينطلق منها ابن تيمية، والتي أفادت الباحث عند تناوله للأساليب التربوية التي نهجها، والتي سوف يأتي تفصيلها في الفصل الرابع إن شاء الله.

الفصل الرابع

إجراءات الدراسة



الفصـل الرابع

إجراءات الدراسـة

٣ ـ ١ ـ مجتمع الدراسة:

إن طبيعة البشر التأثر بالأمثلة الطيبة، والاقتداء بالقدوة الحسنة، والتشجع بمعرفة أحوالهم عن طريق المشاهدة أو السماع أو القراءة عنهم، كما قال كعب بن مالك لما تخلف عن غزوة تبوك: «فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة؛ إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء...، قلت: يا رسول الله! والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك. فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتّبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخَلَّفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك...، قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم؛ لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، قال: قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن ربيعة العمْريّ، وهلال بن أمية الواقفي، قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي ...[(١)]».

---

(١) البخاري: ٤٤١٨، ومسلم: ٢٧٦٩، بتصرف، فصمم على الصدق والثبات عليه حين وجد له أسوة صالحة.

ولهذا أكثر الله من ذكر قصص الأنبياء والصالحين في كتابه، وهكذا رسوله ﷺ في سنته، عبرةً وتسليةً وتثبيتاً للمؤمنين؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]، وقال بعد أن ذكر قصة إبراهيم مع أبيه وقومه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦]، «فإن القصص إنما هي أمثال مضروبة للدلالة على الإيمان(١)».

قال ابن عبدالهادي(٢): وإنما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم لتكون عبرة لنا؛ فنشبّه حالنا بحالهم، ونقيس أواخر الأمم بأوائلها، فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين، ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين شبه بما كان للكافر والمنافق من المتقدمين...، وذكر في غير موضع أن سنته في ذلك سنة مطردة وعادته مستمرة...، فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم.

وقال سلمان خلف الله: فمهما أوجدت العلوم من مناهج، فإن البشرية لا تستغني عن وجود قدوة إنسانية تتمثل فيها الصفات الوجدانية، والسلوكية، والنفسية، والانفعالية، والخلقية، وهذا الأسلوب من أهم الأساليب التربوية، ومن أنجح الوسائل وأكثرها أثراً في إعداد الناشئة خلقياً، ونفسياً، واجتماعياً، وعقلياً، وصحياً، وعاطفياً.

فالإنسان مفطور على التأسّي والتشبه بالأشخاص الذين يحبهم

---

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٢ ـ ص٢٧٩.
(٢) ابن عبدالهادي ـ العقود الدرية ـ المصدر السابق ـ ص ١٣٩ ـ ١٤٢.

ويحترمهم ويقدرهم. . .، وهو مدفوع بغرائزه وسلوكياته نحو المحاكاة وتقليد الغير دون قصد، وهذا التقليد لا يقتصر على الحسنات وإنما يتعدَّى إلى غيرها[١].

وكلما كان المثال المقتدى به أقرب شبهاً بالمتأسي - زماناً ومكاناً - كان داعي التأسّي به أقوى، ولهذا لم يبعث الله رسولاً إلا من قومه وبلغتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾ [ابراهيم: ٤]، ومن هنا اختار الباحث القرن الثامن الهجري؛ لأنه أشبه القرون الماضية بعصرنا الحاضر، وهو امتداد للقرن السابع الهجري؛ حيث فشا الجهل، وكثر الفساد، وحصل الاضطراب السياسي، والعسكري، والاقتصادي، والاجتماعي، والفكري، وكثر المشعوذون الدجالون، وأدعياء علم الغيب من مدعي التصوف وغيرهم، وتسلط الأعداء؛ فبالإضافة إلى الحملات الصليبية المتوالية على العالم الإسلامي، كانت هناك بلية أخرى أشد؛ وهي غزو التتار الذين يصفهم ابن الأثير بقوله: «ديانتهم أنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئاً؛ فإنهم يأكلون جميع الدواب؛ حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحاً، بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال. . .[٢]».

وقد وصف لنا الذهبي بعض ما وقع من الفساد والاضطراب في تلك الحقبة فقال: وفي سنة إحدى وأربعين وست مئة عاثت الخوارزمية بقرى

---

(١) سلمان خلف الله - منهج النبي ﷺ في التعامل مع الناشئة - المرجع السابق - ص٧٧، بتصرف يسير.

(٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٩ - ص٣٣٠.

الشام، وصالحت التتار صاحب الروم على ألف دينار وفرس ومملوك وجارية في كل نهار بعد أن استباحوا قيصرية، وأهلك قاضي القضاة بدمشق الرفيع الجيلي، ودخلت الفرنج القدس، ورشوا الخمر على الصخرة، وذبحوا عندها خنزيراً، وكسروا منها شقفة.

وفي سنة اثنتين وأربعين كان حصار الخوارزمية على دمشق في خدمة صاحب مصر، واشتد القحط بدمشق، ثم التقى الشاميون ومعهم عسكر من الفرنج، والمصريون ومعهم الخوارزمية، بين عسقلان وغزة، فانهزم الجمعان، ولكن حصدت الخوارزمية الفرنج في ساعة، ثم أسروا منهم ثماني مئة، ويقال زادت القتلى على ثلاثين ألفاً، واندك صاحب حمص، ونهبت خزائنه، وبكى وقال: قد علمت بأنا لا نفلح لما سرنا تحت الصلبان، واشتد الحصار على دمشق. . . .

وفي سنة أربع وأربعين عاثت الخوارزمية، وتخربت القرى، فالتقاهم عسكر حلب وحمص، فكسروا شرَّ كسرة على بحيرة حمص، وقتل مقدمهم بركة خان، وقدم رسولان من التتار؛ أحدهما: من بركة، والآخر من بايجو، فاجتمعوا بابن العلقمي وتعمّت الأخبار، وفيها أخذت الفرنج شاطبة.

وفي سنة سبع هاجمت الفرنج دمياط في ربيع الأول فهرب الناس من الباب الآخر، وتملكها الفرنج صفواً عفواً نعوذ بالله من الخذلان. . . .

واستهلت سنة ثمان والفرنج على المنصورة بإزاء المسلمين، ولكنهم في ضعف وجوع، وماتت خيلهم، فعزم الفرنسيس[1] على الركوب ليلاً

(١) الفرنسيس: ملك فرنسا؛ لويس التاسع، والخُوَارِزْمية: أهل خوارزم من بلاد خراسان، قال أبوالفتح الجُرجاني: مَعْنَاها: هين حربها، لأنها في سهلة لا جبل بها. وخوارزم ليس اسماً للمدينة إنما هو اسم للناحية بجملتها.

إلى دمياط، فعلم المسلمون، وكانت الفرنج قد عملوا جسراً عظيماً على النيل، فذهلوا عن قطعه، فدخل منه المسلمون فكبسوهم، فالتجأت الفرنج إلى منية أبي عبد الله، فأحاط بهم الجيش، وظفر أصطول المسلمين بأصطولهم، وغنموا مراكبهم، وبقي الفرنسيس في خمس مئة فارس وخُذِل، فطلب الطواشي رشيد، وسيف الدين القيمري فأتوه، فطلب أماناً فأمناه على أن لا يمروا به بين الناس، وهرب جمهور الفرنج، وتبعهم العسكر، وبقوا جملة وجملة حتى أبيدت خضراؤهم، حتى قيل نجا منهم فارسان، ثم غرقا في البحر، وغنم المسلمون ما لا يعبر عنه...، فأحصي الأسرى فكانوا نيفاً وعشرين ألفاً، وغرق وقتل سبعة آلاف، وكان يوماً ما سمع المسلمون بمثله، وما قتل من المسلمين نحو المئة، واشترى الفرنسيس نفسه برد دِمياط وبخمس مئة ألف دينار....

وفي سنة إحدى وخمسين أخذ المسلمون صيدا، وهرب أهلها إلى قلعتها.

وفي سنة أربع وخمسين كان ظهور الآية الكبرى؛ وهي النار بظاهر المدينة النبوية، ودامت أياماً تأكل الحجارة، واستغاث أهل المدينة إلى الله وتابوا وبكوا، ورأى أهل مكة ضوءها من مكة، وأضاءت لها أعناق الإبل ببُصرى؛ كما وعد بها رسول الله ﷺ فيما صح عنه(١)، وكسف فيها الشمس والقمر، وكان فيها الغرق العظيم ببغداد، وهلك خلق من أهلها، وتهدمت البيوت، وطفح الماء على السور.

وفيها سار الطاغية هولاكو بن تولي بن جنكزخان في مئة ألف،

---

(١) البخاري: ٧١١٨، ومسلم: ٢٩٠٢.

وافتتح حصن الألموت، وأباد الإسماعيلية، وبعث جيشاً عليهم باجونَوِين، فأخذوا مدائن الروم، وذل لهم صاحبها، وقتل خلق كثير.

وفيها كان حريق مسجد النبي ﷺ جميعه في أول رمضان من مسرجة القيم.

وفي سنة خمس وخمسين مات صاحب مصر الملك المعز أيبك التركماني، قتلته زوجته؛ شجر الدُّر في الغيرة، فوُسِّطت، وجرت فتنة مهولة ببغداد بين الناس وبين الرافضة، وقتل عدة من الفريقين، وعظم البلاء، ونهب الكرخ، فحنق ابن العلقمي الوزير الرافضي، وكاتب هولاكو وطمَّعه في العراق، فجاءت رسل هولاكو إلى بغداد، وفي الباطن معهم فرمانات لغير واحد، والخليفة لا يدري ما يتم، وأيامه قد ولّت، وصاحب دمشق شابٌّ غرٌّ جبان، فبعث ولده العربي مع الحافظي بتقادم وتحف إلى هولاكو فخضع له، ومصر في اضطراب بعد قتل المعز، وصاحب الروم قد هرب إلى بلاد الأشكري، فتمرد هولاكو وتجبر، واستولى على الممالك، وعاث جنده الكفرة يقتلون ويأسرون ويحرقون...، ورفس المستعصم حتى تلف، وبقي السيف في بغداد[1] بضعة وثلاثين يوماً، فأقل ما قيل قتل بها ثمان مئة ألف نفس، وأكثر ما قيل بلغوا ألف ألف وثمان مئة ألف، وجرت السيول من الدماء، فإنا لله وإنا إليه راجعون...، ثم بعد ذهاب البلد ومن فيه إلا اليسير نودي بالأمان...، ورجع هولاكو بالسبي والأموال إلى أذربيجان...[2].

ووصفه الإمام ابن تيمية بأنه زمن فترة، شبيه بزمن الجاهلية من بعض

---

(١) وقد كانت عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك.

(٢) ملك فرنسا؛ لويس التاسع كما في الذهبي ـ سير أعلام النبلاء ـ المصدر السابق ـ ج٢٣ ـ ص١٧٥ ـ ١٨٢.

الوجوه؛ فقال في وصيته لأبي القاسم المغربي: واعلم أن العناية بهذا[١] من أشد ما بالإنسان الحاجة إليه، فإن الإنسان من حين يبلغ خصوصاً فى هذه الأزمنة ونحوها من أزمنة الفترات التي تشبه الجاهلية من بعض الوجوه، فإن الإنسان الذي ينشأ بين أهل علم ودين قد يتلطخ من أمور الجاهلية بعدة أشياء فكيف بغير هذا ؟!

كل ذلك بسبب تفرق كلمة المسلمين، وبعدهم عن دينهم وعلمائهم، وبالرغم من ذلك فقد كانت هناك نهضة علمية وعملية في العالم الإسلامي، قادها علماء ربانيون مصلحون، برعوا في فنون شتى، بقيت آثارهم الإصلاحية إلى اليوم، كان من أعظمهم تأثيراً إصلاحيّاً في الأمة الإمام أحمد بن تيميّة.

٣ ـ ٢ ـ عينة الدراسة:

لقد وقع اختيار الباحث ـ من بين علماء هذه الفترة[٢] ـ على الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر ابن محمد بن تيْميّة الحراني، ثم الدمشقي، الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر، أحد الأعلام، ولد يوم الإثنين، عاشر ربيع الأول بحرّان[٣]،

---

(١) يعني التقوى، وإتباع السيئات بالحسنات، كما في حديث معاذ الآتي، مجموع الفتاوى ـ ج١٠ ـ ص٦٥٦.

(٢) لقد عاش ابن تيميّة فيما بين أوائل النصف الثاني من القرن السابع؛ (٦٦١هـ)، وبداية الربع الثاني من القرن الثامن الهجري؛ (٧٢٨هـ)، فيصدق عليه أنه من علماء القرن الثامن الهجري؛ لأنه عاش ما بعد الأربعين فيه، وهو سن كمال القوى العلمية والعقلية والجسدية والدعوية التي حاز الإمام منها النصيب الأوفر.

(٣) من قرى الشام، بينها وبين الرّها يوم، وبين الرِّقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم، كما في (معجم البلدان: ج٢/ ص٢٧١).

سنة إحدى وستين وستمائة، وتوفي بقلعة دمشق، بالقاعة التي كان محبوساً بها، في ليلة الإثنين العشرين من ذي القعدة، سنة ثمان وعشرين وسبع مائة، وذلك لأنه فاق أهل زمانه علما وأثرا.

وقد اختار الباحث كتابه (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية)[١]، الذي جمعه ورتبه عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، بمساعدة ابنه محمد، في سبعة وثلاثين مجلداً بالفهارس العامة، والفهارس المفصلة على مواضيع الكتاب[٢].

قال عبدالرحمن النجدي: قد بلغ ما قمنا بحصره من أعمال ابن تيمية في مختلف الفنون ثلاثمائة وأربعة عشر مخطوطاً، في اثنين وخمسين

(١) وهو غير كتابه (الفتاوى الكبرى)، الذي طبع في خمس مجلدات عن دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

(٢) وله عدة طبعات؛ وقف الباحث على ثلاث نسخ منها طبعت بأمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد، وهي:
١ ـ تصوير عن الطبعة الأولى ببيروت، بمطابع العربية، سنة (١٩٧٤م).
٢ ـ طبع بالطالبية، بمكتبة ابن تيمية، بمطابع التويبجي التجارية.
٣ ـ طبع بالمدينة المنورة، بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، تحت إشراف وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، عام ١٩٩٥م.
كما طبع ـ أيضاً ـ بمكتبة الثقافة الدينية بمصر، وكل هذه الطبعات في نفس الحجم ـ تقريباً ـ وقد امتازت بوضوح الخط وكبره، وحسن الترتيب والتقسيم وتناسق الفقرات.
وقد طبع ـ أخيراً ـ في طبعة فاخرة قليلة الأخطاء، بعنوان: (مجموعة الفتاوى)، اعتنى بها عامر الجزار، وأنور الباز، بالرياض، بمكتبة العبيكان سنة (١٩٩٨م)، في عشرين مجلداً مع الفهارس، ومنها نقل الباحث، لكنه اختار العزو إلى النسخة القديمة، لأنها هي الأكثر تداولاً ـ في ظنه ـ.

موضعاً...، وهذه المخطوطات التي قمنا بحصرها ـ ولا ندعي أن هذا كل ما للإمام من أعمال، ربما تظهر لنا الأيام غيرها مما لم يكن في خلد الإنسان ـ قد احتوت على كل ما ألفه الإمام؛ أملاه أو خاطب به أناساً في بلدان شتى....

٣ ـ ٣ ـ منهج الدراسة:

يستخدم الباحث في دراسته المنهج الوصفي؛ ويقصد به: تقرير خصائص مشكلة أو ظاهرة معينة، ودراسة الظروف المحيطة بها، ومن ثم تفسيرها[١].

٣ ـ ٤ ـ منهجية الدراسة:

إن العملية التربوية ذات شقين: نظري علمي، وتطبيقي عملي، ولما كان الجانب العملي يبنى على الجانب العلمي كان اهتمام الباحث به أكثر، فصلاح العمل واستقامته مرتبط بصلاح العلم واستقامته، كما كان النبي ﷺ يقول بعد الفجر: (**اللهمّ إني أسألك علما نافعاً، وعملاً متقبلاً...**)، وقد قيل: وهل يستقيم الظل والعود أعوج؟

ولما كان لا سعادة للأمة ولا عزَّ لها ولا تمكين إلا بالرجوع إلى ما كان عليه سلفها الأول، كما قال الإمام مالك بن أنس[٢]: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها»، ولما كان القرن الثامن الهجري أقرب عصور الإسلام شبهاً بالعصر الحاضر ـ مع وجود بعض الفروق بينهما كما هو معلوم ـ وذلك لغلبة الجهل، وكثرة الفساد، ومن ثم تسلط

---

(١) أحمد الشيخ حمد ـ طرق البحث التربوي ـ الخرطوم ـ جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا ـ ص٥١.

(٢) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج١ ـ ص٣٥٤.

الأعداء، مع وجود نهضة علمية وعملية مقتبسة من هدى خير البرية، قادها علماء ربانيون كان من أبرزهم ـ إن لم يكن أبرزهم ـ ابن تيميّة.

ونظراً إلى ما تتناقله وسائل الإعلام المختلفة، وما تبثه الفضائيات، وقبل ذلك ما كتب عنه وعن مواقفه من التيارات والمذاهب الفكرية وغيرها، وعلومه المسطرة في كتبه وكتب تلامذته ـ بل وخصومه ـ كان لابد من إجراء دراسة حول إسهاماته التربوية، وقد قام الباحث بالخطوات الآتية لكي تخرج هذه الدراسة في حلتها الحالية:

١ ـ لما كانت الدراسات حول ابن تيمية كثيرة جدّاً، سعى الباحث لمعرفة الجوانب التربوية التي لم تأخذ نصيبها من الدراسة، أو لم تدرس أصلاً حسب استقصاءات البحوث والدراسات السابقة، فاختار أن تكون دراسته حول أساليب الإمام التربوية، التي تمكن بها من إصلاح حالة التخلف والفساد السائدة في عصره ومجتمعه، في المجال التربوي وغيره ـ التي ما زال أثرها الإصلاحي باقياً إلى اليوم ـ بغية إفادة المصلحين من تربويين وغيرهم من تلك الأساليب في التعامل مع واقع الأمة الحالي، إضافة إلى ما يعود على الأمة من معرفة لقدره، وبيان لجهوده في خدمة الإسلام والمسلمين، وما يتبع ذلك من قيم وأخلاق ومبادئ تظهر من سيرته وتراثه العلمي.

٢ ـ قام الباحث بعرض عنوان بحثه على بعض المختصين لإبداء رأيهم حوله، وتحديد جوانبه ومتغيراته المختلفة، وقد حظي بموافقة الجميع، وتشجيعهم على المضي قدماً فيه، بما فيهم مشرف الدراسة[1].

(١) بعد أن أضاف إلى العنوان كلمة (التربوية)، بجانب (أساليب)، وكان من بين المشجعين الشيخ: مشهور بن حسن آل سلمان، والدكتور: محمد خليل، والدكتور: شفيق علقم، والأستاذ: عماد عامر، وبعض دكاترة =

٣ ـ أخذ الباحث في البحث والقراءة في الدراسات السابقة حول مجال الدراسة وجوانبها الأساسية، وقد قام بعرض دراستين منها.

٤ ـ تتبع أساليبه التربوية في كتابه (مجموعة الفتاوى) مع ضيق الوقت الممنوح للدراسة؛ فقد كان ـ رحمه الله ـ له أساليب تربوية كثيرة، تتراءى من خلال مواقفه وردوده ودعوته، ودوره لنصرة الحق وأهله، وتعامله مع الأحداث المختلفة، والصراعات العديدة التي قاساها طيلة حياته مع أصناف مختلفة من البشر، وهي مفرقة بين دفات كتبه وردوده وفتاويه، ولا يمكن الوصول إليها إلا بالغوص في أعماقها والتنقيب عنها في مظانِّها، وفي ظن الباحث أنه بدراسته لمجموع الفتاوى يكون قد استوعب قدراً كبيراً من أساليبه التربوية؛ إذ إنها تضم جملة كبيرة من أنفس ما كتب، ما بين تأليف ابتدائي[1] قد يحتاج هو إليه للتذكر، أو يجب على الأمة معرفته أو الحذر منه، أو بيان لما خفي من العلوم، أو ردود مفحمة على خصومه ومخالفيه، أو جواب على سؤال ورد إليه، إلى غير ذلك من مراسلاته وكتاباته وتعليقاته.

= الجامعة المتواجدين لامتحانات السنة الأولى من الماجستير في عمّان، وقد اقترح بعضهم: بأن يكون البحث عملياً بدلاً من كونه نظرياً، واقترح بعضهم: تغيير عنوانه خشية صعوبته وضيق الوقت الممنوح للدراسة، إلا أن الباحث اختار المضي قدماً فيه؛ لكونه لم يجد معارضة حقيقية في ذلك، بل وجد تشجيعاً ـ خصوصاً أن هذه الدراسة رائدة كما تقدم ـ وفيها نفع للباحث وغيره من أبناء الأمة؛ لما تتضمنه من مباحث قيمة، وأساليب تربوية قد تم تطبيقها عملياً، فأثبتت كفاءتها وآتت ثمارها المباركة في حياة الإمام وبعد وفاته، والتي تبقى ذخراً له بمشيئة الله.

(١) قال في الفتاوى (٣/ ١٦١): أما الكتب فما كتبت إلى أحد كتاباً ابتداء أدعوه به إلى شيء من ذلك، ولكني كتبت أجوبة أجبت بها من يسألني من أهل الديار المصرية وغيرهم، فأجيبه بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة.

٥ ـ قسم الباحث دراسته إلى خمسة فصول؛ فبدأ بالفصل الأول الذي هو الإطار العام للدراسة؛ ذكر فيه بعد المقدمة مشكلة الدراسة التي يودُّ رفع الغموض عنها وأسئلتها، وأهمية الدراسة، وبعض التعريفات الإجرائية، ومحددات الدراسة.

وفي الفصل الثاني تعرض للإطار النظري للدراسة؛ وهو نشأة ابن تيمية، إذ إنه قد قسم حياته إلى قسمين:

أولاً: ما يتعلق بنشأته، ونسبه، ومولده، وعصره، ومحنته وصبره، وأخلاقه، ثم وفاته وجنازته، وأخيراً مناقبه وثناء العلماء عليه، وهذا جعله في هذا الفصل للتعريف به، وإظهار حقيقته، ونفي بعض ما رمي به، خصوصاً ما شهد له به خصومه.

ثانياً: ما يتعلق بعلمه وأثره الإصلاحي؛ من جهة طلبه للعلم، ووظائفه الشرعية، ونصحه للأمة ودفاعه عنها، وآثاره ومؤلفاته العلمية، وهذا جعله في الفصل الرابع ليكون تعريفاً به كإمام تربوي، وتوطئة للاهتمام بأساليبه التربوية.

ثم عرض لدراستين عربيتين سابقتين تخدم جوانب دراسته، حاول من خلالها الإسهام في الإجابة عن بعض التساؤلات الواردة في الدراسة، وإيضاح بعض الجوانب من سيرته العلمية والعملية والدعوية، وبعض أساليبه التربوية الهادفة.

وأما في الفصل الثالث فقد عرض فيه لإجراءات الدراسة؛ مبيناً المجتمع الذي وقع عليه اختياره، وسبب اختياره له؛ وقد اختار من بين علمائه المصلحين الإمام ابن تيميّة، وكتابه (مجموع الفتاوى) كعينة لدراسته.

وقد استخدم المنهج الوصفي لأنه الأنسب لدراسته هذه، وأخيراً ذكر منهجيته في دراسته والخطوات التي اتبعها.

وفي الفصل الرابع حاول الباحث الإجابة عن أسئلة الدراسة الثلاثة؛ مبتدئاً بالتعريف بابن تيميّة كإمام تربوي ليكون مدعاة لقبول أساليبه التربوية، وهو إجابة عن السؤال الأول، ثم ببيان مفهوم التربية عند ابن تيميّة كإجابة عن السؤال الثاني؛ وليكون ذلك عوناً على تصور الأساليب التي لها علاقة بالتربية من غيرها، وأخيراً عرض لأهم الأساليب التربوية المتعلقة بالجوانب العقلية، والجوانب التربوية والتعليمية، والجوانب الاجتماعية كما هي في (مجموع الفتاوى)، وذلك لأهميتها وحاجة الناس إليها على اختلاف مستوياتهم ومذاهبهم الفكرية، وتجاوباً مع الوقت المتاح للدراسة.

وفي الفصل الخامس والأخير ذكر ملخصاً عامّاً للدراسة، وأتبعه بأهم ثلاث نتائج توصّل إليها في دراسته، ثم ربط كل نتيجة منها بتوصية، وأخيراً اختتم دراسته بعدد من المقترحات طلبا للفائدة العامة، وأتبع ذلك بقائمة المصادر والمراجع التي استفاد منها في دراسته، وملحقاً بصورة الخطاب الموجه إليه من مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، بالمملكة العربية السعودية.

٦ ـ حرص الباحث عند إيراده للأساليب التربوية على ذكر علاقتها بمعاني التربية في اللغة العربية من جهة، وعلى صلتها بالتعاليم الإسلامية السمحة من جهة أخرى.

٧ ـ حرص الباحث على استخدام المصادر والمراجع الأصلية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً إلّا في أحوال نادرة جدّاً، كما قام بعزو الأقوال

إلى قائليها في معظم الأحيان، وقام بتخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من مصادرها الأصلية، ذاكراً أقوال أهل العلم في درجاتها من الصحة والضعف بشكل مختصر.

٨ ـ قام الباحث بترجمة كثير من الأعلام ـ سواء من الأشخاص أو من البلدان ـ الذين وردت أسماؤهم في متن الدراسة، واستغنى بشهرة بعضهم عن ترجمته، وترك ترجمة بعضهم خشية إثقال الدراسة بكثرة الحواشي.

الفصل الخامس

نتائج الدراسة

الفصـل الخامـس

نتائج الدراسة

أولا: النتائج المتعلقة بالسؤال الأول وهو:

٤ ـ ١ ـ من هو ابن تيميّة كإمام تربوي ؟

إن الدوائر التربوية المعاصرة في العالم العربي تبينت بعد تجربة طويلة في الميدان التربوي، ضرورة الاعتماد على الأصول الإسلامية في بناء أنظمتها وأنشطتها التربوية، ومرة أخرى تجد هذه الدوائر نفسها أمام ضرورة الاستفادة من آراء ابن تيمية...، فما زالت علومه وآراؤه تبعث الحركة والنشاط في الحياة العقلية والثقافية كلما ضربها الجمود، ولهذا ظلت تعاليمه تؤثر في الذين قادوا حركات التجديد والإصلاح منذ أيامه حتى يومنا هذا(١).

وشاهد ذلك تلامذته الذين هم من أبرز العلماء الربانيين المصلحين، وقد تعرض الباحث هنا للتعريف به كإمام من أئمة التربية، يجمع بين الأصالة والمعاصرة، أمكنه ببصيرة واعية ومصابرة القيام بدور إصلاحي رائد، ممتثلاً قوله تعالى: ﴿كُونُوا رَبَّنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

---

(١) ماجد الكيلاني ـ الفكر التربوي عند ابن تيمية ـ المدينة المنورة ـ دار الحديث ـ ص١٦،١١، بتصرف.

ولم يكن أثره وتأثيره المشار إليه أعلاه وليد الصدفة والحظ المجرد، بل كان بجهود جبارة، وجلد ومثابرة، ومحاولات عديدة مريرة، لا يتحملها ويصبر عليها إلا من رزقه الله حظّاً من التوفيق والعناية، واختاره للقيام بدور التجديد والإصلاح في الأمة، وهكذا سنة الله في عباده؛ من جدَّ وجد، ومن زرع حصد، ومن سار على الطريق وصل، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، ولهذا تحقق فيه ما قاله هو عن الإمام أحمد: «فالصبر واليقين بهما تنال الإمامة في الدين، فلما قام بذلك قرنت باسمه من الإمامة في السنة ما شهر به، وصار متبوعاً لمن بعده، كما كان تابعاً لمن قبله[١]».

وأما جهوده التي بذلها وقام بها حتى أصبح إماماً يقتدى به، ونال من العز والسؤدد ما نال، فهي كثيرة وفي جوانب متعددة؛ منها:

٤ ـ ١ ـ ١: طلبه للعلم:

لقد كان اتجاه الإمام ابن تيمية نحو العلوم مبكراً منذ نعومة أظفاره، لأنه نشأ في بيت علم وفضل، فلم يكن مثل غيره من الأطفال يسرف في اللّهو واللعب، بل كان مشمراً عن ساعد الجد والاجتهاد، مثابراً على تحصيل العلوم ليلاً ونهاراً.

قال عنه الذهبي: نشأ في تصون تام، وعفاف، وتأله وتعبد، واقتصاد في الملبس والمأكل، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره، ويناظر ويفحم الكبار، ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم، فأفتى

---

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٣ ـ ص٣٥٨.

وله تسع عشرة سنة، بل أقل، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت[١].

٤ ـ ١ ـ ٢: شيوخه ومسموعاته:

قال ابن عبدالهادي: سمع شيخنا الكثير...، وشيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ[٢].

وقال علم الدين البرزالي: قدم مع والده وأهله إلى دمشق ـ وهو صغير[٣] ـ فسمع الحديث من ابن عبدالدائم، وابن أبي اليسر، وابن عبدان، والشيخ شمس ابن الحنبلي، والشيخ شمس الدين بن عطاء الحنفي، والشيخ جمال الدين ابن الصيرفي، ومجد الدين ابن عساكر، والشيخ جمال الدين البغدادي، والنجيب بن المقداد، وابن أبي الخير، وابن علان، وابن أبي بكر اليهودي، والكمال عبدالرحيم، والفخر علي، وابن شيبان، والشرف بن القواس، وزينب بنت مكي، وخلق كثير، سمع منهم الحديث، وقرأ بنفسه الكثير، وطلب الحديث، وكتب الطباق والأثبات، ولازم السماع بنفسه مدة سنين، وقلّ أن سمع شيئاً إلا حفظه، ثم اشتغل بالعلوم[٤].

وقال ابن مفلح: أقبل على العلوم في صغره وأخذ الفقه والأصول عن والده، وعن الشيخ شمس الدين ابن أبي عمر، والشيخ زين الدين

---

(١) ابن عبدالهادي ـ العقود الدرية ـ المصدر السابق ـ ص١٩.
(٢) ابن عبدالهادي ـ المصدر السابق ـ ص١٩.
(٣) في أثناء سنة سبع وستين وستمائة ـ كما قال ابن عبدالهادي ـ أي كان عمره إذ ذاك قرابة ست سنين.
(٤) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١٧٢ ـ ١٧٣.

ابن المنجّى، وبرع في ذلك وناظر وقرأ العربية على ابن عبد القوي، ثم أخذ (كتاب سيبويه) فتأمله وفهمه، وأقبل على تفسير القرآن العظيم فبرز فيه، وأحكم الفرائض والحساب والجبر والمقابلة وغير ذلك من العلوم، ونظر في علم الكلام والفلسفة وبرز في ذلك على أهله، ورد على رؤسائهم وأكابرهم...، وسمع من القاسم الإربلي، والشيخ شمس الدين ابن أبي عمر، وخلق كثير...؛ منهم الشيخ الإمام الخطيب المدرس المفتي شرف الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ كمال الدين المقدسي الشافعي، أذن في الإفتاء لجماعة من الفضلاء؛ منهم: ابن تيمية، وكان يفتخر بذلك ويفرح به ويقول: «أنا أذنت لابن تيمية بالإفتاء[(١)]».

وقال الذهبي: عنِي بالرواية، وسمع الكتب والمسند والمعجم الكبير، سمعت جملةً من مصنفاته وجزء ابن عرفة وغير ذلك[(٢)].

٤ ـ ١ ـ ٣: حفظه وسعة علمه واجتهاده:

قال ابن العماد: قال الذهبي في تاريخه الكبير بعد ترجمة طويلة: بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث.

وكتب الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني تحت اسم ابن تيمية: كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحَكم أن أحداً لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا في مذاهبهم منه أشياء، ولا يعرف أنه ناظر أحداً

---

(١) ابن مفلح ـ المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد ـ المصدر السابق ـ ج١ ـ ص١٣٣.

(٢) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ـ معجم الشيوخ، (المعجم الكبير) ـ المصدر السابق ـ ج١ ـ ص٥٦.

فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم ـ سواء كان من علوم الشرع أو غيرها ـ إلا فاق فيه أهله، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها .

وكتب الحافظ ابن سيد الناس في جواب سؤالات الدمياطي في حق ابن تيمية: ألفيته ممن أدرك من العلوم حظّاً، وكان يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، وإن أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو دان بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالنحل(١) والملل لم ير أوسع من نحلته، ولا أرفع من درايته، برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه(١) .

وقال ابن عبدالهادي: واتفق أن بعض مشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق وقال: سمعت في البلاد بصبي يقال له أحمد بن تيمية، وأنه سريع الحفظ، وقد جئت قاصداً لعلي أراه، فقال له خياط: هذه طريق كتّابه، وهو إلى الآن ما جاء، فاقعد عندنا الساعة يجيء يعبر علينا ذاهباً إلى الكتّاب، فجلس الشيخ الحلبي قليلاً، فمرّ صبيان فقال الخياط للحلبي: هذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية، فناداه الشيخ فجاء إليه، فتناول الشيخ اللوح فنظر فيه، ثم قال: يا ولدي امسح هذا حتى أملي عليك شيئاً تكتبه. ففعل، فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثاً وقال له: اقرأ هذا، فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته إياه، ثم دفعه إليه وقال: اسمعه عليَّ، فقرأه عليه عرضاً كأحسن ما أنت سامع، فقال له: يا ولدي امسح هذا. ففعل، فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها، ثم قال: اقرأ هذا. فنظر فيه كما فعل أول مرة، فقام

(١) ابن العماد ـ المصدر السابق ـ ج٦ ـ ص٨٠ ـ ٨٢.

الشيخ وهو يقول: إن عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم، فإن هذا لم يُر مثله! أو كما قال(١).

وقال البزار: «لقد سمع غير كتاب على غير شيخ من ذوي الروايات الصحيحة العالية، أما دواوين الإسلام الكبار...، فإنه ـ رحمه الله ورضي عنهم وعنه ـ سمع كل واحد منها عدة مرات...، وقلّ كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه، وكان الله قد خصه بسرعة الحفظ وإبطاء النسيان؛ لم يكن يقف على شيء أو يستمع لشيء ـ غالباً ـ إلا ويبقى على خاطره؛ إما بلفظه أو معناه(٢).

وقال العلامة الحافظ ابن ناصر الدين في شرح بديعته: وترجمه بالاجتهاد وبلوغ درجته والتمكن في أنواع العلوم والفنون: ابن الزملكاني، والذهبي، والبرزالي، وابن عبد الهادي، وآخرون، ولا يخلف بعده من يقاربه في العلم والفضل. انتهى كلام ابن ناصر الدين ملخصاً(٣).

قال ابن كثير نقلاً عن البرزالي: كان ذكيّاً كثير المحفوظ، فصار إماماً في التفسير وما يتعلق به، عارفاً بالفقه، فيقال إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه وغيره، وكان عالماً باختلاف العلماء، عالماً في الأصول والفروع والنحو واللغة وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية، وما قُطع في مجلس ولا تكلم معه فاضل في فنّ من

(١) ابن عبدالهادي ـ العقود الدرية ـ المصدر السابق ـ ص١٩.
(٢) البزار ـ الأعلام العلية ـ المصدر السابق ـ ص١٨.
(٣) ابن العماد ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ المصدر السابق ـ ج٥ ـ ص٨٤.

الفنون إلا ظن أن ذلك الفنّ فنّه، ورآه عارفاً به متقناً له.

وأما الحديث؛ فكان حامل رايته، حافظاً له، مميزاً بين صحيحه وسقيمه، عارفاً برجاله، متضلعاً من ذلك.

وبالجملة؛ كان رحمه الله من كبار العلماء، وممن يخطىء ويصيب، ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجيّ، وخطؤه أيضاً مغفور له؛ كما في صحيح البخاري[(١)]: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر)، فهو مأجور، وقال الإمام مالك بن أنس: (كل أحد يؤخذ من قوله ويترك، إلا صاحب هذا القبر)[(٢)].

قال ابن كثير: وفي يوم الأربعاء ثاني عشر شوال درس الشيخ شمس الدين ابن الأصبهاني بالرواحية بعد ذهاب ابن الزملكاني إلى حلب، وحضر عنده القضاة

والأعيان، وكان فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وجرى يومئذ بحث في العام إذا خص، وفي الاستثناء بعد النفي، ووقع انتشار وطال الكلام في ذلك المجلس، وتكلم الشيخ تقي الدين كلاماً أبهت الحاضرين[(٣)].

وقال السيوطي: عني بالحديث، وخرج وانتقى، وبرع في الرجال، وعلل الحديث وفقهه، وفي علوم الإسلام، وعلم الكلام، وغير ذلك، وكان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد، والأفراد[(٤)].

---

(١) (٧٣٥٢)، ومسلم: ١٧١٦.
(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١٧٣و ١٧٦.
(٣) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١٥٠، في حوادث سنة خمس وعشرين وسبعمائة.
(٤) عبدالرحمن السيوطي ـ طبقات الحفاظ ـ المرجع السابق ـ ص٥١٦ ـ ٥١٧.

٤ ـ ١ ـ ٤: وظائفه الشرعية:

لقد عرضت على ابن تيمية الدنيا فرفضها، ولم يرض منها إلا بالعلم النافع والعمل الصالح، ونفع الناس وإصلاحهم؛ حتى إنه ترك الزواج لأجل ذلك، وقد عرضت عليه وظائف شتى فرفضها، تقديماً للأهم على المهم، وتفرغاً للعلم والتعليم والإصلاح بكل صوره على غيره من الوظائف، ومن تلك الوظائف:

أ ـ القضاء **ومشيخة الشيوخ**: قال ابن رجب: وقد عرض عليه قضاء الحنابلة قبل التسعين، ومشيخة الشيوخ فلم يقبل شيئاً من ذلك.

ب ـ تصدره للتدريس والفتيا:

قال ابن مفلح: وتأهل للفتوى والتدريس وله دون العشرين سنة، وأمده الله تعالى بكثرة الكتب وسرعة الحفظ وقوة الإدراك والفهم، وكان بطيء النسيان؛ حتى ذكر جماعة أنه لم يكن يحفظ شيئاً فينساه.

وتوفي والده الشيخ شهاب الدين وكان عمره إذ ذاك إحدى وعشرين سنة فقام بوظائفه، ودرس بدار الحديث السكرية في أول سنة ثلاث وثمانين، وحضر عنده قاضي القضاة شهاب الدين ابن المزكّى، والشيخ شهاب الدين الفزاريّ، والشيخ شهاب الدين ابن المرحِّل، والشيخ زين الدين ابن المنجّى، وذكر درساً عظيماً في البسملة، وعظمه الجماعة الحاضرون فأثنوا عليه ثناءً كثيراً.

ثم جلس مكان والده بالجامع يفسر القرآن الكريم وشرع من أوله، وكان يورد من حفظه في المجلس نحو كراسين أو أكثر، وبقي يفسر في سورة نوح عدة سنين، وفي وقت ذكرِ يوم جمعة شيئاً فقام بعض المخالفين وسعوا في منعه فلم يُمكنهم ذلك.

قال ابن كثير في حوادث سنة خمس وتسعين وستمائة: وفي يوم الأربعاء، سابع عشر شعبان، درس الشيخ الإمام العلامة، شيخ الإسلام، تقي الدين ابن تيمية الحراني بالمدرسة الحنبلية، عوضاً عن الشيخ زين الدين ابن المنجى، توفي إلى رحمة الله، ونزل ابن تيمية عن حلقة العماد ابن المنجى لشمس الدين ابن الفخر البعلبكي[١].

وقال أيضاً: وفيه[٢] درّس الشيخ شرف الدين ابن تيمية بالحنبلية عن إذن أخيه له بذلك، بعد وفاة أخيهما لأمهما؛ بدر الدين قاسم بن محمد ابن خالد، ثم سافر الشيخ شرف الدين إلى الحج، وحضر الشيخ تقي الدين الدرس بنفسه، وحضر عنده خلق كثير من الأعيان وغيرهم حتى عاد أخوه، وبعد عوده أيضاً[٣].

ووصف البزار الهيئة التي يكون عليها عند إلقاء الدروس، فقال: وأما ذكر دروسه فقد كنت في حال إقامتي بدمشق لا أفوتها، وكان لا يهيئ شيئاً من العلم ليلقيه ويورده، بل يجلس بعد أن يصلي ركعتين، فيحمد الله ويثني عليه، ويصلي على رسوله ﷺ على صفة مستحسنة مستعذبة لم أسمعها من غيره، ثم يشرع فيفتح الله عليه إيراد علوم وغوامض ولطائف ودقائق وفنون ونقول، واستدلالات بآيات وأحاديث وأقوال العلماء، ونصر بعضها وتبيين صحته، أو تزييف بعضها وإيضاح حجته، واستشهاد بأشعار العرب، وربما ذكر اسم ناظمها، وهو مع ذلك يجري كما يجري السيل، ويفيض كما يفيض البحر...[٤].

---

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٣ ـ ص٤٣٨.
(٢) أي في شهر شوّال من السنة السابعة عشرة وسبعمائة من الهجرة النبوية.
(٣) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١٠٤.
(٤) البزار ـ الأعلام العلية ـ المصدر السابق ـ ص٢٧ ـ ٢٨.

٤ ـ ١ ـ ٥: نصحه للأمة:

لقد أوقف شيخ الإسلام حياته كلها لخدمة الإسلام والمسلمين، ونصرة دين الله بيده ولسانه وقلمه، وذلك معلوم ـ بالضرورة ـ من سيرته وتراجمه ومؤلفاته، ولقد ذبَّ ونافح وجاهد وقام بأدوار وقائية، وأدوار علاجية في سبيل ذلك، كما هو دور التربية على ما سيأتي، مستخدماً في ذلك شتى الأساليب التي اكتسبها من هدي خير البرية، والتي مكنته ـ بفضل الله ـ من تشجيع الخير الموجود وأهله، وإصلاح الفساد الموجود ونصح أهله، ومن أبرز أدواره في ذلك:

أولاً: نبه عن جناب النبوة:

ذكر ابن كثير في حوادث سنة ثلاث وتسعين وستمائة واقعة عسّاف النصراني فقال: كان هذا الرجل من أهل السويداء[1]، قد شهد عليه جماعة أنه سبَّ النبي ﷺ، وقد استجار عساف ـ هذا ـ بابن أحمد بن حجي ـ أمير آل علي ـ فاجتمع الشيخ تقي الدين ابن تيمية، والشيخ زين الدين الفارقي ـ شيخ دار الحديث ـ فدخلا على الأمير؛ عز الدين أيبك الحموي ـ نائب السلطنة ـ فكلماه في أمره، فأجابهما إلى ذلك، وأرسل ليحضره، فخرجا من عنده ومعهما خلق كثير من الناس، فرأى الناس عسافاً حين قدم ومعه رجل من العرب، فسبوه وشتموه، فقال ذلك الرجل البدوي: هو خير منكم ـ يعني النصراني ـ فرجمهما الناس بالحجارة، وأصابت عسافاً، ووقعت خبطة قوية، فأرسل النائب فطلب الشيخين؛ ابن تيمية والفارقي فضربهما بين يديه، ورسم عليهما في العذراوية.

---

(١) قرية من قرى دمشق.

وقدم النصراني فأسلم، وعقد مجلس بسببه، وأثبت بينه وبين الشهود عداوة!

فحقن دمه، ثم استدعى بالشيخين فأرضاهما، وأطلقهما، ولحق النصراني بعد ذلك ببلاد الحجاز، فاتفق قتله قريباً من مدينة رسول الله ﷺ، قتله ابن أخيه هنالك، وصنف الشيخ تقي الدين ابن تيمية في هذه الواقعة كتابه (الصارم المسلول على سابِّ الرسول)[١].

ثانياً: كراهيته للبدع ورفضه لها:

إن البدع من أخطر ما يقع في الأمة ويفرق شملها، وهي أكبر أسباب انحراف الناس عن الجادّة؛ لما تتضمنه من مشاقَّة الله ورسوله، وضياع الدين، فما من دين حُرِّف إلا ومبدأ أمره ابتداع أهله فيه، وعدم اكتفائهم بالوحي المنزل عليهم على لسان رسولهم، ومن هنا كان النبي ﷺ يحذر من البدع في كل يوم جمعة على المنبر على مرأى ومسمع من الناس، واستمر على ذلك، حتى لما طلبوا منه وصية المودع أوصاهم بالحذر من البدع؛ فقد قال العرباض بن سارية: «قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فوعظنا موعظة بليغة؛ وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقيل: يا رسول الله وعظتنا موعظة مودع! فاعهد إلينا بعهد، فقال: (عليكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشيّاً، وسترون من بعدي اختلافاً شديداً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأمور المحدثات، فإن كل بدعة ضلالة)[٢]. ومن

(١) وهو كتاب ـ صغير الحجم، عظيم النفع ـ وهو مطبوع متداول.

(٢) أبو داود: ٤٦٠٧، والترمذي: ٢٦٧٦، وابن ماجه: ٤٣ و ٤٤، وغيرهم، وصححه الترمذي، والحاكم وابن حبان والألباني وغيرهم.

هنا أنكر ابن تيمية البدع ـ في الدين ـ كلها، حفاظاً على صفاء الدين ووحدة أهله واجتماعهم، وحذراً من تفرقهم واختلافهم، ومن ذلك:

أ ـ صلاة الرغائب:

قال ابن كثير: وفي هذه السنة[١] صليت صلاة الرغائب في النصف بجامع دمشق بعد أن كانت قد أبطلها ابن تيمية منذ أربع سنين، ولما كانت ليلة النصف؛ حضر الحاجب ركن الدين بيبرس العلائي، ومنع الناس من الوصول إلى الجامع ليلتئذ، وغلقت أبوابه، فبات كثير من الناس في الطرقات، وحصل للناس أذى كثير، وإنما أراد صيانة الجامع من اللغو والرفث والتخليط.

ب ـ صلاة ليلة النصف من شعبان:

قال ابن كثير في حوادث سنة سبع وسبعمائة: وفي ليلة النصف من شعبان أبطلت صلاة ليلة النصف لكونها بدعة، وصين الجامع من الغوغاء والرعاع، وحصل بذلك خير كثير، ولله الحمد والمنة[٢].

ج ـ بدعة الأحمدية:

قال ابن كثير: وصنف الشيخ جزءاً في طريقة الأحمدية، وبين فيه أحوالهم ومسالكهم وتخيلاتهم، وما في طريقتهم من مقبول ومردود بالكتاب، وأظهر الله السنة على يديه وأخمد بدعتهم، ولله الحمد والمنة[٣].

---

(١) أي سنة ست وسبعمائة.

(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٥٤ و ٦٠.

(٣) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٤٧.

ثالثاً: دفاعه عن العلماء، ومحبته لهم:

لقد ألف رحمه الله في ذلك رسالته المشهورة: (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، وبين فيها: أن أحداً من أئمة الإسلام لا يخالف حديثاً صحيحاً بغير عذر، بل لهم نحو من عشرين عذراً؛ مثل أن يكون أحدهم لم يبلغه الحديث، أو بلغه من وجه لم يثق به، أو لم يعتقد دلالته على الحكم، أو اعتقد أن ذلك الدليل قد عارضه ما هو أقوى منه كالناسخ، أو ما يدل على الناسخ، وأمثال ذلك.

والأعذار يكون العالم فى بعضها مصيباً، فيكون له أجران، ويكون في بعضها مخطئاً بعد اجتهاده، فيثاب على اجتهاده، وخطؤه مغفور له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقد ثبت في الصحيح أن الله استجاب هذا الدعاء، وقال: (قد فعلت)[(١)].

ولأن العلماء ورثة الأنبياء، وقد ذكر الله عن داود وسليمان أنهما حكما في قضية، وأنه فهمها أحدهما، ولم يُعب الآخر، بل أثنى على كل واحد منهما بأنه آتاه حكماً وعلماً، فقال: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩].

رابعاً: دفاعه عن عموم المسلمين وموقفه ممن أساء إليهم أو اعتدى عليهم:

لم يكن موقف شيخ الإسلام تجاه قضايا مجتمعه وأمته موقفاً

---

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٢٠ ـ ص٣٠٥، والحديث أخرجه مسلم: ١٢٥.

نظرياً، بل كان له مواقف عملية مشرفة، كان نتيجتها العزة والتمكين، ونصرة الدين والمسلمين، ولا أدل على ذلك من مواقفه المتكررة من التتار، وأساليبه المتعددة لصدّهم وردّ شرهم وكيدهم عن الإسلام والمسلمين، وكذلك أساليبه التربوية الحكيمة لتثبيت الناس في الداخل، ورأب الصدع وقت هيجان الفتن وتخبط الناس، وحيرة أكابرهم - فضلاً عن أصاغرهم - حتى تجتمع الكلمة على الحق، ويحصل الاتفاق، وتتَّحد الصفوف، وحتى لا يحصل الخلاف والشقاق؛ كما قال تعالى ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦]، ولا يصمد للفتن الكبار إلا أهل الخبرة والعلم والصبر واليقين، وبهذه تنال الإمامة في الدين؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

ولقد سطر لنا الحافظ ابن كثير تلك المواقف التي آثر الباحث ذكرها بشيء من الاختصار مع ما فيها من الطول، معنوناً لها بما يبرز إخلاص ابن تيمية وغيرته على أمته ومجتمعه، وهكذا ينبغي أن يكون العلماء الربانيون، والدعاة المخلصون، والمربون العاملون، وبهذا تنهض الأمم، وتستقيم الأمور، ومن تلك المواقف النبيلة:

أ - تقدمه إلى قازان لأخذ الأمان منه لأهل دمشق:

قال ابن كثير - رحمه الله -: دخلت سنة تسع وتسعين وستمائة، وسلطان التتار قد قصد دمشق بعد الوقعة، فاجتمع أعيان البلد والشيخ تقي الدين ابن تيمية في مشهد عليّ، واتفقوا على المسير إلى قازان لتلقيه، وأخذ الأمان منه لأهل دمشق، فتوجهوا يوم الإثنين ثالث ربيع

الآخر، فاجتمعوا به عند النبك[١]، وكلّمه الشيخ تقي الدين كلاماً قوياً شديداً فيه مصلحة عظيمة، عاد نفعها على المسلمين ـ ولله الحمد ـ ودخل المسلمون ليلتئذ من جهة قازان، فنزلوا بالبدرانية[٢] وغلقت أبواب البلد سوى باب توما[٣]، وخطب الخطيب بالجامع يوم الجمعة ولم يذكر سلطاناً في خطبته، وبعد الصلاة قدم الأمير إسماعيل ومعه جماعة من الرسل، فنزلوا ببستان الظاهر عند الطرن.

ب ـ حفاظه على كل شبر من أرض المسلمين لئلا يقع في أيدي الكافرين:

قال رحمه الله: «وفي يوم الإثنين عاشر الشهر، قدم سيف الدين قبجق المنصوري، فنزل في الميدان واقترب جيش التتر، وكثر العيث في ظاهر البلد، وقتل جماعة، وغلت الأسعار بالبلد جدّاً، وأرسل قبجق إلى نائب القلعة ليسلمها إلى التتر، فامتنع أرجواش من ذلك أشد الامتناع، فجمع له قبجق أعيان البلد، فكلموه أيضاً فلم يجبهم إلى ذلك، وصمم على ترك تسليمها إليهم وبها عين تطرف، فإن الشيخ تقي الدين ابن تيمية أرسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك: «لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت».

وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام، فإن الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزاً لأهل الشام، التي لا تزال دار إيمان وسنة حتى ينزل بها عيسى ابن مريم».

---

(١) موضع بين حمص ودمشق.
(٢) موضع بدمشق.
(٣) موضع بدمشق.

ج ـ سعيه في فكاك أسارى المسلمين من مخيم بولاي:

قال رحمه الله: «وفي يوم دخول قبجق إلى دمشق، دخل السلطان ونائبه سلار إلى مصر، كما جاءت البطاقة بذلك إلى القلعة، ودقت البشائر بها، فقوي جأش الناس بعض قوة.

وفي ثامن رجب طلب قبجق القضاة والأعيان فحلفهم على المناصحة للدولة المحمودية ـ يعني قازان ـ فحلفوا له، وفي هذا اليوم خرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مخيم بولاي، فاجتمع به في فكاك من كان معه من أسارى المسلمين، فاستنقذ كثيراً منهم من أيديهم، وأقام عنده ثلاثة أيام، ثم عاد، ثم راح إليه جماعة من أعيان دمشق، ثم عادوا من عنده فشلحوا عند باب شرقي، وأخذ ثيابهم وعمائمهم، ورجعوا في شر حالة، ثم بعث في طلبهم، فاختفى أكثرهم وتغيبوا عنه.

ونودي بالجامع بعد الصلاة ثالث رجب من جهة نائب القلعة: بأن العساكر المصرية قادمة إلى الشام، وفي عشية يوم السبت رحل بولاي وأصحابه من التتر وانشمروا عن دمشق، وقد أراح الله منهم، وساروا من على عقبة دمّر[1] فعاثوا في تلك النواحي فساداً، ولم يأت سابع الشهر وفي حواشي البلد منهم أحد...، وأمنت البلاد، وخرج الناس للفرجة في غيض السفرجل[2] على عادتهم، فعاثت عليهم طائفة من التتر، فلما رأوهم رجعوا إلى البلد هاربين مسرعين، ونهب بعض الناس بعضاً، ومنهم من ألقى نفسه في النهر، وإنما كانت هذه الطائفة مجتازين ليس لهم قرار».

---

(١) دمّر: عقبة مشرفة على دمشق من جهة بعلبك.

(٢) موضع بين الكوفة والشام.

د ـ تحريضه الناس على ملاقاة العدو الغاشم، وتصبيرهم بذكر آيات الجهاد:

قال رحمه الله: «وتقلق قبجق من البلد، ثم إنه خرج منها في جماعة من رؤسائها وأعيانها؛ منهم عز الدين ابن القلانسي، ليتلقوا الجيش المصري، وذلك أن جيش مصر خرج إلى الشام في تاسع رجب، وجاءت البريدية بذلك، وبقي البلد ليس به أحد، ونادى أرجواش في البلد: احفظوا الأسوار، وأخرجوا ما كان عندكم من الأسلحة، ولا تهملوا الأسوار والأبواب، ولا يبيتن أحد إلا على السور، ومن بات في داره شنق، فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ البلاد، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوار، يُحرض الناس على الصبر والقتال، ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط».

هـ ـ تأديبه واستتابته للخائنين والمنافقين في الداخل، وما حصل بذلك من الخير:

قال رحمه الله: «وفي يوم الجمعة العشرين منه، ركب نائب السلطنة جمال الدين آقوش الأفرم في جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان[١]، وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية ومعه خلق كثير من المتطوعة والحوارنة لقتال أهل تلك الناحية، بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم، وما كانوا عاملوا به العساكر لما كسرهم التتر، وهربوا حين اجتازوا ببلادهم، وثبوا عليهم ونهبوهم، وأخذوا أسلحتهم وخيولهم، وقتلوا كثيراً منهم، فلما وصلوا إلى بلادهم جاء رؤساؤهم إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية، فاستتابهم، وبيّن للكثير منهم الصواب، وحصل بذلك خير

(١) الجرد وكسروان: جبلان بدمشق.

كثير، وانتصار كبير على أولئك المفسدين، والتزموا بردّ ما كانوا أخذوه من أموال الجيش، وقرر عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت المال، وأقطعت أراضيهم وضياعهم، ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند، ولا يلتزمون أحكام الملة، ولا يدينون دين الحق، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله».

و ـ ترغيبه الناس وحثهم على الثبات والدفاع عن دينهم وأرضهم بالنفس والمال:

قال رحمه الله: «وفي مستهلّ صفر وردت الأخبار بقصد التتر بلاد الشام، وأنهم عازمون على دخول مصر، فانزعج الناس لذلك، وازدادوا ضعفاً على ضعفهم، وطاشت عقولهم وألبابهم، وشرع الناس في الهرب إلى بلاد مصر والكرك والشوبك والحصون المنيعة، فبلغت الحمارة إلى مصر خمسمائة، وبيع الجمل بألف، والحمار بخمسمائة، وبيعت الأمتعة والثياب والمغلات بأرخص الأثمان، وجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية في ثاني صفر بمجلسه في الجامع، وحرض الناس على القتال، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك، ونهى عن الإسراع في الفرار، ورغب في إنفاق الأموال في الذبّ عن المسلمين وبلادهم وأموالهم، وأن ما ينفق في أجرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيراً، وأوجب جهاد التتر حتماً في هذه الكرة، وتابع المجالس في ذلك، ونودي في البلاد لا يسافر أحد إلا بمرسوم وورقة، فتوقف الناس عن السير، وسكن جأشهم.

وتحدث الناس بخروج السلطان من القاهرة بالعساكر ودقت البشائر لخروجه، لكن كان قد خرج جماعة من بيوتات دمشق؛ كبيت ابن

صصرى، وبيت ابن فضل الله، وابن منجا، وابن سويد، وابن الزملكاني، وابن جماعة».

ز - وقوفه أمام الناس عند اشتداد الخطوب، تثبيتاً لهم، وتطبيقاً لما يدعو إليه:

قال رحمه الله: «واستهل جمادى الأولى - سنة سبعمائة من الهجرة - والناس على خطة صعبة من الخوف، وتأخر السلطان، واقترب العدو، وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى في مستهل هذا الشهر - وكان يوم السبت - إلى نائب الشام في المرج، فثبتهم وقوى جأشهم، وطيب قلوبهم، ووعدهم النصر والظفر على الأعداء، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠]، وبات عند العسكر ليلة الأحد، ثم عاد إلى دمشق».

ح - جرأته عند السلاطين ومطالبته بالحقوق العامة:

قال رحمه الله: «وقد سأله النائب والأمراء أن يركب على البريد إلى مصر، يستحث السلطان على المجيء، فساق وراء السلطان، وكان السلطان قد وصل إلى الساحل، فلم يدركه إلا وقد دخل القاهرة، وتفارط الحال، ولكنه استحثهم على تجهيز العساكر إلى الشام إن كان لهم به حاجة، وقال لهم فيما قال: «إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته، أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن، ولم يزل بهم حتى جردت العساكر إلى الشام، ثم قال لهم: لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه، وهم رعايتكم وأنتم

مسؤولون عنهم، وقوى جأشهم وضمن لهم النصر هذه الكرة!

فخرجوا إلى الشام، فلما تواصلت العساكر إلى الشام، فرح الناس فرحاً شديداً بعد أن كانوا قد يئسوا من أنفسهم وأهليهم وأموالهم».

ط ـ اجتماعه بالسلطان وأعيان الدولة وتشجيعهم على الخروج لنصرة المسلمين:

قال رحمه الله: «ثم قويت الأراجيف بوصول التتر، وتحقق عود السلطان إلى مصر، ونادى ابن النحاس ـ متولي البلد ـ في الناس: من قدر على السفر فلا يقعد بدمشق، فتصايح النساء والولدان، ورهق الناس ذلة عظيمة وخمدة، وزلزلوا زلزالاً شديداً، وغلقت الأسواق، وتيقنوا أن لا ناصر لهم إلا الله عزّ وجلّ، وأن نائب الشام لما كان فيه قوة مع السلطان عام أول لم يقو على التقاء جيش التتر، فكيف به الآن وقد عزم على الهرب! ويقولون: ما بقي أهل دمشق إلا طعمة العدو، ودخل كثير من الناس إلى البراري والقفار والمغر بأهليهم من الكبار والصغار، ونودي في الناس: من كانت نيته الجهاد فليلحق بالجيش فقد اقترب وصول التتر، ولم يبق بدمشق من أكابرها إلا القليل، وسافر ابن جماعة والحريري وابن صصرى وابن منجا، وقد سبقهم بيوتهم إلى مصر، وجاءت الأخبار بوصول التتر إلى سرقين، وخرج الشيخ زين الدين الفارقي، والشيخ إبراهيم الرقي، وابن قوام، وشرف الدين ابن تيمية، وابن خبارة إلى نائب السلطنة الأفرم، فقووا عزمه على ملاقاة العدو، واجتمعوا بمهنا؛ أمير العرب، فحرضوه على قتال العدو، فأجابهم بالسمع والطاعة، وقويت نياتهم على ذلك، وخرج طلب سلار من دمشق إلى ناحية المرج، واستعدوا للحرب والقتال بنيات صادقة.

ورجع الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في السابع

والعشرين من جمادى الأولى على البريد، وأقام بقلعة مصر ثمانية أيام يحثهم على الجهاد والخروج إلى العدو، وقد اجتمع بالسلطان والوزير وأعيان الدولة فأجابوه إلى الخروج، وقد غلت الأسعار بدمشق جدًّا، حتى بيع خاروفان بخمسمائة درهم، واشتد الحال، ثم جاءت الأخبار بأن ملك التتار قد خاض الفرات راجعاً عامه ذلك لضعف جيشه وقلة عددهم، فطابت النفوس لذلك، وسكن الناس، وعادوا إلى منازلهم منشرحين آمنين مستبشرين».

ي ـ مجادلته لليهود الخيابرة وبيانه لتزويرهم وكذبهم على رسول الله ﷺ:

قال رحمه الله: «وفي هذا الشهر عقد مجلس لليهود الخيابرة[1]، وألزموا بأداء الجزية أسوة أمثالهم من اليهود، فأحضروا كتاباً معهم يزعمون أنه من رسول الله ﷺ بوضع الجزية عنهم! فلما وقف عليه الفقهاء تبينوا أنه مكذوب مفتعل؛ لما فيه من الألفاظ الركيكة، والتواريخ المحبطة، واللحن الفاحش، وحاققهم عليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وبين لهم خطأهم وكذبهم، وأنه مزور مكذوب، فأنابوا إلى أداء الجزية وخافوا من أن تستعاد منهم الشؤون الماضية».

ك ـ إعلامه العسكر بتحالف الأمراء والناس على لقاء العدو، ووعدهم بالنصر:

وقال في **أوائل وقعة شَقْحَب**[2]: «وفي ثامن عشر قدمت طائفة كبيرة

---

(١) نسبة إلى خيبر: وهو موضع بالشام، وسيأتي لذلك مزيد تفصيل في الفصل الرابع ـ إن شاء الله ـ.

(٢) انظر: (معركة شقحب أو معركة مرج الصُّفَّر) لمحمد لطفي الصباغ، كما في حاشية كتاب الإيمان لابن تيمية بتحقيق الألباني ـ ص٥.

من جيش المصريين فيهم الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، والأمير حسام الدين لاجين المعروف بالاستادار المنصوري، والأمير سيف الدين كراي المنصوري، ثم قدمت بعدهم طائفة أخرى فيهم بدر الدين أمير سلاح، وأيبك الخزندار، فقويت القلوب، واطمأن كثير من الناس، ولكن الناس في جفل عظيم من بلاد حلب وحماة وحمص وتلك النواحي، وتقهقر الجيش الحلبي والحموي إلى حمص، ثم خافوا أن يدهمهم التتر، فجاؤوا فنزلوا المرج يوم الأحد خامس شعبان، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك، وعاثوا في تلك الأراضي فساداً، وقلق الناس قلقاً عظيماً وخافوا خوفاً شديداً، واختبط البلد لتأخر قدوم السلطان ببقية الجيش، وقال الناس: لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لكثرتهم، وإنما سبيلهم أن يتأخروا عنهم مرحلة مرحلة، وتحدث الناس بالأراجيف، فاجتمع الأمراء يوم الأحد المذكور بالميدان، وتحالفوا على لقاء العدو، وشجعوا أنفسهم، ونودي بالبلد: أن لا يرحل أحد منه، فسكن الناس وجلس القضاة بالجامع، وحلفوا جماعة من الفقهاء والعامة على القتال، وتوجه الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة، فاجتمع بهم في القطيعة، فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم.

وكان الشيخ... يحلف للأمراء والناس إنكم في هذه الكرة منصورون! فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، وكان يتأول في ذلك أشياء من كتاب الله، منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الحج: ٦٠]».

ل ـ كشف الشبهات عند المحن وبيان الحق للناس وتشجيعهم بضرب الأمثال لهم:

قال رحمه الله: «وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتر من أي

قبيل هو؟ فإنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه، فقال الشيخ تقي الدين: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فتفطن العلماء والناس لذلك، وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني! فتشجع الناس في قتال التتار، وقويت قلوبهم ونياتهم ـ ولله الحمد».

م ـ خروجه أمام الناس ليشهد القتال بنفسه مع الجماعة:

قال رحمه الله: «ولما كان يوم الرابع والعشرين من شعبان خرجت العساكر الشامية فخيمت على الجسورة من ناحية الكسوة[١] ومعهم القضاة، فصار الناس فيهم فريقين:

فريق يقولون: إنما ساروا ليختاروا موضعاً للقتال؛ فإن المرج فيه مياه كثيرة، فلا يستطيعون معها القتال.

وقال فريق: إنما ساروا لتلك الجهة ليهربوا وليلحقوا بالسلطان، فلما كانت ليلة الخميس ساروا إلى ناحية الكسوة، فقويت ظنون الناس في هربهم، وقد وصلت التتار إلى قارة، وقيل إنهم وصلوا إلى القطيعة[٢]، فانزعج الناس لذلك شديداً، ولم يبق حول القرى والحواضر أحد، وامتلأت القلعة والبلد، وازدحمت المنازل والطرقات، واضطرب

(١) قرية بدمشق.

(٢) موضع بدمشق.

الناس، وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية صبيحة يوم الخميس من الشهر المذكور من باب النصر بمشقة كبيرة، وصحبته جماعة ليشهد القتال بنفسه ومن معه، فظنوا أنه إنما خرج هارباً، فحصل اللوم من بعض الناس وقالوا: أنت منعتنا من الجفل وها أنت هارب من البلد، فلم يردَّ عليهم، وبقي البلد ليس فيه حاكم، وجاس اللصوص والحرافيش فيه، وفي بساتين الناس يخربون وينتهبون ما قدروا عليه، ويقطعون المشمش قبل أوانه، والباقلاء والقمح وسائر الخضراوات، وحيل بين الناس وبين خبر الجيش، وانقطعت الطرق إلى الكسوة، وظهرت الوحشة على البلد والحواضر، وليس للناس شغل غير الصعود إلى المآذن ينظرون يميناً وشمالاً، وإلى ناحية الكسوة، فتارة يقولون: رأينا غبرة؛ فيخافون أن تكون من التتر، ويتعجبون من الجيش مع كثرتهم وجودة عدتهم وعددهم أين ذهبوا، فلا يدرون ما فعل الله بهم، فانقطعت الآمال، وألح الناس في الدعاء والابتهال وفي الصلوات وفي كل حال، وذلك يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان، وكان الناس في خوف ورعب لا يعبر عنه، لكن كان الفرج من ذلك قريباً، ولكن أكثرهم لا يفلحون، كما جاء في حديث أبي رزين: (عجب ربك من قنوط عباده، وقرب غيره، ينظر إليكم أزلين قنطين، فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب)[١].

فلما كان آخر هذا اليوم وصل الأمير فخر الدين إياس المرقبي أحد أمراء دمشق، فبشر الناس بخير هو: أن السلطان قد وصل وقت اجتمعت العساكر المصرية والشامية، وقد أرسلني أكشف هل طرق البلد أحد من التتر، فوجد الأمر كما يحب؛ لم يطرقها أحد منهم، وذلك أن التتار

---

(١) ابن ماجه: ١٨١، وهو في (السلسلة الصحيحة) للألباني: ٢٨١٠، والأزل: شدة القنوط.

عرجوا من دمشق إلى ناحية العساكر المصرية، ولم يشتغلوا بالبلد، وقد قالوا: إن غَلبنا فإن البلد لنا، وإن غُلبنا فلا حاجة لنا به».

ن ـ بيانه للحق وتمسكه به في كل مناسبة فلا تأخذه في الله لومة لائم:

قال رحمه الله: «وفي يوم الإثنين رابع الشهر رجع الناس من الكسوة إلى دمشق، فبشروا الناس بالنصر، وفيه دخل الشيخ تقي الدين ابن تيمية البلد ومعه أصحابه من الجهاد، ففرح الناس به، ودعوا له وهنؤوه بما يسر الله على يديه من الخير، وذلك أنه ندبه العسكر الشامي أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق، فسار إليه فحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر، فجاء هو وإياه جميعاً، فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ: السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم[(١)]».

س ـ ثقته بوعد الله، وتبشيره الناس بالنصر، ومجاهرته بما يدعو إليه من الحق:

قال رحمه الله: «وحرض السلطان على القتال، وبشره بالنصر، وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم في هذه المرة، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم، وأفطر هو أيضاً، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده، ليعلمهم أن إفطارهم

(١) يشير بذلك إلى قول عمار بن ياسر: «كان رسول الله ﷺ يستحبّ للرجل أن يقاتل تحت راية قومه»، وهو في مسند الإمام أحمد: ٤/ ٢٦٣، كما في (السلسلة الصحيحة) للألباني: ٣١١٦.

ليتقووا على القتال أفضل فيأكل الناس، وكان يتأول في الشاميين قوله: (إنكم ملاقو العدو غدا، والفطر أقوى لكم)، فعزم عليهم في الفطر عام الفتح كما في حديث أبي سعيد الخدري[١]».

ع ـ شجاعته وعلمه وخبرته وصبره في ساحات القتال:

قال ابن كثير: «وفي ثانيه[٢] خرج نائب السلطنة بمن بقي من الجيوش الشامية، وقد كان تقدم بين يديه طائفة من الجيش مع ابن تيمية في ثاني المحرم، فساروا إلى بلاد الجرد والرفض والتيامنة[٣]، فخرج نائب السلطنة الأفرم بنفسه بعد خروج الشيخ لغزوهم، فنصرهم الله عليهم، وأبادوا خلقاً كثيراً منهم ومن فرقتهم الضالة، ووطئوا أراضي كثيرة من صنع بلادهم، وعاد نائب السلطنة إلى دمشق في صحبته الشيخ ابن تيمية والجيش، وقد حصل بسبب شهود الشيخ هذه الغزوة خير كثير، وأبان الشيخ علماً وشجاعة في هذه الغزوة، وقد امتلأت قلوب أعدائه حسداً له وغمّاً».

ف ـ سرور الناس به ومحبتهم له لما حقق الله على يديه من النصر والنفع:

وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦]، قال ابن كثير: «وفي ثامن شوال[٤] دقت البشائر بدمشق بسبب خروج السلطان من مصر لأجل

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٦٢٤، ١١٢٠.
(٢) أي المحرم من سنة خمس وسبعمائة، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٤. ص١٠. ٤٧.
(٣) كلها ببلاد الشام.
(٤) أي من سنة اثنتي عشرة وسبعمائة.

ملاقاة التتر، وقدم صحبة السلطان الشيخ تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية إلى دمشق يوم الأربعاء، مستهل ذي القعدة، وكانت غيبته عنها سبع سنين، ومعه أخواه وجماعة من أصحابه، وخرج خلق كثير لتلقيه، وسرُّوا بقدومه وعافيته ورؤيته، واستبشروا به حتى خرج خلق من النساء أيضاً لرؤيته، وقد كان السلطان صحبه معه من مصر، فخرج معه بنيّة الغزاة، فلما تحقق عدم الغزاة وأن التتر رجعوا إلى بلادهم، فارق الجيش من غزة، وزار القدس وأقام به أياماً، ثم سافر على عجلون وبلاد السواد وزرع، ووصل دمشق في أول يوم من ذي القعدة، فدخلها فوجد السطان قد توجه إلى الحجاز الشريف».

ص ـ اشتغاله بما ينفع الناس، وبالعلم والتعليم والتصنيف:

قال رحمه الله: «إن الشيخ بعد وصوله إلى دمشق واستقراره بها، لم يزل ملازماً لاشتغال الناس في سائر العلوم، ونشر العلم وتصنيف الكتب وإفتاء الناس بالكلام والكتابة المطولة، والاجتهاد في الأحكام الشرعية، ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة، وفي بعضها يفتي بخلافهم، وبخلاف المشهور في مذاهبهم، وله اختيارات كثيرة؛ مجلدات عديدة أفتى فيها بما أدى إليه اجتهاده، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف[1]».

خامساً: أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر:

لقد كان ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ممن يقوم بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تجاوباً مع قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

---

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٨٥.

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، متبعاً في ذلك الأساليب التربوية النبوية التي وردت في حديث أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)**[١]، فكان يستخدم لكل موقف ما يناسبه منها.

أ ـ إنكاره باليد:

قال ابن كثير في حوادث سنة أربع وسبعمائة: «وفي هذا الشهر بعينه[٢] راح الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مسجد التاريخ، وأمر أصحابه ـ ومعهم حجارون ـ بقطع صخرة كانت هناك بنهر قلوط[٣] تزار وينذر لها! فقطعها وأراح المسلمين منها، ومن الشرك بها، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً، وبهذا وأمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة، وكذلك بكلامه بابن عربي وأتباعه، فحسد على ذلك وعودي، ومع هذا لم تأخذه في الله لومة لائم، ولا بالى، ولم يصلوا إليه بمكروه، وأكثر ما نالوا منه الحبس، مع أنه لم ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام، ولم يتوجه لهم عليه ما يشين، وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه ـ كما سيأتي ـ وإلى الله إياب الخلق، وعليه حسابهم.

وفي بكرة يوم الجمعة[٤]، دار الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله وأصحابه على الخمارات والحانات، فكسروا آنية الخمور، وشققوا الظروف، وأراقوا الخمور، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة

---

(١) مسلم: ١٧٧ (٤٩).

(٢) يعني شهر رجب.

(٣) نهر بالشام.

(٤) سابع عشر رجب سنة تسع وتسعين وستمائة.

لهذه الفواحش، ففرح الناس بذلك[١]».

ب ـ تعزيره للمفسدين:

قال ابن كثير في حوادث سنة أربع وسبعمائة: «وفي رجب أُحضر إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية شيخٌ كان يلبس دلقا[٢] كبيراً متسعاً جدّاً، يسمى: المجاهد إبراهيم القطا، فأمر الشيخ بتقطيع ذلك الدلق، فتناهبه الناس من كل جانب، وقطعوه حتى لم يدعوا فيه شيئاً، وأمر بحلق رأسه، وكان ذا شعر، وقلم أظفاره وكانوا طوالاً جداً، وحف شاربه المسبل على فمه المخالف للسنة، واستتابه من كلام الفحش، وأكل ما يغير العقل من الحشيشة وما لا يجوز من المحرمات وغيرها .

وبعده استحضر الشيخ محمد الخباز البلاسي، فاستتابه أيضاً عن أكل المحرمات ومخالطة أهل الذمة، وكتب عليه مكتوباً: أن لا يتكلم في تعبير المنامات، ولا في غيرها بما لا علم له به.

وفي مستهلّ ذي الحجة ركب الشيخ تقي الدين ابن تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجرد والكسروانيين، ومعه نقيب الأشراف زين الدين ابن عدنان، فاستتابوا خلقاً منهم، وألزموهم بشرائع الإسلام، ورجع مؤيداً منصوراً[٣]» .

ج ـ نصرته للمظلوم:

قال ابن كثير: «اتفق أن الشيخ جمال الدين المزي ـ الحافظ ـ قرأ فصلاً بالرد على الجهمية من كتاب (أفعال العباد) للبخاري تحت قبة

---

(١) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١٦٠.

(٢) الدلق: فرو الهرة ونحوه.

(٣) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٤٤ ـ ٤٦.

النسر بعد قراءة ميعاد البخاري بسبب الاستسقاء، فغضب بعض الفقهاء الحاضرين، وشكاه إلى القاضي الشافعي ابن صصرى ـ وكان عدو الشيخ ـ فسجن المزي، فبلغ الشيخ تقي الدين، فتألم لذلك، وذهب إلى السجن فأخرجه منه بنفسه، وراح إلى القصر فوجد القاضي هنالك، فتقاولا بسبب الشيخ جمال الدين المزي، فحلف ابن صصرى لا بد أن يعيده إلى السجن وإلا عزل نفسه، فأمر النائب بإعادته تطييباً لقلب القاضي! فحبسه عنده في القوصية أياماً ثم أطلقه[(١)]».

وقال ابن كثير عند ذكره لوفاة إبراهيم الموله: «الذي يقال له القميني لإقامته بالقمامين؛ خارج باب شرقي، وربما كاشف بعض العوام، ومع هذا لم يكن من أهل الصلاة، وقد استتابه الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وضربه على ترك الصلوات ومخالطة القاذورات، وجمْع النساء والرجال حوله في الأماكن النجسة[(٢)]».

د ـ إنكاره باللسان:

لقد كان ابن تيمية يكثر من استعمال اللسان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لأن اللسان وسيلة سهلة ميسورة لا تملّ، يحصل به المقصود بلا كلفة، والشر والفساد لا ينحصر، وكان الإمام قد أوتي حسن البيان، وقوة على استحضار الأدلة وإقامة الحجة، فكان يسلك في ذلك عدة أساليب منها:

١ ـ مناصحة ولاة الأمر وتذكيرهم بالحق والصدع به عندهم:

قال ابن القلانسي: «وتكلم الوزير في إعادة أهل الذمة إلى لبس

---

(١) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٤٩.

(٢) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١٥١.

العمائم البيض بالعلائم، وأنهم قد التزموا للديوان بسبع مائة ألف في كل سنة، زيادة على الحالية، فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام وكبار العلماء من أهل مصر والشام، من جملتهم ابن الزملكاني، وأنا في مجلس السلطان إلى جنب ابن الزملكاني، فلم يتكلم أحد من العلماء ولا من القضاة، فقال لهم السلطان: ما تقولون؟ يستفتيهم في ذلك، فلم يتكلم أحد! فجثى الشيخ تقي الدين على ركبتيه وتكلم مع السلطان في ذلك بكلام غليظ، ورد على الوزير ما قاله ردّاً عنيفاً، وجعل يرفع صوته، والسلطان يتلافاه ويسكته بترفق وتؤدة وتوقير، وبالغ الشيخ في الكلام وقال ما لا يستطيع أحد أن يقوم بمثله ولا بقريب منه، وبالغ في التشنيع على من يوافق في ذلك، وقال للسلطان: حاشاك أن يكون أول مجلس جلسته في أبهة الملك تنصر فيه أهل الذمة لأجل حطام الدنيا الفانية، فاذكر نعمة الله عليك إذ ردَّ ملكك إليك، وكبت عدوك ونصرك على أعدائك، فذكر أن الجاشنكير هو الذي جدد عليهم ذلك، فقال: والذي فعله الجاشنكير كان من مراسيمك، لأنه إنما كان نائباً لك. فأعجب السلطان ذلك، واستمر بهم على ذلك، وجرت فصول يطول ذكرها، وقد كان السلطان أعلم بالشيخ من جميع الحاضرين ودينه وزينته وقيامه بالحق وشجاعته[1]».

٢ ـ إنكاره للفساد الإداري وأخذ الرشى:

لقد لعن النبي ﷺ الراشي والمرتشي[2]، وذلك لأن شيوع الرشوة

---

(١) في حوادث سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٦٩.

(٢) أبو داود: ٣٥٨٠، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٥٠٩٣ و٥١١٤.

شيوع للفساد والظلم بأنواعه، وشيوع للنفعية الشخصية دون حقوق الآخرين، قال ابن كثير(١) «قدم كتاب من السلطان إلى دمشق: أن لا يولي أحد بمال ولا برشوة؛ فإن ذلك يفضي إلى ولاية من لا يستحق الولاية، وإلى ولاية غير الأهل، فقرأه ابن الزملكاني على السدة، وبلّغه عنه ابن حبيب المؤذن، وكان سبب ذلك الشيخ تقي الدين ابن تيمية».

٣ ـ تدخله مع الكبار وأصحاب القرار لنصحهم وإصلاحهم:

قال ابن كثير عند ذكره لمن توفي في سنة خمس وثلاثين وسبعمائة: «الأمير سلطان العرب؛ حسام الدين مهنا بن عيسى بن مهنا أمير العرب بالشام ...، وقد كان كبير القدر محترماً عند الملوك كلهم بالشام ومصر والعراق، وكان ديناً خيراً متحيزاً للحق، وخلف أولاداً وورثة وأموالاً كثيرة، وقد بلغ سنّاً عالية، وكان يحب الشيخ تقي الدين ابن تيمية حبّاً زائداً هو وذريته وعربه، وله عندهم منزلة وحرمة وإكرام، يسمعون قوله ويمتثلونه، وهو الذي نهاهم أن يُغير بعضهم على بعض، وعرّفهم أن ذلك حرام، وله في ذلك مصنف جليل(٢)».

٤ ـ إرشاده للتائهين والمتحيرين:

قال ابن العماد في ترجمة أحمد بن إبراهيم: «عماد الدين؛ أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مسعود الواسطي الحزامي الزاهد القدوة العارف، ولد في حادي أو ثاني عشر ذي الحجة سنة سبع وخمسين وستمائة بشرقي واسط، وكان أبوه شيخ الطائفة الأحمدية، ونشأ الشيخ عماد الدين بينهم وألهمه الله تعالى من صغره طلب الحق

---

(١) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٨٤.

(٢) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٢١٧ ـ ٢١٨.

ومحبته والنفور عن البدع وأهلها، ولم يسكن قلبه إلى شيء من الطرائق المحدثة، واجتمع بالإسكندرية بالطائفة الشاذلية، فوجد عندهم ما يطلبه من لوائح المعرفة والمحبة والسلوك، فأخذ ذلك عنهم وانتفع بهم، واقتفى طريقتهم وهديهم، ثم قدم دمشق فرأى الشيخ تقي الدين ابن تيمية وصاحبه، فدله على مطالعة السيرة النبوية، فأقبل على سيرة ابن إسحق تلخيص ابن هشام، فلخصها واختصرها، وأقبل على مطالعة كتب الحديث والسنة والآثار، وتخلى من جميع طرائقه وأذواقه وسلوكه، واقتفى أثر الرسول ﷺ وهديه وطرائقه المأثورة عنه في كتب السنن والآثار، واعتنى بأمر السنة أصولاً وفروعاً، وتبوع في الرد على طوائف المبتدعة الذين خالطهم وعرفهم من الاتحادية وغيرهم، وبين عوراتهم وكشف أستارهم، وانتقل إلى مذهب الإمام أحمد، واختصر الكافي في مجلد سماه: (البلغة)، وألف تآليف كثيرة في الطريقة النبوية والسلوك الأثري المحمدي، وهي من أنفع كتب الصوفية للمريدين، وانتفع به خلق كثير من متصوفة أهل الحديث ومتعبديهم[1]».

٤ ـ ١ ـ ٦: اعترافه بالحق لأهله، ولو كانوا من مناوئيه ومعانديه:

لم يمنع ابن تيمية أن يقول بالحق ويذكر به ـ كما هي عادته ـ ولو كان في ذلك تزكية لعدوه، أو رفعة لشأنه فيما هو محق فيه، وذلك من تمام محبته للحق وقبوله له ممن أتى به مهما كان، وبغضه للباطل بكل صوره مهما كان صاحبه، تأسياً بالنبي ﷺ، وتجاوباً مع قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا

---

(١) ابن العماد ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ المصدر السابق ـ ج٥ ـ ص٣٧٦.

﴿تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، فلهذا كان ملتزماً بالعدل وقول الحق في جميع أحواله مع الموافق والمخالف، وذلك من تقوى الله سبحانه وحسن معاملة الناس.

قال ابن كثير: «العلامة محمد ابن الشيخ الإمام مفتي المسلمين زين الدين عمر بن مكي بن عبدالصمد المعروف بابن المرحل وبابن الوكيل، شيخ الشافعية في زمانه وأشهرهم في وقته بالفضيلة وكثرة الاشتغال والمطالعة والتحصيل والاقتنان بالعلوم العديدة. . .، وكان ينصب العداوة للشيخ ابن تيمية. . . .، وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يثني عليه وعلى علومه وفضائله، ويشهد له بالإسلام إذا قيل له عن أفعاله وأعماله القبيحة، وكان يقول: كان مخلطا على نفسه، متبعاً مراد الشيطان منه، يميل إلى الشهوة والمحاضرة، ولم يكن كما يقول فيه بعض أصحابه ممن يحسده ويتكلم فيه هذا أو ما هو في معناه(١)».

٤ ـ ١ ـ ٧: جرأته في الحق فلا تأخذه فيه لومة لائم:

ذكر الشيخ محمد بن عمر بن ابي بكر بن البالسي(٢): «أن الشيخ تقي الدين ابن تيمية لما تكلم مع قازان قال لترجمانه: قل للقان أنت تزعم: أنك مسلم، ومعك مؤذنون وقاضي وإمام وشيخ على ما بلغنا، فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا؟ وأبوك وجدك هلاكو كانا كافرين، وما غزوا بلاد الإسلام، بل عاهدوا قومنا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت.

(١) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) توفي ليلة الإثنين الثاني والعشرين من صفر، بالزاوية المعروفة بهم غربي الصالحية والنصارية والعادلية، وصلي عليه ودفن بها، وحضر جنازته ودفنه خلق كثير وجم غفير، وكان في جملة الجمع الشيخ تقي الدين ابن تيمية، لأنه كان يحبه كثيراً.

قال: وجرت له مع قازان وقطلوشاه وبولاي أمور ونوب، قام ابن تيمية فيها كلها لله، وقال الحق ولم يخش إلا الله عزّ وجلّ.

قال: وقرب إلى الجماعة طعاماً فأكلوا منه إلا ابن تيمية، فقيل له: ألا تأكل؟

فقال: كيف آكل من طعامكم، وكله مما نهبتم من أغنام الناس، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس؟!

قال ثم إن قازان طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: اللهمَّ إن كان هذا عبدك محمود، إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا، وليكون الدين كله لك، فانصره وأيده وملكه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياء وسمعة وطلباً للدنيا، ولتكون كلمته هي العليا، وليذل الإسلام وأهله، فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره، قال: وقازان يؤمن على دعائه ويرفع يديه، قال: فجعلنا نجمع ثيابنا خوفاً من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله، قال: فلما خرجنا من عنده قال له قاضي القضاة نجم الدين ابن صصرى وغيره: كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لا نصحبك من هنا، فقال: وأنا والله لا أصحبكم، قال: فانطلقنا عصبة، وتأخر هو في خاصة نفسه، ومعه جماعة من أصحابه، فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان، فأتوه يتبركون بدعائه، وهو سائر إلى دمشق وينظرون إليه.

قال: والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه، وكنت أنا من جملة من كان معه، وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتر فشلحوهم عن آخرهم...، وقد سمعت هذه الحكاية من جماعة غيره[(١)]».

---

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١١٣ ـ ١١٤.

٤ ـ ١ ـ ٨: تنفيره من تكفير المسلمين:

قال الذهبي: كان شيخنا ابن تيمية ـ في أواخر أيامه ـ يقول: «أنا لا أكفِّر أحداً من الأمة، ويقول: قال النبي ﷺ: **(لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن)**، فمن لازم الصلوات بوضوء فهو مسلم[(١)]».

٤ ـ ١ ـ ٩: مؤلفاته وتصانيفه:

لقد ابتدأ رحمه الله التأليف وعمره سبعة عشر عاماً[(٢)]؛ وكتب في كل علوم الشريعة ما لو جمع شتاته لجاء في كل علم منها مؤلف شامل في مجلد أو مجلدات.

«وله تصانيف كثيرة، وتعاليق مفيدة في الأصول والفروع، كمل منها جملة، وبيضت وكتبت عنه وقرئت عليه أو بعضها وجملة كبيرة لم يكملها وجملة كملها ولم تبيض إلى الآن، وأسماء مصنفاته لا يحتمل ذكر جميعها هذا الموضع وهذا الكتاب[(٣)].

وأما مناظرته للخصوم وإفحامهم وقطعهم لديه فهو ظاهر، وكتبه التي

---

(١) الذهبي ـ سير أعلام النبلاء ـ المصدر السابق ـ ج١٥ ـ ص٨٨، والحديث أخرجه ابن ماجه: ٢٧٧، وصححه الألباني.

(٢) ابن عبدالهادي ـ العقود الدرية ـ المصدر السابق ـ ص٥٥، كما في (المداخل) ـ المرجع السابق، ص٤١، وقد ذكر الشيخ بكر (٤١ ـ ٥٤) أن من مميزات مؤلفاته: التأليف الألفي عن اجتهاد مطلق، وتعدد معارف، وتجديد، بقلم مطبوع قائل لا ناقل جمّاع، وإنما النقل عنده للتدليل والإسناد، في كل علوم الشريعة قد كتب، مع تنوع الفوائد في بحث المسألة الواحدة، يتلمس فيما يكتب واقع الناس وحاجاتهم بغية إصلاحهم، مستعيضاً بالألفاظ الموروثة عن صدر الأمة عن الألفاظ المولدة والدخيلة، متحرياً الدقة والعدل حتى مع خصومه.

(٣) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١٧٣.

صنفها فهي أشهر من أن تُذكر وتعرف، فإنها سارت مسير الشمس في الأقطار، وامتلأت بها البلاد والأمصار، وقد جاوزت حدّ الكثرة فلا يمكن أحد حصرها[١]، ولا يتسع هذا المكان لعدها، وله اختيارات غريبة جمعها بعضهم في مجلد لطيف.

ولقد وصف البزار فتاوى الإمام ومؤلفاته فقال: «وما سمعنا أنه اشتهر عن أحد منذ دهر طويل ما اشتهر عنه من كثرة متابعته للكتاب والسنة، والإمعان في تتبع معانيهما، والعمل بمقتضاهما، ولهذا لا يرى في مسألة أقوالا للعلماء إلا وقد أفتى بأبلغها موافقة للكتاب والسنة، وتحرى الأخذ بأقومها من جهة المنقول والمعقول، ولمّا منَّ الله عليه بذلك جعله حجة في عصره لأهله، حتى إن أهل البلد البعيد عنه كانوا يرسلون إليه بالاستفتاء عن وقائعهم، ويعوّلون عليه في كشف ما التبس عليهم حكمه، فيشفي غلتهم بأجوبته المسددة، ويبرهن على الحق من أقوال العلماء المقيدة، حتى إذا وقف عليها كل محق ذو بصيرة وتقوى - ممن قد وُفق لترك الهوى - أذعن بقبولها، وبان له حق مدلولها[٢]».

وقد ذكر له تلميذه ابن عبدالهادي من الكتب ما يزيد على الستين، ومن الرسائل ما يزيد على العشرين، ومن المسائل ما يزيد على العشر، ومن الأجوبة ما يزيد على الأربعين، ومن شروح الحديث والآثار ما يزيد على العشرين، ومن القواعد ما يزيد على المائة والستين قاعدة.

---

(١) قال السيوطي: ألف وثلاثمائة مجلدة. وقال ابن العماد في (شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المصدر السابق، ج٥ - ص٨٤): قال الذهبي في عدّ مصنفاته المجودة: وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدة.

(٢) البزار - الأعلام العلية - المصدر السابق - ص٧٠.

وقال: «وله قواعد كثيرة في فروع الفقه لم تبيض بعد، ولو بيضت كانت مجلدات عدة، وقد جمع بعض أصحابه قطعة كبيرة من فتاويه الفروعية وبوبها على أبواب الفقه في مجلدات كثيرة تعرف بـ (الفتاوى المصرية) سماها بعضهم: (الدرر المضية من فتاوى ابن تيمية).

ومن مؤلفاته: رسائل للملوك، ملك مصر، وملك حماة، وغيرهما، ورسائل إلى الأمراء الكبار، ورسائل كثيرة كتبها إلى الصلحاء من إخوانه من مصر إلى دمشق، ومن دمشق إلى غيرها، ومن السجن شيء كثير يحتوي على مجلدات عدة...، وله من الكلام على مسائل العلو، والاستواء، والصفات الخبرية، وما يتعلق بذلك من الرد على الجهمية، والقدرية، والجبرية، وغيرهم من أهل الأهواء والبدع، ما يشتمل على مجلدات كثيرة، وله من الكلام على فروع الفقه والأجوبة المتعلقة بذلك شيء كثير، يشق إحصاؤه ويعسر ضبطه[١].

وقال الشيخ أبو عبدالله[٢]: «لو أراد الشيخ تقي الدين رحمه الله أو غيره حصرها ـ يعني مؤلفات الشيخ ـ لما قدروا؛ لأنه ما زال يكتب، وقد منَّ الله عليه بسرعة الكتابة، ويكتب من حفظه من غير نقل، وأخبرني غير

---

(١) ابن عبدالهادي ـ العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ـ المصدر السابق ـ ص٥١ ـ ٨٦.

(٢) قال ابن كثير في (البداية والنهاية: ج١٤، ص٢٨٧) عنه: «وفي يوم عرفة ـ وكان يوم السبت من سنة تسع وأربعين وسبعمائة ـ توفي الشيخ عبد الله بن رشيق المغربي، كاتب مصنفات شيخنا العلامة ابن تيمية، كان أبصر بخط الشيخ منه، إذا عزب شيء منه استخرجه أبو عبد الله هذا، وكان سريع الكتابة لا بأس به، ديّناً، عابداً، كثير التلاوة، حسن الصلاة، له عيال وعليه ديون، رحمه الله وغفر له.

واحد أنه كتب مجلداً لطيفاً في يوم، وكتب غير مرة أربعين ورقة في جلسة وأكثر.

وأحصيت ما كتبه وبيضه في يوم، فكان ثمان كراريس في مسألة من أشكل المسائل، وكان يكتب على السؤال الواحد مجلداً، وأما جواب يكتب فيه خمسين ورقة، وستين، وأربعين، وعشرين، فكثير[١].

وقد وصف عبد اللطيف محمد العبد مؤلفات الشيخ بأنها تتسم بما يلي:

١ ـ السهولة؛ وذلك بخلو مؤلفاته من الجفاف والتعقيد.

٢ ـ استقصاء مادة البحث من مصادر عديدة.

٣ ـ التركيز على الأصول؛ لمعرفته بمقاصد الشريعة.

٤ ـ قوة الاستدلال، مع حسن الاستشهاد بالكتاب والسنة.

٥ ـ فيضان الكتابة بالحيوية؛ لارتباطها بالحياة.

٦ ـ مخاطبة العقل، دون الثقة فيه ثقة مطلقة.

٧ ـ عدم التعصب؛ من أجل الوصول إلى الحقيقة.

٨ ـ النقد البناء؛ وذلك بفحص كل ما يقرأ فحصاً سليماً، وإدراك محاسنه وعيوبه[٢].

وقد جمع الشيخ عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد رحمهما الله كثيراً

---

(١) ابن عبدالهادي ـ العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ـ المصدر السابق ـ ص٨٠ ـ ٨١.

(٢) عبد اللطيف محمد العبد ـ دراسات في فكر ابن تيمية ـ القاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ص١٦.

من كتبه ورسائله في (مجموع الفتاوى)، وقال في مقدمته: «ولعظيم النفع بفتاويه، والثقة منها، واعتماد مبتغي الصواب عليها، فتشت من مختصراتها في بعض مكتبات نجد، والحجاز، والشام، وغيرها، فجمعت منها أكثر من ثلاثين مجلداً ورتبتها، وهو بدء[1]، وإلا فعسى الله سبحانه أن يقيّض لفتاويه من يجمعها من مشارق الأرض ومغاربها، ومن المكتبات التي لم نطلع عليها ويلحقه بما جمعته منها، فهو سبحانه المستعان.

وقد بلغ ما قمنا بحصره من أعمال ابن تيمية ـ في مختلف الفنون ـ ثلاثمائة وأربعة عشر مخطوطاً، في اثنتين وخمسين موضعاً. . .، ولا ندعي أن هذا كل ما للإمام من أعمال. . .، نشير إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر:

ـ ففي القرآن وعلومه:

مقدمة في أصول التفسير، التبيان في نزول القرآن، قاعدة في تحزيب القرآن، جواب أهل العلم في تفضيل آيات، تفسير سورة النور، تفسير المعوذتين، تفسير سورة الإخلاص، تفسير آيات أشكلت، قاعدة في البسملة. . .، وغير ذلك.

وفي الحديث وعلومه:

أسئلة في مصطلح الحديث، شرح حديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»، شرح حديث النزول، شرح حديث: «نزل القرآن على سبعة أحرف»، شرح حديث: «كان الله ولا شيء قبله»، شرح حديث:

(١) واستغرق عملهما حتى طباعته أكثر من ثلاثين عاما، ثم ألف ابنه محمد (المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية) يحوي عشر رسائل لم تطبع من قبل. (المداخل إلى آثار شيخ الإسلام ابن تيمية: ص٤٣).

«إني حرمت الظلم على نفسي»، مجموع أحاديث والكلام عليها. . .، وغير ذلك.

وفي العقيدة والرد على المتكلمين وغيرهم:

الإيمان الكبير، معجزات الأنبياء، آيات الصفات والأحاديث حولها، الرد على الفلاسفة. . .، وغير ذلك، رسالة في كلام الله، الجواب الباهر في زوّار المقابر، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، مسألة العلو، قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، منهاج السنة النبوية، الواسطية في العقيدة. . .، وغير ذلك.

وفي الفقه وأصوله:

أصول الفقه، رسالة في الاجتهاد، رسالة في أقوال الصحابة وحجيتها، رسالة في الصوم، رسالة في قنوت النساء، تحقيق الفرقان بين التطليق والأيمان، رسائل في الغضب واللقطة والمزارعة والوقف وغيرها، شرح العمدة في الفقه. . .، وغير ذلك.

وفي التصوف والسلوك والاجتماع:

الصوفية والفقراء، الحسنة والسيئة، مسألة في بعض أعمال الصوفية، قاعدة أمراض القلوب، رسالة في تحقيق التوكل، السياسة الشرعية، الرسالة التدمرية، رسالة في السماع والرقص والغناء. . .، وغير ذلك.

وفي المنطق والفلسفة:

نقض المنطق، الرد على المنطقيين، الصفدية، الرسالة العرشية.

٤ ـ ١ ـ ١٠: حفظ الله لعلومه ومؤلفاته:

قال عبد الله بن رشيق: «وكان يكتب الجواب، فإن حضر من يبيضه وإلا أخذ السائل خطه وذهب، ويكتب قواعد كثيرة في فنون من العلم؛

في الأصول، والفروع، والتفسير، وغير ذلك، فإن وجد من نقله من خطه، وإلا لم يشتهر ولم يعرف.

وربما أخذه بعض أصحابه فلا يقدر على نقله، ولا يرده إليه، فيذهب.

وكان كثيراً ما يقول: قد كتبت في كذا وفي كذا، ويُسأل عن الشيء فيقول: قد كتبت في هذا، فلا يدري أين هو، فيلتفت إلى أصحابه ويقول: «ردوا خطي، وأظهروه لينقل»، فمن حرصهم عليه لا يردونه، ومن عجزهم لا ينقلونه، فيذهب ولا يعرف اسمه!

فلهذه الأسباب وغيرها تعذر إحصاء ما كتبه وما صنفه، وما كفى هذا إلا أنه لما حبس، تفرق أتباعه، وتفرقت كتبه، وخوفوا أصحابه من أن يظهروا كتبه، ذهب كل أحد بما عنده وأخفاه، ولم يظهروا كتبه، فبقي هذا يهرب بما عنده، وهذا يبيعه أو يهبه، وهذا يخفيه ويودعه، حتى إن منهم من تُسرق كتبه، أو تجحد، فلا يستطيع أن يطلبها، ولا يقدر على تخليصها، فبدون هذا تتمزق الكتب والتصانيف.

ولولا أن الله تعالى لطف وأعان ومنّ وأنعم، وجرت العادة في حفظ أعيان كتبه وتصانيفه، لما أمكن لأحد أن يجمعها، ولقد رأيت من خرق العادة في حفظ كتبه وجمعها، وإصلاح ما فسد منها، ورد ما ذهب منها، ما لو ذكرته لكان عجبًا، يعلم به كل منصف، أن لله عناية به وبكلامه، لأنه يذبُّ عن سنة نبيه، تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين[(١)]».

قال ابن كثير: وفي يوم السبت السادس والعشرين منه، قلد قضاء

(١) ابن عبدالهادي ـ العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ـ المصدر السابق ـ ص٨١ ـ ٨٣.

العساكر المنصورة الشيخ فخر الدين ابن الصائغ عوضاً عن القاضي الحنفي، الذي كان مع النائب المنفصل، وذلك أنهم نقموا عليه إفتاءه الطنبغا بقتال الفخري، وفرح بولايته أصحاب الشيخ تقي الدين ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وذلك لأنه من أخص من صحبه قديماً وأخذ عنه فوائد كثيرة وعلوماً.

وفي يوم السبت ثالثة استدعى الفخريُّ القاضي الشافعي، وألح عليه في إحضار الكتب في سلة الحكم التي كانت أخذت من عند الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله من القلعة المنصورة، في أيام جلال الدين القزويني، فأحضرها القاضي بعد جهد ومدافعة، وخاف على نفسه منه، فقبضها منه الفخري بالقصر، وأذن له في الانصراف من عنده وهو متغضب عليه، وربما هم بعزله لممانعته إياها، وربما قال قائل: هذه فيها كلام يتعلق بمسألة الزيارة، فقال الفخري: كان الشيخ أعلم بالله وبرسوله منكم، واستبشر الفخري بإحضارها إليه، واستدعى بأخي الشيخ زين الدين عبد الرحمن، وبالشيخ شمس الدين عبدالرحمن ابن قيم الجوزية وكان له سعي مشكور فيها فهنأهما بإحضاره الكتب، وبيّت الكتب تلك الليلة في خزانته للتبرك، وصلى به الشيخ زين الدين ـ أخو الشيخ ـ صلاة المغرب بالقصر، وأكرمه الفخري إكراماً زائداً لمحبته الشيخ رحمه الله[١].

٤ ـ ١ ـ ١١: تلامذته:

كان ابن تيمية يدرس على مدار ستة وأربعين عاماً، ولهذا كثر تلاميذه كثرة فائقة؛ مع كثرة تنقلاته بين مصر والشام، وسعة علمه، وفصاحته وبيانه، واحترامه لتلاميذه، وإلقائه للدروس العامة في المجامع والمحافل

---

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٢٤٨.

والمساجد وغيرها، والدروس الخاصة لتلاميذه ومحبيه الذين لازموه أغلب أوقاته في مصر والشام[١] وغيرها.

ولو لم يكن لابن تيمية حسنة تذكر سوى تلامذته الأفذاذ الذين ربّاهم وغرسهم بيده، فحملوا علومه وفقهه ونصحه للأمة، وخلفوا لها تراثاً إسلامياً زاخراً في جوانب شتى، تتفيأ ظلاله على مر العصور، وتنهل من معينه الصافي على كرّ الدهور، فإذا كان هذا هو عطاء الغرس، فما الظن بالذي غرس وتعاهد زرعه حتى نما وأورق وازدهر وأثمر؟!

وكان في طليعة هؤلاء العلماء الربانيين، والقادة المصلحين؛ الإمام ابن القيم، والإمام الذهبي، والإمام ابن كثير، وغيرهم.

قال العلامة الحافظ ابن ناصر الدين في شرح بديعته، بعد ثناء جميل، وكلام طويل: حدّث عنه خلق؛ منهم: الذهبي، والبرزالي، وأبو الفتح ابن سيد الناس، وحدثنا عنه جماعة من شيوخنا الأكياس[٢].

٤ ـ ١ ـ ١٢: من أسلم على يديه:

لقد انتفع بعلوم الإمام، وهدى الله على يديه خلقاً كثيراً؛ منهم محمد إبراهيم بن داود الآمدي ثم الدمشقي، نزيل القاهرة، قال ابن حجر عنه: أسلم على يد الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وهو دون البلوغ، وصحبه إلى أن مات، وأخذ عن أصحابه[٣].

(١) عبدالعزيز بن محمد الخليفة ـ تفسير آيات أشكلت، لابن تيمية ـ الرياض ـ مكتبة الرشد ـ ص٤٩ ـ ٥٠.
(٢) ابن العماد ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ المصدر السابق ـ ج٥ ـ ص٨٤.
(٣) ابن العماد ـ المصدر السابق ـ ج٦ ـ ص٣٤٧.

ثانياً: النتائج المتعلقة بالسؤال الثاني وهو:

٤ ـ ٢ ـ ما مفهوم التربية عند الإمام ابن تيمية؟

٤ ـ ٢ ـ ١: رأي ابن تيمية في مفهوم التربية:

يظهر رأي ابن تيمية في مفهوم التربية من خلال مناقشته لمعنى قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦]، فقد بيّن ما له علاقة بمفهوم التربية وما ليس له علاقة بها مما يظن أن له علاقة بها؛ فقال رحمه الله: قد قيل في (رِبِّيُّونَ) هنا أنهم العلماء، فلما جعل هؤلاء هذا كلفظ الرباني، وعن ابن زيد هم الأتباع، كأنه جعلهم المربوبين والأول أصح من وجوه:

ـ **أحدها**: أن الربانيين عين الأحبار؛ وهم الذين يربون الناس، وهم أئمتهم في دينهم ولا يكون هؤلاء إلا قليلاً.

ـ **الثاني**: أن الأمر بالجهاد والصبر لا يختص بهم، وأصحاب الأنبياء لم يكونوا كلهم ربانيين، وإن كانوا قد أعطوا علماً ومعهم الخوف من الله عزّ وجلّ[1].

ـ **الثالث**: أن استعمال لفظ الرباني في هذا ليس معروفاً في اللغة.

ـ **الرابع**: أن استعمال لفظ الربي فى هذا ليس معروفاً في اللغة، بل المعروف فيها هو الأول، والذين قالوه، قالوا: هو نسبة للرب بلا نون، والقراءة المشهورة ربِّي

---

(١) فرّق هنا ـ رحمه الله ـ بين المربي والعالم أو المؤمن، فلا تلازم بين هذه المعاني، فالمربي لا يكون إلا عالماً بما يقوم به من التربية، وليس كل من كان معه علم أو خشية من الله يكون مربياً.

بالكسر، وما قالوه إنما يتوجه على من قرأه بنصب الراء، وقد قرىء بالضم، فعلم أنها لغات.

ـ **الخامس**: أن الله تعالى يأمر بالصبر والثبات كل من يأمره بالجهاد، سواء كان من الربانيين أو لم يكن.

ـ **السادس**: أنه لا مناسبة في تخصيص هؤلاء بالذكر، وإنما المناسب ذكرهم في مثل قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٦٣] الآية، وفي قوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ [آل عمران: ٧٩] فهناك ذكرهم به مناسباً.

ـ **السابع**: قيل: إن الرباني منسوب إلى الربّ، فزيادة الألف والنون كاللحياني، وقيل: إلى تربيته الناس.

ـ وقيل: إلى ربان السفينة، وهذا أصح؛ فإن الأصل عدم الزيادة في النسبة، لأنهم منسوبون إلى التربية، وهذه تختص بهم، وأما نسبتهم إلى الرب فلا اختصاص لهم بذلك، بل كل عبد له فهو منسوب إليه؛ إما نسبة عموم أو خصوص، ولم يسم الله أولياءه المتقين ربانيين، ولا سمى به رسله وأنبياءه، فإن الرباني من يرب الناس كما يرب الرباني السفينة، ولهذا كان الربانيون يذمون تارة ويمدحون أخرى، ولو كانوا منسوبين إلى الرب لم يذموا قط، ـ وهذا هو الوجه **الثامن**: أنها إن جعلت مدحاً، فقد ذموا في مواضع وإن لم تكن مدحاً لم يكن لهم خاصة يمتازون بها من جهة المدح، وإذا كان منسوبا إلى رباني السفينة بطل قول من يجعل الرباني منسوباً إلى الرب، فنسبة الربيون إلى الربّ أولى بالبطلان.

ـ **التاسع**: أنه إذا قدر أنهم منسوبون إلى الرب، فلا تدل النسبة على أنهم علماء، نعم تدل على إيمان وعبادة وتأله، وهذا يعم جميع المؤمنين، فكل من عبد الله وحده لا يشرك به شيئاً فهو متأله عارف بالله،

والصحابة كلهم كذلك، ولم يسموا ربانيين ولا ربيون، وإنما جاء أن ابن الحنفية قال لما مات ابن عباس: اليوم مات ربانيُّ هذه الأمة، وذلك لكونه يؤدبهم بما آتاه الله من العلم.

والخلفاء أفضل منهم ولم يسموا ربانيين - وإن كانوا هم الربانيين - وقال إبراهيم: كان علقمة من الربانيين، ولهذا قال مجاهد: هم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره، فهم أهل الأمر والنهي، والأحبار يدخل فيه من أخبر بالعلم ورواه عن غيره وحدث به وإن لم يأمر أو ينه، وذلك هو المنقول عن السلف في الرباني، نقل عن علي قال: هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها، وعن ابن عباس قال: هم الفقهاء المعلمون.

قلت: أهل الأمر والنهي هم الفقهاء المعلمون.

وقال قتادة وعطاء: هم الفقهاء العلماء الحكماء.

قال إبن قتيبة: واحدهم رباني، وهم العلماء المعلمون.

قال أبو عبيد: أحسب الكلمة عبرانية أو سريانية؛ وذلك أن أبا عبيد زعم أن العرب لا تعرف الربانيين.

قلت: اللفظة عربية منسوبة إلى ربان السفينة الذي ينزلها ويقوم لمصلحتها، ولكن العرب فى جاهليتهم لم يكن لهم ربانيون، لأنهم لم يكونوا على شريعة منزلة من الله عزّ وجلّ"[١].

يظهر مما سبق أن المعاني التي يدور عليها مفهوم التربية عند الإمام هي:

---

(١) ابن تيمية - مجموع الفتاوى - المرجع السابق - ج١ - ص٦٢ - ٦٤.

١ ـ لابد في التربية من العلم، فالمربي يجب أن يكون عالماً بما يربي به.

٢ ـ عاملاً بما يربي الناس عليه.

٣ ـ مختاراً الأسلوب الأمثل في تربيته.

٤ ـ عارفاً بأحوال من يربيه.

وهذا مستفاد من قوله: «هم الذين يربون الناس، وهم أئمتهم في دينهم، ولا يكون هؤلاء إلا قليلاً».

ويؤكد نحو هذا المعنى الإمام القرطبي فيقول: «فمعنى الرباني؛ العالم بدين الرَّبّ؛ الذي يعمل بعلمه، لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم[1]».

٥ ـ تدبير أمور الناس وإصلاحهم وتزكيتهم.

وهذا مستفاد من قوله: «فإن الرباني من يربُّ الناس كما يربُّ الرَّبَّانيُّ السفينة، ولهذا كان الربانيون يذمون تارة، ويمدحون أخرى. . .، اللفظة عربية منسوبة إلى ربان السفينة الذى ينزلها ويقوم لمصلحتها، ولكن العرب في جاهليتهم لم يكن لهم ربانيون، لأنهم لم يكونوا على شريعة منزلة من الله عزّ وجلّ».

ويؤكد نحو هذا المعنى الإمام القرطبي ـ أيضاً ـ فيقول: «الرباني الذي يجمع إلى العلم البصر بالسياسة؛ مأخوذ من قول العرب: ربَّ أمر الناس يَربُّه؛ إذا أصلحه وقام به، فهو رابٌّ وربانيّ، على التكثير[2]».

(١) القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ـ المصدر السابق ـ ج٤ ـ ص١٣٠.

(٢) القرطبي ـ المصدر السابق ـ ج٤ ـ ص١٣٠.

٦ ـ تأديب الناس وتنمية قدراتهم في مختلف الجوانب شيئاً فشيئا.

وهذا مستفاد من قوله: «إن ابن الحنفية قال لما مات ابن عباس: اليوم مات ربانيُّ هذه الأمة، وذلك لكونه يؤدبهم بما آتاه الله من العلم...، ولهذا قال مجاهد: «هم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره، فهم أهل الأمر والنهي...»، نقل عن عليّ قال: «هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها».

ومن تأمل أصول كلمة (التربية) ومشتقاتها في كتب التفسير والمعاجم اللغوية و كتب اللغة وغيرها، يجد أنها تدور حول المعاني السابقة، وبيان ذلك ما يأتي:

٤ ـ ٢ ـ ٢: التربية لغةً:

أولاً ـ الأصول اللغوية لكلمة التربية:

إن من تتبع جذر كلمة (التربية) في كتب اللُّغة، يجد أن لها أصولاً متعددة؛ فقد قال ابن فارس:

ربّ: الراء والباء يدل على أُصول: ـ

فالأول: إصلاح الشيءِ والقيام عليه، فالرّبُّ: المالك، والخالق، والصاحب.

والرَّبُّ: المصلِحُ للشيء، يقال: رَبَّ فلان ضَيْعَته، إذا قام على إصلاحها، وهذا سقاء مربُوبٌ بالرُّبّ، والرُّبّ للعنب وغيره، لأنه يُرَبُّ به الشيء، وفرس مربوب، قال سلامة:

لَيسَ بأسْفى ولا أقْنَى ولا سَغِلٍ   يُسْقَى دَواءَ قَفِيّ السَّكْنِ مَرْبُوبِ

والرّبُّ: المصلِح للشيء، والله جل ثناؤه الرَّبُّ، لأنه مصلح أحوالِ خلقه.

والرّبّيُّ: العارف بالرَّب.

وربَبْتُ الصبي أرُبُّه، وَرَبَّبْتُه أرَبّبه؛ والرَّبِيبة الحاضنة، ورَبيبُ الرجل: ابن امرأته، والرَّابُّ: الذي يقوم على أمر الرَّبيب، وفي الحديث[1]: (يكرهُ أن يتزوج الرجل امرأةَ رابِّهِ).

والأصل الآخر: لزوم الشيءِ والإقامةُ عليه، وهو مناسب للأصل الأول؛ يقال: أربَّت السحابة بهذه البلدة، إذا دامت، وأرض مَرَبٌّ: لا يزال بها مطر، ولذلك سُمّي السحاب رَباباً؛ ويقال: الرَّباب السحاب المتعلق دون السحاب، يكون أبيض ويكون أسود، الواحدة رَبابة.

ومن الباب الشاة الرُّبَّى: التي تُحتبس في البيت للبنِ، فقد أربَّتْ إذا لازمت البيت؛ ويقال هي التي وَضَعَت حديثاً، فإن كان كذا فهي التي تُربّي ولدها، وهو من الباب الأول.

ويقال الإرباب: الدنوّ من الشيء، ويقال أربَّت الناقة، إذا لزمت الفحل وأحبته، وهي مُرِبٌّ.

والأصل الثالث: ضم الشيء للشيء، وهو أيضاً مناسب لما قبله، ومتى أُنْعِمَ النظر كان الباب كله قياساً واحداً؛ يقال للخرقة التي يجعل فيها القِدَاح ربابَةٌ، قال الهذلي:

وكأنّهُنَّ رِبابَةٌ وكأنه ... يَسَرٌ يُفيِضُ على القِداح وَيَصْدَعُ

ومن هذا الرّبابة، وهو العهد، يقال: للمعَاهدين أَرِبَّةٌ، قال:

كانت أرِبَّتَهُم بَهْزٌ وغَرَّهُمُ ... عَقْدُ الجِوارِ وكانوا معشراً غُدُرا

وسُمّي العهد رِبابة لأنه يجمع ويؤلف؛ فأما قول علقمة:

(١) نسبه في النهاية: ج٢/ ص١٦٧، إلى مجاهد من قوله.

وكنتُ أمرأً أفْضَتْ إليكَ رِبَابَتِي وقبلك رَبَّتْنِي فضِعْتُ رُبُوبُ

فإن الربابة، العهد الذي ذكرناه، وأما الرُّبُوب فجمع رَبّ، وهو الباب الأول.

وحدثنا أبو الحسن علي بن إبراهيم، عن علي بن عبد العزيز، عن أبي عبيد، قال: الرّباب: العُشور، قال أبو ذُؤيب:

تَوَصَّلُ بالرُّكْبَانِ حِيناً وتُؤْلِفُ الـ جِوارَ وتُغْشِيها الأمانَ رِبابُها

وممكن أن يكون هذا إنما سُمّي رِباباً لأنه إذا أخذ فهو يصير كالعهد.

ومما يشذ عن هذه الأصول الرّبْرَب: القطيع من بقر الوحش، وقد يجوز أن يضم إلى الباب الثالث، فيقال إنما سُمّي ربرباً لتجمعه، كما قلنا في اشتقاق الرّبابة.

ومن الباب الثالث الرَّبَب، وهو الماء الكثير، سمّي بذلكَ لاجتماعه، قال:

والبُرَّة السمراء والماء الرَّبَبْ[1].

وقال عبدالرحمن الباني: تعود كلمة (التربية) إلى أصول لغوية ثلاثة هي:

(ربا)، و(رَبِيَ)، و(رَبَّ).

فالأصل الأول: رَبا، يَرْبو: بمعنى نما، ينمو.

والأصل الثاني: رَبِيَ، يَرْبَى - بوزن خفِي يخفَى - ومعناه نشأ وترعرع

(١) ابن فارس - معجم مقاييس اللُّغة - بيروت - دار إحياء التراث العربي - ٢٠٠١م - ص٣٧٨.

والأصل الثالث: ربَّ...، يَرُبُ..؛ بمعنى أصلحه وتولى أمره، وساسه، وقام عليه، ورعاه[١].

وقال سلمان خلف الله: التربية في اللُّغة مصدر للفعل (ربّى) الرباعي، وجاء مصدره على وزن تفعِلة لأنه معتل على وزن فَعّل، كما نقول في الفعل: زكّى تزكية[٢].

ثانيا ـ المعاني اللغوية لكلمة التربية ومشتقّاتها:

لقد توصل الباحث من خلال بحثه في المعاجم اللُّغوية؛ مثل: (لسان العرب)[٣]، و(مختار الصحاح)[٤]، و(المعجم الوسيط)[٥]وكتب غريب الحديث؛ كـ(النهاية)[٦]، وغيرها من كتب اللُّغة والتفسير، إلى أن لفظ التربية وما اشتق منه ورجع إليه يدور حول المعاني التالية:

---

(١) عبد الرحمن الباني ـ مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام ـ الرياض ـ المكتب الإسلامي ـ ط٢ ـ ص٧.

(٢) سلمان خلف الله ـ منهج النبي ﷺ في التعامل مع الناشئة ـ عمّان ـ بيت الأفكار الدولية ـ ص٢٣.

(٣) ابن منظور ـ لسان العرب ـ بيروت ـ دار إحياء التراث العربي ـ مؤسسة التاريخ العربي ـ ١٩٩٥م ـ ج٥ ـ ص٩٤ ـ ١٠٢، وص١٢٦ ـ ١٢٨.

(٤) محمد بن أبي بكر الرازي ـ تحقيق: شهاب الدين أبي عمر ـ ترتيب: محمود خاطر ـ ترتيب مختار الصحاح ـ مكة ـ المكتبة التجارية، مصطفى أحمد الباز ـ بلا تاريخ ـ ص٢٨٧ ـ ٢٨٨ و ٢٩١

(٥) إبراهيم أنيس وآخرون ـ المعجم الوسيط ـ بلا مكان ـ دار إحياء التراث العربي ـ ج١ ـ ص٣٢٠.٣٢١.

(٦) المبارك بن محمد بن الأثير الجزري ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ ١٩٩٧م ـ ج٢ ـ ص١٦٥ ـ ١٦٧ و ص١٧٦.

أ ـ السياسة:

ففي لسان العرب مادة (ربب): رَبَبْتُ القوم: سُسْتُهم أي كنت فوقهم[١].

ب ـ الإصلاح والمتانة والتطييب:

ففي اللسان: رَبَبْتُ الأمر، أَرُبُّه رَبّاً ورِبابةً: أَصلحته ومتنْته.

ورَبَبْتُ الدهن: طيبته وأَجدته؛ وقال اللحياني: رَبَبْتُ الدهن: غَذَوْتُه بالياسمِينِ أَو بعض الرياحِينِ؛ قال: ويجوز فيه رَبَّبْتُه.

ودهن مُرَبَّبٌ إِذا رُبِّبَ الحب الذي اتُّخذ منه بالطيب، وسقاء مَرْبُوبٌ إِذا رَبَبْته أَي جعلت فيه الرُّبَّ، وأَصلَحته به.

والرَّبِيبةُ: الحاضِنة؛ قال ثعلب: لأَنَّها تصلح الشيء، وتقُوم به، وتجمعه.

قال ابن حجر: «ربيبتي» أي بنت زوجتي، مشتقة من الرب، وهو الإصلاح، لأنه يقوم بأمرها، وقيل: من التربية، وهو غلط من جهة الاشتقاق[٢].

ج ـ الدنّو والقرب والملازمة والمداومة:

ففي اللسان: والإِربابُ: الدُّنوُّ مِن كل شيءٍ.

---

(١) قال عبدالرحمن الباني في (مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام) ـ المرجع السابق ـ ص١٠: قد استعملت كلمة (سياسة) بمعنى: التدبير، ورعاية، وتربية، من قديم؛ فهناك كتاب (سياسة الصبيان وتدبيرهم) وهو خاص بطب الأطفال، من تأليف الطبيب المشهور: ابن الجزّار القيرواني المتوفى سنة ٣٦٩هـ.

(٢) ابن حجر ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ ج٩ ـ ص١٧٩.

ومَرَبّ الإِبل: حيث لَزمته، وأَرَبَّت الإبل بمكان كذا: لَزمته وأَقَامت به، فهي إبل مَرابٌ، لوازم، ورَبَّ بالمكان، وأَرَبَّ: لَزمه.

وفي المعجم الوسيط: (أربّت) الريح: دامت، وأربّت السحابة: دام مطرها.

والرَّبِيبَةُ: واحِدةَ الرَّبائِب من الغنم التي يُرَبّيها الناس في البيوت لألبانها، وغنم ربائِبُ: تربط قَريباً مِن البيوت، وتعلف لا تُسام، واحدتها رَبِيبَة، بمعنى مَرْبُوبَةٍ، لأن صاحبها يَرُبُّها. وفي حديث عائشةرضي الله عنها: «كان لها جِيران من الأَنصار لهم رَبَائب، وكانوا يبعثون إِلينا مِن أَلبانها[1]».

د ـ التجميع:

ففي اللسان: السحاب يَرُبُّ المطَر أَي يَجمعه وينمِيه، والمَرَبُّ: المحل، ومكان الإقامة والاجتماعِ، والتَّرَبُّبُ: الاجتماع، ومكان مَرَبٌّ، بالفتح: مَجْمَعٌ؛ يَجمع الناس، وفلان مَرَبٌّ؛ أَي مَجمع يَرُبُّ الناس ويَجمعهم.

وفي المعجم الوسيط: (تربب) القوم: تجمّعوا.

هـ ـ التنمية والزيادة والإتمام والإصلاح:

ففي اللسان عن اللحياني: ورَبَّ المعروف والصَّنيعةَ والنعمة يربُّها رَبّاً ورباباً ورِبانةً، ورَبَّبها: نماها، وزادها، وأَتمها، وأَصلَحها، ورَبَبْتُ قَرابته: كذلك.

أَبو عمرو: رَبْرَبَ الرجل، إِذا ربّى يتيماً.

---

(١) البخاري: ٢٥٦٧ و ٦٤٥٨ و ٦٤٥٩، ومسلم: ٢٩٧٢، وابن ماجه: ٤١٤٥.

رَبا الشيء يَرْبُو رُبُوّاً ورِباءً: زاد ونما، وأَرْبَيْته: نميته، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

قال ابن كثير: قريء بضم الياء والتخفيف؛ من ربا الشيء يربو، وأرباه يربيه؛ أي كثّره ورعاه: ينميه، وقرىء يُربّي بالضم والتشديد من التربية، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **(من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه، حتى يكون مثل الجبل)**[1]. ومنه أُخذ الرِّبا الحرام؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩][2].

ورَبا السويق ونحوه رُبُوًّا: صُب عليه الماء فانْتَفَخ، وقوله عزّ وجلّ في صفةِ الأرضِ: ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]؛ قيل: معناه عَظُمت وانتفخت[3].

وقرىء: (ورَبأَتْ)، فمن قرأ: (ورَبَتْ) فهو رَبا يَرْبُو إذا زاد، على أي الجهاتِ زاد، ومن قرأ: (ورَبأَتْ) بالهمز فمعناه ارتفعت.

وسابَّ فلان فلاناً، فأَرْبى عليه في السِّباب؛ إذا زاد عليه، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ١٠]؛ أَي أَخذة تزيد على الأَخَذات؛

---

(١) البخاري: ١٤١٠، ومسلم: ١٠١٤.

(٢) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ الجبيل ـ دار الصدّيق، وبيروت ـ مؤسسة الريان ـ ج١ ـ ص٤٥٦.

(٣) قال في المعجم الوسيط: لما يتداخلها من الماء والنبات، وربا علا وارتفع، والفرس: انتفخ من عدو أو فزع، والجرح: ورِم، وربا في البيت وفي بني فلان: نشأ، وربا: أصابه الربو، وربا الرابية ونحوها علاها.

قال الجوهري: أي زائدة؛ كقولك: أَرْبَيْت؛ إِذا أَخذت أَكثر مما أَعْطَيت.

قال ابن فارس: ربي، ربأ: الراء والباء والحرف المعتلّ وكذلك المهموز منه يدل على أصل واحد، وهو الزيادة والنماء والعلو، تقول: ربا الشيء يربُو، إذا زاد، وَرَبا الرّابية يَربُوها، إذا علاها؛ وَرَبَا: أصابه الرَّبْو، وَالرَّبْو: علوُّ النَّفَسِ، قال:

حَتَّى عَلَا رأسَ يَفاعٍ فَرَبَا رفَّهَ عن أنفاسِها وما رَبَا

أي رَبَاهَا وما أصابه الرَّبو.

وَالرَّبوة، وَالرُّبْوة: المكان المرتفع، ويقال أَرْبَت الحنطة: زكت، وهي تُرْبِي، وَالرّبْوة بمعنى الرَّبْوة أيضاً.

ويقال ربَّيْتُهُ وَترَبَّيْتُه، إذا غذوته، وهذا مما يكون على معنيين:

أحدهما: مِن الذي ذكرناه، لأنه إذا رُبّي نما وزكا وزاد.

والمعنى الآخر: مِن ربّيته من التّربيب، ويجوز (أن يكون أصل) إحدى الباءات ياء، والوجهان جيدان[1].

و ـ الحفظ والرعاية والمداراة والولاية والكفالة وحسن القيام:

ففي اللسان عن اللحياني: ورَبَّ ولَده والصبي، يَرُبُّه رَبّاً، ورَبَّبَه تَرْبِيباً وتَربَّةً: بمعنى رَبَّاه، وفي الحديث: (لك نِعْمَةٌ تَرُبُّها)[2]، أي تحفظها وتراعيها وتُرَبِّيها، كما يُرَبِّي الرجل ولده.

---

(١) ابن فارس ـ معجم مقاييس اللغة ـ المصدر السابق ـ ص٤١٩ و ٤٢٠.

(٢) مسلم: ٦٥٤٩.

وفي حديث ابن ذي يزن:

أَسْـدٌ تُـرَبِّـبُ فـي الـغَـيْـضـات أَشْبـالا

أُي تُرَبِّي، وهو أَبلغ منه ومن تَرُبُّ، بالتكرير الذي فيه.

وتَرَبَّبَه، وارْتَبَّه، ورَبَّاه تَرْبِيةً، على تحويل التضعيف، وتَرَبَّاه، على تحويل التضعيف أَيضاً أَحسن القيام عليه، ووَلِيَه حتى يُفارق الطفولية، كان ابنه أو لم يكن؛ وأَنشد اللحياني:

تُـرَبِّـبُـهُ مـن آلِ دُودانَ، شَـلّـةٌ تَـرِبَّـةَ أُمٍّ، لا تُـضـيـعُ سِـخَـالَـهـا

والصبِي مَرْبُوبٌ ورَبِيبٌ، وكذلك الفرس؛ والمَرْبُوب: المُرَبَّى.

وقول حسان بن ثابت:

ولأَنْـتِ أَحـسـنُ، إِذْ بَـرَزْتِ لـنـا يَـوْمَ الـخُـروج، بِـسـاحـةِ الـقَـصْـرِ

مِـن دُرَّةٍ بَـيْـضَـاءَ، صـافِـيـةٍ مِـمَّـا تَـرَبَّـب حـائـرُ الـبـحـرِ

يعني الدرة التي يُرَبِّيها الصدف في قعر الماء، والحائرُ: مُجْتَمع الماء، ورُفع لأَنَه فاعل تَرَبَّبَ، والهاء العائدة على مما محذوفة، تقديره مما تَرَبَّبَه حائرُ البحر. يقال: رَبَّبَه وتَرَبَّبَه بمعنى(١).

وفي المعجم الوسيط: (رَبّ) الولد ـ ربّاً: وليه وتعهده بما يغذيه وينميه ويؤدبه، فالفاعل رابٌّ، والمفعول مربوبٌ، وربيب، وهي بتاء. يعني: (ربيبة).

وفي مختار الصحاح: و(ربّ) ولده من باب ردّ، و(ربّبه)، و(تربّبه)

(١) قال عبدالرحمن الباني كما في مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام ـ المرجع السابق ـ ص٩: هذا معنى جميل ودقيق، يكشف مهمة التربية ومعناها؛ فهي العملية التي ترعى الشيء وتنمّيه ليبلغ غاية حسنه وكماله.

بمعنى؛ أي ربّاه. وفي النهاية: يقال: ربّ فلان يَرُبُّه ربّاً وربَّهب وربّاه، كله بمعنى واحد.

وفي اللسان: (الرَّاب كافل)، هو زوج أم اليتيم، وهو اسم فاعل؛ من ربَّه يربُّه: أي تكفل بأمره.

ز ـ أخذ الشيء بأوله وتجميعه وتنشئته شيئاً فشيئاً:

في اللسان: وأَخذ الشيء بِرُبَّانه، ورَبَّانِه؛ أي بأَوله، وقيل: برُبّانِه: بَجَمِيعه ولم يترك منه شيئاً.

وقد رَبَوْت في حِجره رُبُوًّا ورَبْواً؛ الأَخيرة عن اللحياني، وربِيت رباء ورُبِيّاً، كلاهما: نشأت فيهم، أنشد اللحياني لمسكين الدارمي:

ثلاثة أملاك ربَوْا في حُجُورِنا فهل قائل حقّاً كمن هو كاذب؟

هكذا رواه رَبَوْا على مثال غَزَوْا.

ابن الأعرابي: رَبيت في حجرِه ورَبَوْتُ ورَبِيتُ أَرْبَى رَباً ورُبُوًّا؛ وأَنشد:

فَمَنْ يكُ سائلاً عَنِّي فإِنِّي بِمَكَّة مَنْزِلي، وبِها رَبِيتُ

الأَصمعي: رَبَوْتُ في بني فلان أَرْبُو نَشَأْتُ فيهِم، ورَبَّيْتُ فلاناً أُرَبِّيه تَرْبِيَةً وتَرَبَّيْتُه ورَبَبْتُه ورَبَّبْته بمعنى واحد.

الجوهري: رَبَّيْته تَرْبِية وتَرَبَّيْته أَي غَذَوْتُهُ، قال: هذا لكل ما ينمى كالولد والزرع ونحوه.

وفي المعجم الوسيط[١]: (رَبى) في بني فلان، ربى رَبْوا، ورُبُوًّا: نشأ فيهم.

---

(١) إبراهيم أنيس وآخرون ـ المعجم الوسيط ـ المصدر السابق ـ ج١ ـ ص٣٢٦.

(ربّاه): نمّاه، وَرَبَّى فلانا: غذاه ونشأه، ونمّى قُواه الجسدية والعقلية والخلقية.

ويقال (تربّى): تنشَّأ وتغذّى وتثقّف.

ح - الحاجة والنعمة والإحسان:

في اللسان: والرُّبَّى: الحاجةُ؛ يقال: لي عند فلان رُبَّى.

والرُّبَّى: الرَّابَّةُ، والرُّبَّى: العقدة المحكمة، والرُّبَّى: النعمة والإِحسان.

ط - الربوبية:

ففي اللسان: (الرَّبُّ) هو الله عزَّ وجلَّ، هو ربُّ كل شيء، وله الرُّبوبيَّة على جميع الخلْق، لا شريك له، وهو رب الأرباب، ومالك الملوك والأملاك، ويطلَق في اللُّغة على المالِك، والسيِّد والمدبر، والمُرَبِّي، والقَيِّم، والمنعم، ويقال: فلان رَبُّ هذا الشيءِ؛ أَي مِلْكُه له، يقال: هو رَبُّ الدابَّة، وربُّ الدارِ، وفلان ربُّ البيت، وهن رَبَّاتُ الحِجالِ.

وكل من ملك شيئاً، فهو رَبُّه؛ أي مالكه ومُستحقّه، وقيل: صاحبه.

وفي حديث إِجابة المؤذنِ: (**اللهُمَّ رَبَّ هذه الدعوة**)[1] أي صاحِبها؛ وقيل: المتمم لها، والزائد في أهلها والعمل بها، والإِجابة لها.

وفي حديث أَشراط الساعة: (**وأَن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّها، أَو رَبَّتَها**)[2]، قال: وأَراد به في هذا الحديث المولى أو السيِّد، يعني أَن الأَمَةَ تلد

(١) البخاري: ٦١٤ و ٤٧١٩.
(٢) مسلم: ٨، وأبو داود: ٤٦٩٥، والترمذي: ٢٦١، وابن ماجه: ٦٣.

لسيدها ولَداً، فيكون كالمولى لها، لأنه في الحَسَب كأَبِيه، أراد: أن السبي يكثر، والنعمة تظهر في الناس، فتكثر السراري.

وقال امرؤ القيس:

فما قاتلُوا عن رَبِّهم ورَبِيبِهم ولا آذَنُوا جاراً، فَيَظْعَنَ سالِمَا

أي مَلكهم[1].

ورَبَّهُ يَرُبُّهُ رَبًّا: مَلَكه، وطالت مَرَبَّتُهم الناس، ورِبابَتُهم أي مملكتُهم؛ قال علقمةُ بن عَبَدَةَ:

كنتُ امْرَأً أَفْضَتْ إِليك رِبابَتِي وقَبْلَكَ رَبَّتْنِي فَضِعْتُ، رُبُوبُ

وإِنَّه لَمَرْبُوبٌ، بيِن الرُّبُوبةِ؛ أي لَمملوك، والعباد مَرْبُوبونَ لله عزَّ وجلَّ؛ أَي مملوكون.

ابن الأنباري: الرَّبُّ يَنْقَسِم على ثلاثة أَقسام: يكون الربُّ المالك، ويكون الربُّ السيِّد المطاع؛ قال الله تعالى: ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١]، أَي سيده؛ ويكون الربُّ المصلح؛ ربَّ الشيء إِذا أَصلَحَه؛ وأَنشد:

يَرُبُّ الذي يأْتي منَ العُرْفِ أَنه إِذا سُئِلَ المَعْرُوفَ، زاد وتَمَّمَا

وفي حديث ابن عباس مع ابن الزبير ﷺ: «لأن يَرُبَّني بنو عمي أحب إليّ من أن يَرُبَّنِي غيرهم؛ أَي يكونون علي أمراء وسادة متقدمين، يعني بني أميَّةَ، فإِنهم إِلى ابنِ عباس في النسب أَقْرب من ابن الزبير. يقال: رَبَّهُ يَرُبُّه أَي كان له رباً.

والرِّبِّيُّ والرَّبَّانِيُّ: الحَبْر، و رَبُّ العمل، وقيل: الرَّبَّانِيُّ الذي يعبد الربَّ، زيدت الألف والنون للمبالغة في النسب.

---

(١) وقد فُسر قَول امرِىء القيس: الرَّبِيب: بالمُعَاهَد.

قال ابن حجر[١]: والحاصل أنه اختلف في هذه النسبة: هل هي نسبة إلى الرُّبّ؟ أو إلى التربية، والتربية على هذا للعلم، وعلى ما حكاه البخاري: لتعلمه. والمراد بصغار العلم: ما وضح من مسائله، وبكباره: ما دق منها، وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده.

وقال ابن الأعرابي: لا يقال للعالم رباني حتى يكون عالماً معلِّماً عاملاً.

قال القرطبي رحمه الله: ولا يقال في غيره إلا بالإضافة، وقد قالوه في الجاهلية للملك؛ قال الحارث بن حِلِّزة:

وهو الرب والشهيد على يو م الحِيَارَيْن والبلاءُ بلاء

والرَّبُّ: السَّيِّد؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، والرَّبُّ: المصلح والمدبر والجابر والقائم، قال الهروي وغيره: يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه قد ربَّه يَربُّه، فهو رَبٌّ له ورابٌّ، ومنه سمي الربانيون، لقيامهم بالكتب.

والرَّبُّ: المعبود؛ ومنه قول الشاعر:

أربٌّ يبول الثُّعلبان برأسه لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالِبُ

ويقال على التكثير: رباه وربِبه وربّته، حكاه النحاس.

قال بعض العلماء: إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم، لكثرة دعوة الداعين به، وتأمل ذلك في القرآن، ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة

(١) ابن حجر ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري ـ المصدر السابق ـ ج١ ـ ص٢١٤.

بين الربّ والمربوب، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار في كل حال.

واختلف في اشتقاقه؛ فقيل: إنه مشتق من التربية، فالله سبحانه وتعالى مدبر لخلقه ومربيهم، فعلى أنه مدبر لخلقه ومربيهم يكون صفة فعل، وعلى أن الرّبّ بمعنى المالك والسيد يكون صفة ذات، ومتى أدخلت الألف واللام على رب اختص الله تعالى به؛ لأنها للعهد، وإن حذفتا منه صار مشتركاً بين الله وبين عباده؛ فيقال: الله رب العباد، وزيد رب الدار.

فالله سبحانه ربُّ الأرباب، يملك المالك والمملوك، وهو خالق ذلك ورازقه، وكل رب سواه غير خالق ولا رازق، وكل مملوك فمملك بعد أن لم يكن، ومنتزع ذلك من يده، وإنما يملك شيئاً دون شيء، وصفة الله تعالى مخالفة لهذه المعاني، فهذا الفرق بين صفة الخالق والمخلوقين[(١)].

قال المناوي: والرَّبُّ مصدر بمعنى التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، وصف به الفاعل مبالغة، وصف بالعدل، وقيل صفة مشبهة سمي به المالك لكونه يحفظ ما يملكه، ويربيه ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيداً؛ كربِّ الدار.

ثم إن ربوبيته تعالى بمعنى الخالقية والمالكية والمعبودية عامة، وبمعنى التربية والإصلاح خاصة، تتفاوت بسبب أنواع الموجودات، فهو

---

(١) القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ـ المصدر السابق ـ ج١ ـ ص١٥٢ ـ ١٥٤، بتصرف يسير.

مربي الأجساد بأنواع نعته، ومربي الأرواح بأصناف كرمه، ومربي نفوس العابدين بأحكام الشريعة، ومربي قلوب العارفين بآداب الطريقة، ومربي أسرار الأبرار بأنواع الحقيقة[١].

٤ ـ ٢ ـ ٣: بعض التعريفات التربوية الاصطلاحية:

لقد وقف الباحث على تعريفات كثيرة لمفهوم التربية، اختار من بينها ما يلي:

أولاً ـ التربية عند المسلمين:

لقد عرف علماء التربية المسلمون التربية بتعريفات متقاربة في أغلب الأحيان، ربما اختلفت في بعض الجوانب نظراً لاختلاف نظرات كل معرف؛ فمنها:

أ ـ التربية عملية التناول الواعي للإنسان وللجماعة لتنشئها على الإسلام، عقيدة وعبادة وسلوكاً، تنشئة علمية، وعملية فكرية، وسلوكية تتمثل في كل معطيات الإسلام، ومتغيرات العصر، ومتطلباته، واجتهاداته[٢].

ب ـ هي التنظيم النفسي والاجتماعي الذي يؤدي إلى اعتناق الإسلام وتطبيقه كليّاً في حياة الفرد والجماعة[٣].

---

(١) محمد عبدالرؤوف المناوي ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير ـ بيروت ـ دار الفكر ـ ١٩٩٦م ـ ج١ ـ ص٨٣.

(٢) المفاهيم العامة للتربية ـ نقلاً عن أحمد جمال ـ حمد إبراهيم ـ التعليم ورسالة التربية ـ الرياض ـ ص١٩.

(٣) التربية في الاصطلاح ـ نقلاً عن عبدالرحمن النحلاوي ـ سلمان خلف الله ـ منهج النبي ﷺ في التعامل مع الناشئة ـ المرجع السابق ـ ص٢٥.

ج ـ هي نظام تربوي متكامل يقوم كل جانب فيه على تعاليم الإسلام ومفاهيمه ومبادئه ومقاصده[١].

ثانياً ـ التربية عند المفكرين الغربيين والفلاسفة اليونانيين وغيرهم:

أ ـ جميل صليبا في (المعجم الفلسفي: ج١/ ص٢٦٦): هي تبليغ الشيء إلى كماله، أو هي كما يقول المحدَثون: تنمية الوظائف النفسية بالتمرين حتى تبلغ كمالها شيئاً فشيئاً.

تقول: ربّيت الولد، إذا قوّيت ملكاته، ونمّيت قدراته، وهذّبت سلوكه، حتى يصبح صالحاً للحياة في بيئة معينة.

وتقول: تربّى الرجل إذا أحكمته التجارب ونشّأ نفسه بنفسه.

ومن شروط التربية الصحيحة أن تنمي شخصية الطفل من الناحية الجسمية والعقلية والخلقية، حتى يصبح قادراً على مؤالفة الطبيعة، ويجاوز ذاته، ويعمل على إسعاد نفسه وإسعاد الناس، وتُعد التربية ظاهرة اجتماعية تخضع لما تخضع له الظواهر الأخرى في نموها وتطورها.

ب ـ أرسطو ـ وهو فيلسوف يوناني تتلمذ على أفلاطون ـ يقول: التربية إعداد العقل للتعليم كما تعدُّ الأرض للبذار.

ج ـ ستورات مل ـ وهو مفكر إنجليزي ـ يقول: تشمل التربية كل ما يعمله المرء لنفسه أو يعمله غيره له، بقصد تقريبه من درجة الكمال التي تمكنه طبيعته واستعداده من بلوغها.

د ـ بستالوت ـ وهو مربٍّ سويسري من رواد التربية في أوربا ـ يقول: التربية إعداد بني الإنسان للقيام بواجباتهم المختلفة في الحياة.

هـ ـ جون ديوي ـ وهو مربٍّ أمريكي ـ يقول: التربية هي العملية التي

---

(١) سلمان خلف الله ـ المرجع السابق ـ ص٢٥.

بها يعاد تكوين خبرة الفرد تكويناً يجعل لها قيمة اجتماعية كبيرة، وذلك عن طريق تجارب الفرد الشخصية نفسها التي تمكنه من ضبط قواه المختلفة والسيطرة عليها[١].

ثالثاً ـ تعريفات عامة للتربية:

أ ـ تنمية الوظائف الجسمية والعقلية والخلقية كي تبلغ كمالها عن طريق التدريب والتثقيف، وأنها علم يبحث في أصول هذه التنمية ومناهجها وعواملها الأساسية وأهدافها الكبرى.

ب ـ عملية تكوين للإنسان، يسعى إليه المربي بإثارة القدرات الكامنة لدى الطفل، ثم توجيهها توجيهاً سليما، وذلك باستخدام أفضل أساليب التربية والتعليم التي توصل إليها المربون[٢].

ج ـ عملية النمو التي يمر خلالها الإنسان من طفولته إلى نضجه، تدريجيّاً ليتكيف مع بيئته العضوية والاجتماعية[٣].

رابعاً ـ علم التربية أو البيداغوجيا[٤]:

إن موضوع البيداغوجيا كما أورده أوبير في كتابه (التربية العامة:

---

(١) عبدالرحمن الباني ـ مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام ـ المرجع السابق ذكره ـ ص١٧ ـ ١٨.

(٢) يوسف خاطر محمد ـ التربية الإيمانية والنفسية للأولاد في ضوء علم النفس والشريعة الإسلامية ـ دمشق ـ مطبعة نضر ـ ٢٠٠٢م ـ ص٤٣ ـ ٤٤.

(٣) المفاهيم العامة للتربية ـ نقلاً عن عبدالغني عبود ـ التربية ومشكلات المجتمع ـ القاهرة ـ دار الفكر العربي ـ ١٩٨٠م ـ محمد إبراهيم الريّس ـ التعليم ورسالة التربية ـ الدمام ـ ١٤٢٤هـ ـ ص١٩.

(٤) كلمة يونانية، تعني فن تربية الأولاد وتعليمهم؛ كما في (المنجد في اللُّغة والأعلام ـ مصدر سابق: ص٥٦).

ص٣٦)، هو: صياغة مذهب في التربية نظري وعملي في آن واحد ـ كالمذهب الأخلاقي الذي هو امتداد له ـ دون أن يكون المذهب علماً فحسب، أو صناعة فحسب، أو فلسفة، أو فناً، بل كل تلك مجتمعة منسقة تنسيقاً منطقياً(١).

٤ ـ ٢ ـ ٤: الخلاصة:

عند تأمل التعريفات السابقة نجد أن معنى التربية في اللُّغة والاصطلاح يدور حول معاني التربية السابق ذكرها، فنخلص إلى النتائج التالية:

أ ـ أن المربي الحق على الإطلاق هو الله تعالى؛ لأنه خالق كل شيء ومدبر أمره، ومتولي شؤونه، وإليه مرجعه، وهو خالق الفطرة والعقل، وواهب المواهب والنعم، وهو الذي سنّ سنناً لنموها وتدرجها وتفاعلها، كل بحسبه، ولهذا قال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣]، وقال موسى لفرعون: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، كما أنه شرع شرعاً لتحقيق كمالها وصلاحها وسعادتها في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦]، وهو الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، فلا بد للتربية بكل عناصرها أن تستضيء بنور الشريعة الإلهية، وتسير وفق أحكامها ومبادئها وأخلاقها ومتطلباتها.

---

(١) عبدالرحمن الباني ـ مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام ـ المرجع السابق ذكره ـ ص١٨.

وإذا كان المربي الحق هو الله تعالى، فإن أجل من يتربى على يديه من الخلق هم رسله ـ صلواته وسلامه عليهم ـ الذين تربوا بوحيه وتحت عنايته وحفظه، وقد سُئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خُلُقه القرآن[١]». أي يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويصدق أخباره، يؤمن بمتشابهه ويعمل بمحكمه، ثم ورثته من بعده، وهم العلماء الذين يحملون هديه علماً وعملاً، فيربون الناس بذلك، كما تقدم.

ب ـ أن التربية عملية هادفة، لها أغراضها وغايتها، فمن هنا لابد أن تكون لها خطط مبرمجة مدروسة لتحقيق تلك الغايات، لأن من معانيها السياسة، ولا بد للسياسة من تخطيط هادف مدروس.

ج ـ أن التربية عملية متدرجة يترتب بعضها على بعض، وينبني بعضها على بعض؛ فكل منها قائم على ما سبقه، يعد لما بعده من الأعمال التربوية والتعليمية، تسير وفق ترتيب منظم صاعد، ينتقل مع الناشئ من طور إلى طور، ومن مرحلة إلى مرحلة في كل شأن من الشؤون[٢]، لأن من معاني التربية المتانة والتطييب، والأخذ في الإصلاح شيئاً فشيئاً حتى يتم.

د ـ أن التربية ذات طابع شمولي، يعتني بجميع جوانب الحياة الروحية، والعقلية، والوجدانية، والأخلاقية، والجسمية، والاجتماعية، والإنسانية، والاقتصادية وغيرها، وفق معيار الاعتدال والتوازن ـ لا إفراط ولا تفريط ـ كما يدل عليه معنى التجميع والإتمام.

---

(١) أحمد، ومسلم، وأبو داود كما في صحيح الجامع: ج٢ ـ ص ٨٧٢ ـ حديث رقم: ٤٨١١.

(٢) عبدالرحمن الباني ـ مدخل إلي التربية في ضوء الإسلام ـ المرجع السابق ذكره ـ ص١٣.

هـ ـ أن كلمة (تربية) لما كانت مصدراً لفعل متعدٍّ بالتضعيف: (ربّى)، والفعل الثلاثي لازم: ربا ربوا بمعنى زاد ونما، فلابد من تصور من يقوم بعملية التربية؛ فنقول ـ مثلاً ـ: ربَّى الأبُ ولدَه: أي قام الأب بدور فعال في نمو ولده[١]، لأن من معاني التربية الرعاية، والمداراة، والولاية، والكفالة، وحسن القيام بالأمر.

و ـ أن التربية عملية مستمرة؛ فالمدة التي يحتاج إليها الإنسان في التربية تدوم بدوامه؛ لأنه لا يصبح كاملاً وإن طالت تربيته، فتراه يخطئ ويتعثر في سيره، ويقع في المشكلات من حين إلى آخر مهما حصّل من العلوم وتلقاه من التربية، ويبقى محتاجاً إلى المزيد منها، فالإنسان ـ كما قيل ـ: لا يزال متعلماً، فإذا قال: علمت فقد جهل، ولعل هذا هو سر قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤][٢]، لأن من معاني التربية الزيادة والإتمام والحاجة والمداومة والملازمة.

ز ـ أن التربية فيها معنى القرب والحنوّ والشفقة، فلهذا ينبغي للمربي أن يتحلَّى بقدر واسع من ذلك.

ح ـ لابد أن يراعى في التربية جانب المحبة والإحسان والحاجة والنعمة والفضل، ليحصل المزيد من العطاء للمتعلم المتربي، ويحصل في المقابل المزيد من الامتثال والطاعة والمتابعة، مع مزيد المحبة والإجلال للمربي.

ط ـ يمكن أن نخلص إلى تعريف عام شامل للتربية؛ وهو: **أن التربية**

---

(١) يوسف خطار ـ التربية الإيمانية والنفسية للأولاد في ضوء علم النفس والشريعة الإسلامية ـ المرجع السابق ـ ص٤٣.

(٢) يوسف خطار ـ المرجع السابق ـ ص٥٥.

عملية إحداث تغيير إيجابي متدرج مستمرّ ـ علماً وعملاً ـ في جميع جوانب حياة الإنسان، بما يعود عليه وعلى غيره بالنفع في دنياه وأخراه.

٤ ـ ٢ ـ ٥: كلمات قريبة من كلمة (تربية) منها[١]:

التزكية[٢]، التعليم، الهدى، التأديب، الرعاية؛ وتعني[٣]: الحفظ والحماية، التقويم، الائتمان، المراقبة، الملاحظة، مراعاة الحقوق، التكفل بأمور الغير.

٤ ـ ٢ ـ ٦: مفهوم الأساليب لغةً:

لما كانت التربية لابد لها من أهداف، ولابد لتلك الأهداف من أساليب ووسائل لبلوغها، «فالتربية لا توجد في فراغ، بل هي وعاء وأساليب وإجراءات ينقل بها تراث الأمة من الأجداد إلى الأحفاد، من الآباء إلى الأبناء، وبواسطتها تتقدم الحضارة عن طريق العلوم المتفجرة والمعارف المتزايدة، على نسق ينسجم مع نظرة الأمة في الحياة، كما تسهم التربية في تحليل المشكلات الاجتماعية المعاصرة، وتبلور لأجيال الشباب الحلول الفكرية السليمة بأسباب عملية رصينة، لتكون انطلاقات الشباب في المجتمع أصيلة غير مستوردة، ولا عرضية، بل نابعة من التراث، ومتكيِّفة مع الأحداث، على نسق يرضي طموح الشباب،

(١) كلمات قريبة من كلمة تربية ـ نقلاً عن عبدالرحمن الغامدي ـ سلمان خلف الله ـ منهج النبي ﷺ في التعامل مع الناشئة ـ المرجع السابق ـ ص٢٤.

(٢) التزكية: التربية وزناً ومعنًى، وهي من لوازمها كما وصف الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢].

(٣) مادة (رعى) ـ نقلاً عن ابن منظور ـ لسان العرب ـ المصدر سابق ـ سلمان خلف الله ـ منهج النبي ﷺ في التعامل مع الناشئة ـ المرجع السابق ـ ص٢٤.

ويضمن لهم هويتهم الإسلامية، ولأمتهم شخصيتها المستقلة، فيكون بذلك التغيّر الاجتماعي دائماً نحو الأفضل يتخطى الصعاب، ويدفع عنها الوقوع في الزلات والعثرات(١)».

لهذا كان لابد من التعرف على مفهوم الأساليب لغةً واصطلاحاً، ولقد وقف الباحث على معنيين ترجع إليهما كلمة أساليب في المعاجم اللُّغوية على ما يناسب مقام دراسته الحالية، وهما:

أ ـ الطريق الحسي، والطريق والمعنوي؛ وهو الرأي أو وجهة النظر.

ب ـ الفنّ في القول والعمل.

ففي لسان العرب مادة (سلب): كل طريق ممتد فهو أسلوب، والأسلوب الطريق والوجهُ والمَذهب؛ يقال أَنتم في أسلوب سُوءٍ، ويُجمع أسالِيب، والأسلوب الطريق تأخذ فيه.

الأُسْلوب بالضم الفَن؛ يقال أَخذ فلان في أَساليب من القول؛ أَي أَفانِين منه؛ وإِن أَنْفَه لفي أُسْلُوبٍ إِذا كان متكبراً؛ قال:

أُنُوفُهُمْ بالفَخْرِ في أُسْلُوبِ   وَشَعَرُ الأَسْتاهِ بالجَبُوبِ

يقول يتكبّرون وهم أَخِسّاء، كما يقال أَنْفٌ في السماءِ واسْتٌ في الماءِ(٢).

وفي مختار الصحاح: (س ل ب) سَلَبَ الشيء من باب نصر، والأسلوب الفن.

---

(١) محمد إبراهيم محمد الريّس ـ التعليم ورسالة التربية عرض وتحليل ـ المرجع السابق ـ ص٢٤.

(٢) ابن منظور ـ لسان العرب ـ المصدر السابق ـ ج٦ ـ ص٣١٩.

وفي المعجم الوسيط[١]: (الأُسلُوب): الطريق، يقال: سلكت أُسلوب فلان في كذا: طريقته ومذهبه، وأُسلوب: طريقة الكاتب في كتابته.

وأُسلوب: الفن، يقال: أخذنا في أساليب من القول: فنون متنوعة.

وفي المنجد[٢]: الأُسلوب (ج) أساليب: الطريق، الفن من القول أو العمل، الشموخ في الأنف، ومنه: أنفه في أُسلوب؛ أي لا يلتفت يمنة ولا يسرة يقال للمتكبر.

٤ ـ ٢ ـ ٧: معانٍ أخرى يطلق عليها لفظ الأسلوب ومشتقاته؛ منها:

ـ الاستلاب: وهو الاختلاس.

ـ السَّلب: هو السير الخفيف السريع.

ـ انسلب: أي أسرع في السير جدًّا.

ـ السلب: هو نزع الشيء من الغير على القهر؛ قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، وهو ـ أيضاً ـ الرجل السلوب، والناقة التي سُلب ولدها، وكل شيء على الإنسان من اللباس فهو سلب، والفعل: سلبته، أسلُبه، سلْباً؛ إذا أخذت سلبه؛ ومنه حديث أبي قتادة رضي الله عنه في غزوة حنين، قال: قال رسول الله ﷺ: **(من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سَلَبُه)**[٣]

(١) إبراهيم أنيس وآخرون ـ المعجم الوسيط ـ المصدر السابق ـ ج١ ـ ص٤٤١.
(٢) لم يذكر مؤلف ـ المنجد في اللُّغة والأعلام ـ بيروت ـ دار المشرق ـ ط٣٩ ـ ٢٠٠٢م ـ ص٣٤٣.
(٣) البخاري: ٣١٤٢، ومسلم: ١٧٥١، وأبو داود: ٢٧١٧، والترمذي: ١٥٦٢، وابن ماجه: ٢٨٣٧.

ـ الأسلوب: لعبة للأعراب أو فعلة يفعلونها بينهم.

ـ السِّلاب: ثوب أسود تلبسه المرأة في الحداد والحزن.

ـ السالب: في اللُّغة والطبيعة هو اتجاه مضاد للاتجاه الموجب، وفي البصريات: إشارة للدوران إلى جهة اليسار، وفي التصوير: ما يقع ظله في وضع معاكس لظل الشيء الأصلي وضوئه، وفي الكهرباء: إذا كان عدد الاكترونيات على سطح المادة أكثر من عدد البروتونات، وفي البكتيريا: الذي لا يؤكد وجود الميكروبات وهي سالبة(١).

٤ ـ ٢ ـ ٨: مفهوم الأساليب التربوية:

مما سبق يمكن القول بأن الأساليب التربوية هي: **الإجراءات التي يستخدمها المربي وغيره بهدف إحداث تغيير فيمن يربيه نحو الأفضل، بما يعود عليه وعلى غيره بالنفع في دينه أو دنياه.**

٤ ـ ٢ ـ ٩: الأساليب التربوية لا تنحصر:

إن الأساليب التربوية ـ كما مرّ ـ وسيلة لتحقيق الأهداف التربوية، ومن هنا فإن حكمها تبعاً لمقصدها، لأنها من قبيل الوسائل التي لها حكم المقاصد، وبالتالي فإن أمام المربي من الأساليب ما لا حصر له، وفي الأساليب التربوية النبوية، وما خلفه لنا سلفنا الصالح وأتباعهم من العلماء غنية وسلامة من آفات الأساليب المحدثة، ومما ينبه عليه هنا هو: أن هذه الأساليب يجب أن تكون مباحة جائزة، فإذا لم تكن كذلك لم يمكن استخدامها ولو كانت غايتها محمودة، إذ الغاية لا تبرر الوسيلة.

---

(١) عبد الله بن أحمد العلاف ـ كلنا دعاة ـ مكة المكرمة ـ مكتبة الطرفين ـ ص٧ ـ ٨، بتصرف.

قال محمد إبراهيم الريّس: وقد أجمع المربون بأنه لا توجد طريقة واحدة أو أسلوب معين يمكن استخدامه في كافة الدروس، بل إن لكل موضوع ما يناسبه تبعاً لظروف المعلم، ونوع المادة، وعدد الطلاب وقدراتهم واستعدادهم، وظروف البيئة نفسها...، إلى غير ذلك من الأمور التي تؤثر في سلوك المعلم أثناء التدريس، وتحدد مسار الدرس، ومن ثم الممارسات والإجراءات التي يقوم بها المعلم داخل الصف.

ومهما يكن الأمر فإن أفضل الأساليب على الإطلاق، تلك الطريقة وذلك الدرس الذي يبدأ بالطلاب وينتهي بهم، حيث تشدّ انتباه المتعلمين وتشوقهم للدرس، وتؤدي إلى التفاعل المشترك، وهذا يعني تحقيق أكبر قدر ممكن من أهداف الدرس بأبعاده الثلاثة؛ الوجداني، والمعرفي، والعلمي التطبيقي، وإن أسوأ الأساليب تلك الطريقة التي تعتمد على الإلقاء والتلقي فقط، بحيث يبقى الطالب مستمعاً، وعلى أية حال فإن نتائج التحصيل تتوقف على سلامة أسلوب المعلم وحسن تطبيقه وأدائه[١].

ثالثاً: النتائج المتعلقة بالسؤال الثالث وهو:

٤ ـ ٣ ـ ما الأساليب التربوية عند الإمام ابن تيميّة؟

إن مهمة المربي نقل الخير للناس وترغيبهم فيه بكل صوره ومعانيه، وتحذيرهم من الشر وخطره بكل أنواعه وأشكاله، وذلك يتطلب أساليب متعددة متنوعة، متزنة معتدلة كجناحي الطائر، تتناسب مع من يراد تربيته؛

(١) محمد إبراهيم الريّس ـ التعليم ورسالة التربية عرض وتحليل ـ المرجع السابق ـ ص٧٧.

من جهة سنه وثقافته، وميوله، ورغباته، وسلوكه، وتصرفاته، وأوضاعه في البيت والمدرسة، وطبيعة البيئة التي يعيش فيها، واستعداداته الفطرية والاجتماعية، وراحته وصحته النفسية، والمشاكل التي يعاني منها، لكي يستطيع على ضوء ذلك وضع خطة العمل المناسبة لحل مشكلاته، واختيار الأساليب التي تمكنه من تنشئته النشأة السليمة، فالبيئة ـ مثلاً ـ لها تأثير على نشأة المتعلم وما يجبل عليه من صفات.

يقول الإمام ابن تيمية حول حديث: **(من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن)**[١]: فيه أن سكنى الحاضرة يقتضي من كمال الإنسان في رقة القلب وغيرها ما لا تقتضيه سكنى البادية، فهذا الأصل موجب كون جنس الحاضرة أفضل من جنس البادية، وقد يتخلف المقتضي لمانع[٢].

فلابد من مراعاة الفروق الفردية، واختيار الأسلوب المناسب للموقف المناسب، وللشخص المناسب، في الوقت المناسب، للتمكن من الوصول إلى عقل المتعلم، واستغلال فرصة إقباله قبل إدباره، ومن ثم إحداث التغيير المطلوب.

---

(١) الألباني ـ صحيح الجامع ـ المصدر السابق .: ج٢ ـ ص١٠٧٩ ـ رقم: (٦٢٩٦).

(٢) المناوي ـ فيض القدير ـ المرجع السابق ـ ج٦ ـ ص١٨٩، وقال: (من سكن البادية جفا)؛ أي غلظ قلبه وقسا فلا يرق لمعروف؛ كبرٍّ وصلة رحم، لبعده عن العلماء، وقلة اختلاطه بالفضلاء، فصار طبعه طبع الوحش.

٤ ـ ٣ ـ ١: أهمية الأساليب التربوية المتعلقة بالجوانب العقلية والتعليمية والاجتماعية:

لما كانت الأساليب التربوية في (مجموع الفتاوى) كثيرة جدّاً، اقتصر الباحث في دراسته على بعض الأساليب التربوية التي تعنى بالجوانب الثلاثة الآتية؛ وهي:

أولاً: الأساليب التربوية التي تعنى بالجانب العقلي وتزكيته وتنميته، فإن الصواب أن العقل يزيد وينمو، ويمكن تطويره[١]، وللتربية الدور الأكبر في ذلك؛ لأنه من معانيها كما تقدم، وأيضاً فإن العقل أهم جانب من الجوانب الشخصية التي يجب على الإنسان عموماً والمربي خصوصاً أن يعتني بها ويحافظ عليها من كل ما يؤثر على وظيفتها.

ثانياً: الأساليب التربوية التي تعنى بالجانب التربوي والتعليمي، وذلك لأن التربية والتعليم صنوان لا غنى لأحدهما عن الآخر؛ فلا تربية بلا تعليم، ولا ثمرة لتعليم بلا تربية، فهما كوجهين لعملة واحدة، والإنسان عموماً، والمربي خصوصاً لا يستغني عن التربية؛ فهو مربٍّ لنفسه ولغيره ولابدّ، فقد قال ﷺ: **(كلكم راع، ومسؤول وكلكم مسؤول عن رعيته. . . .)**[٢]، وهو أيضاً يتربى بنفسه وبغيره، فإن من

---

(١) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى ـ ج١٠ ـ ص٧٢١. ٧٢٢: الصواب عند جماهير أهل السنة، وهو ظاهر مذهب أحمد ـ وهو أصح الروايتين عنه ـ وقول أكثر أصحابه: إن العلم والعقل ونحوهما يقبل الزيادة والنقصان، بل وكذلك الصفات التي تقوم بغير الحي؛ كالألوان والطعوم والأرواح. . .، له من المراتب ما بيْن أوله وآخره ما لا يضبطه العباد؛ كالشك ثم الظن ثم العلم ثم اليقين ومراتبه، وكذلك الهم والإرادة والعزم وغير ذلك.

(٢) البخاري: ٨٩٣ و ٢٤٠٩ و ٢٥٥٤ و ٢٥٥٨ و ٢٧٥١ و ٥١٨٨ و ٥٢٠٠ و ٧١٣٨، ومسلم: ١٨٢٩.

معاني التربية الاستمرارية والمداومة والملازمة، كما تقدم.

ثالثا: الأساليب التربوية التي تعنى بالجوانب الاجتماعية، إذ إن الإنسان عموماً ـ والمربي خصوصاً ـ لابد أن يعيش مع أناس يخالطهم ويشاركهم في ليله ونهاره، وسفره وإقامته، فكان لابد له من أساليب تربوية تمكنه من إحداث تغيير إيجابي فيمن يربيه، بل وفيمن يتعامل معه، أو يعيش معه، على حد التآخي؛ لقوله ﷺ: **(لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه من الخير)**[١]، فإن لم يمكنه العيش معهم على حد التآخي وإلا فحد التسالم؛ كما قال ﷺ: **(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، ....)**[٢]، فإن لم يمكنه ذلك وإلا فحد التعايش ـ وهو أضعفها ـ[٣].

ومن تأمل الوصايا العشر التي روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال فيها: «من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات»، وعن ابن عباس: «في الأنعام آيات محكمات هنَّ أمُّ الكتاب»، ثم قرأ الآيات[٤]، وجد أن فيها إشارة إلى ما ذكر أعلاه؛ فإنه

---

(١) البخاري: ١٣، ومسلم: ٤٥، والنسائي: ٥٠١٧، واللفظ له.

(٢) البخاري: ١٠ و ٦٤٨٤، ومسلم: ٤٠.

(٣) انظر (قواعد التعايش بين أهل الأديان عند شيخ الإسلام ابن تيمية) لمحمد خير العبود ـ الرياض ـ رمادي للنشر ـ ١٩٩٦م.

(٤) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ المصدر السابق ـ ج٢ ـ ص٢٥٧، والآيات هي: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا =

ختم الوصايا الخمس الأولى التي جماعها تربية العقل وتزكيته بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، كأنه يشير إلى أن هذه الأمور لا يتصور صدورها من عاقل، وختم الوصايا الأربع التي بعدها ـ وهي من قبيل معاملة الناس بالحسنى، الأقرب فالأقرب كل بحسبه ـ بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، كأنه يشير إلى أن الإنسان قد يغفل فيقع في بعض المذكورات، لكن يجب عليه إذا ذُكر أن يتذكر، وختم الوصية العاشرة والأخيرة بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، والتقوى جماع الخير كله، ولهذا ختم بها الوصايا التسع، وهي التربية علماً وعملاً على سبيل الله ومنهجه الذي وضعه للناس، باقتفاء سنة رسوله ﷺ وهدي صحابته رضي الله عنهم أجمعين.

وقد أشار الإمام ابن تيمية إلى نحو المعاني السابقة عندما ذكر الكبائر الثلاث المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان: ٦٨]، فقال رحمه الله: إن قوى الأفعال في النفس إما جذب وإما دفع، فالقوة الجاذبة الجالبة للملائم هي الشهوة وجنسها من المحبة والإرادة ونحو ذلك، والقوة الدافعة المانعة للمنافي هي الغضب، وجنسها من البغض والكراهة، وهذه القوة باعتبار القدر المشترك بين الإنسان والبهائم هي مطلق الشهوة والغضب، باعتبار ما يختص به الإنسان العقل والإيمان والقوى الروحانية المعترضة، فالكفر متعلق بالقوة العقلية الإيمانية، ولهذا لا يوصف به من لا تمييز له،

= وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

والقتل ناشىء عن القوة الغضبية وعدوان فيها، والزنى عن القوة الشهوانية، فالكفر اعتداء وفساد في القوة العقلية الإنسانية، وقتل النفس اعتداء وفساد في القوة الغضبية، والزنى اعتداء وفساد في القوة الشهوانية.

ومن وجه آخر ظاهر؛ أن الخلق خلقهم الله لعبادته، وقوام الشخص بجسده، وقوام النوع بالنكاح والنسل، فالكفر فساد المقصود الذي له خلقوا، وقتل النفس فساد النفوس الموجودة، والزنى فساد في المنتظر من النوع، فذاك إفساد الموجود، وذاك إفساد لما لم يوجد بمنزلة من أفسد مالاً موجودا، أو منع المنعقد أن يوجد، وإعدام الموجود أعظم فساداً، فلهذا كان الترتيب كذلك.

ومن وجه ثالث: أن الكفر فساد القلب والروح الذي هو ملك الجسد، والقتل إفساد للجسد الحامل له وإتلاف الموجود، وأما الزنى فهو فساد في صفة الوجود لا في أصله، لكن هذا يختص بالزنى، ومن هنا يتبين أن اللواط أعظم فساداً من الزنى.

فصل: وباعتبار القوى الثلاث، انقسمت الأمم التي هي أفضل الجنس الإنساني وهم: العرب، والروم، والفرس، فإن هذه الأمم هي التي ظهرت فيها الفضائل الإنسانية، وهم سكان وسط الأرض طولاً وعرضاً، فأما من سواهم كالسودان والترك ونحوهم فتبع، فغلب على العرب القوة العقلية النطقية، واشتق اسمها من وصفها؛ فقيل لهم عرب من الإعراب؛ وهو البيان والإظهار، وذلك خاصة القوة المنطقية، وغلب على الروم القوة الشهوية من الطعام والنكاح ونحوهما، واشتق اسمها فقيل لهم: الروم، فإنه يقال: «رُمت هذا، أرومه»، إذا طلبته واشتهيته، وغلب على الفرس القوة الغضبية من الدفع والمنع والاستعلاء والرياسة،

واشتق اسمها من ذلك فقيل: الفرس، كما يقال: «فرسه، يفرسه»، إذا قهره وغلبه.

ولهذا توجد هذه الصفات الثلاث على الأمم الثلاث حاضرتها وباديتها، ولهذا كانت العرب أفضل الأمم، وتليها الفرس؛ لأن القوة الدفعية أرفع، وتليها الروم.

فصل: وباعتبار هذه القوى كانت الفضائل ثلاثاً: فضيلة العقل، والعلم، والإيمان التي هي كمال القوة المنطقية، وفضيلة الشجاعة التي هي كمال القوة الغضبية، وكمال الشجاعة هو الحلم، كما قال النبي ﷺ: **(ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)**(١). والحلم والكرم ملزوزان في قرن، كما أن كمال القوة الشهوية العفة، فإذا كان الكريم عفيفاً والسخيّ حليماً اعتدل الأمر.

وفضيلة السخاء والجود التي هي كمال القوة الطلبية الحبّيّة، فإن السخاء يصدر عن اللِّين والسهولة ورطوبة الخلق، كما تصدر الشجاعة عن القوة والصعوبة ويبس الخلق، فالقوة الغضبية هي قوة النصر، والقوة الشهوية قوة الرزق، وهما المذكوران في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٤].

والرزق والنصر مقترنان في الكتاب والسنة وكلام الناس كثيراً.

وأما الفضيلة الرابعة التي يقال لها العدالة، فهي صفة منتظمة للثلاث، وهو الاعتدال فيها، وهذه الثلاث الأخيرات هي الأخلاق العلمية، كما جاء من حديث سعد لما قال فيه العبسي: (إنه لا يقسم

(١) البخاري: ٦١١٤، ومسلم: ٢٦٠٩.

بالسويّة، ولا يعدل في القضية، ولا يخرج في السرية)(١).

فصل: وباعتبار الثلاث كانت الأمم الثلاث: المسلمون، واليهود، والنصارى؛ فإن المسلمين فيهم العقل والعلم والاعتدال في الأمور، فإن معجزة نبيهم هي علم الله وكلامه، وهم الأمة الوسط، وأما اليهود فأضعفت القوة الشهوية فيهم، حتى حرم عليهم من المطاعم والملابس مالم يحرم على غيرهم، وأمروا من الشدة والقوة بما أمروا به، ومعاصيهم غالبها من باب القسوة والشدة لا من باب الشهوة، والنصارى أضعفت فيهم القوة الغضبية، فنهوا عن الانتقام والانتصار، ولم تضعف فيهم القوة الشهوية، فلم يحرم عليهم من المطاعم ما حرم على من قبلهم، بل أحل لهم بعض الذي حرم عليهم، وظهر فيهم من الأكل والشرب والشهوات مالم يظهر في اليهود، وفيهم من الرقة والرأفة والرحمة ما ليس في اليهود، فغالب معاصيهم من باب الشهوات لا من باب الغضب، وغالب طاعاتهم من باب النصر لا من باب الرزق(٢).

ولقد ابتدأ الباحث كل جانب من الجوانب الثلاثة بآراء الإمام ابن تيمية حول ما يتعلق بها من مباحث تعين على تصور الأسس التي بنى عليها، والمبادئ التي يعتني بها، والرؤى التي ينطلق منها، والتي تعتبر ضوابط لما استخدمه من أساليب.

٤ ـ ٣ ـ ٢: آراء الإمام ابن تيمية حول العقل:

أ ـ العقل عند الإمام ابن تيمية:

قال رحمه الله: «العقل في كتاب الله وسنة رسوله وكلام الصحابة

---

(١) البخاري: ٧٥٥ و ٧٥٨ و ٧٧٠، ومسلم: ٤٥٣ مختصراً.

(٢) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج١٥ ـ ص٤٣٠ ـ ٤٣٤.

والتابعين وسائر أئمة المسلمين هو أمر يقوم بالعاقل، سواء سمّي عرضاً أو صفةً، ليس هو عيناً قائمة بنفسها، سواء سمي جوهراً أو جسماً أو غير ذلك، وإنما يوجد التعبير باسم العقل عن الذات العاقلة التي هي جوهر قائم بنفسه في كلام طائفة من المتفلسفة، الذين يتكلمون في العقل والنفس، ويدّعون ثبوت عقول عشرة! كما يذكر ذلك من يذكره من أتباع أرسطو أو غيره من المتفلسفة المشائين، ومن تلقى ذلك عنهم من المنتسبين إلى الملل، لكن طائفة منهم كابن سينا وغيره زعموا: أن النفس الفلكية جوهر قائم بنفسه كنفس الإنسان، وما دامت نفس الإنسان مدبرة لبدنه سموها نفساً، فإذا فارقت سموها: «عقلاً»؛ لأن العقل ـ عندهم ـ هو المجرد عن المادة وعن علائق المادة، وأما النفس فهي المتعلقة بالبدن تعلق التدبير والتصريف.

والمقصود هنا أن اسم العقل ـ عند المسلمين وجمهور العقلاء ـ إنما هو صفة، وهو الذي يسمّى عرضاً قائماً بالعاقل، وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، وقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ونحو ذلك مما يدل على أن العقل مصدر عقل يعقل عقلاً.

وإذا كان كذلك فالعقل لا يُسمّى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه، ولا العمل بلا علم، بل إنما يُسمّى به العلم الذي يعمل به، والعمل بالعلم، ولهذا قال أهل النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

ولفظ العقل يراد به الغريزة التي بها يعلم، ويراد بها أنواع من العلم، ويراد به العمل بموجب ذلك العلم، وإن كان هو في الأصل مصدر عقل

يعقل عقلاً، وكثير من النظار جعله من جنس العلوم، فلابد أن يُعتبر مع ذلك أنه عِلمٌ يعمل بموجبه، ولهذا قال عن المنافقين: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]، ومن فعل ما يعلم أنه يضره فمثل هذا ما له عقل.

والعقل المشروط في التكليف لا بد أن يكون عُلوماً؛ يُميّز بها الإنسان بين ما ينفعه وما يضره، فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الأسبوع، ولا يفقه ما يقال له من الكلام، ليس بعاقل، أما من فهم الكلام ومَيّز بين ما ينفعه وما يضره، فهو عاقل.

ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية، ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم، والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا، وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الإنسان التي بها يعلم، ويُميّز، ويقصد المنافع دون المضار، وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء، كما أن في العين قوة بها يبصر، وفي اللسان قوة بها يذوق، وفي الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء.

ومن الناس من ينكر القوى والطبائع، وهؤلاء المنكرون للقوى والطبائع ينكرون الأسباب أيضاً، ويقولون: إن الله يفعل عندها لا بها! والناس يعلمون بحسهم وعقلهم أن بعض الأشياء سبب لبعض، كما يعلمون أن الشبع يحصل بالأكل لا بالعدّ، ويحصل بأكل الطعام لا بأكل الحصى، وأن الماء سبب لحياة النبات والحيوان، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وأن الحيوان يروى بشرب الماء لا بالمشي[١]».

---

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٩ ـ ص٢٧١ ـ ٢٧٢ و ٢٨٦ ـ ٢٨٨ بتصرف.

ب ـ طرق العلم عند ابن تيمية[١]:

هناك ترابط وثيق بين العلم والعقل، فالأول وسيلة للثاني، والثاني وسيلة لتنمية الأول وتزكيته، ووسائل العلم التي يتمكن الإنسان بواسطتها من التعلم واكتساب المعارف ـ عند ابن تيمية ـ هي: الحس، والخَبَر، والنظر؛ فيقول: «كل إنسان يستدل من هذه الثلاثة في بعض الأمور، لكن يكون بعض الأنواع أغلب على بعض الناس في الدين وغير الدين، كالطب؛ فإنه تجربات وقياسات، وأهله منهم من تغلب عليه التجربة، ومنهم من يغلب عليه القياس، والقياس أصله التجربة، والتجربة لابد فيها من قياس، لكن مثل قياس العاديات لا تعرف فيه العلة والمناسبة، وصاحب القياس من يستخرج العلة المناسبة، ويعلق الحكم بها».

ج ـ بين الحس والعقل:

قال رحمه الله: «والعقل خاصة القياس والاعتبار والقضايا الكلية، فلابد له من الحسيات التي هي الأصل ليعتبر بها، والحس إن لم يكن مع صاحبه عقل، وإلا فقد يغلط. . .، والناس يقولون: غلط الحس، والغلط تارة من الحس، وتارة من صاحبه؛ فإن الحس يرى أمراً معيناً، فيظن صاحبه فيه شيئاً آخر، فيؤتى من ظنه، فلابد له من العقل، ولهذا النائم يرى شيئاً، وتلك الأمور لها وجود وتحقيق، ولكن هي خيالات وأمثلة، فلما عزب ظنها الرائي نفس الحقائق، كالذي يرى نفسه في مكان آخر يكلم أمواتاً ويكلمونه، ويفعل أموراً كثيرة، وهو في النوم يجزم بأنه نفسه الذي يقول ويفعل، لأن عقله عزب عنه، وتلك الصورة التي رآها مثال

---

(١) قد تقدم ذكر ستة مصادر لطرق المعرفة عند ابن تيمية عند عرض الدراسة السابقة الثانية، من ص ٨١ ـ ٨٥.

صورته وخياله، لكن غاب عقله عن نفسه حتى ظن أن ذلك المثال هو نفسه! فلما ثاب إليه عقله علم أن ذلك خيالات ومثالات، ومن الناس من لا يغيب عقله، بل يعلم في المنام أن ذلك في المنام، وهذا كالذي يرى صورته في المرآة، أو صورة غيره، فإذا كان ضعيف العقل ظن أن تلك الصورة هي الشخص، حتى إنه يفعل به ما يفعل بالشخص، وهذا يقع للصبيان والبله، كما يخيل لأحدهم في الضوء شخص يتحرك ويصعد وينزل، فيظنونه شخصاً حقيقة، ولا يعلمون أنه خيال، فالحس إذا أحس حساً صحيحاً لم يغلط، لكن معه عقل لم يميز بين هذا العين والمثال، فإن العقل قد عقل قبل هذا أن مثل هذا يكون مثالاً، وقد عقل لوازم الشخص بعينه، وأنه لا يكون في الهواء ولا في المرآة، ولا يكون بدنه في غير مكانه، وأن الجسم الواحد لا يكون في مكانين[(١)]».

د ـ حكم العقل بواسطة النظائر[(٢)]، والحدسيات[(٣)]، والتجريبات، والبديهيات[(٤)]:

إن العاقل يتصل بالآخرين، ويستدل على معرفة الأشياء بالحس؛

---

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج١٣ ـ ص٧٥ ـ ٧٧.

(٢) النظائر: الأمثال، والأشياء المتشابهة، قال في اللسان: ج١٤ ـ ص١٩٤: النظِير: المثل، وقيل: المثل في كل شيء، وفلان نَظِيرك أي مِثْلُك لأنه إذا نظر إليهما الناظر رآهما سواء، والنظائر: جمع نظِيرة، وهي المِثْل والشبه في الأشكال، والأخلاق والأفعال والأقوال.

(٣) الحدسيات: هي ما لا يحتاج العقل في جزم الحكم فيه إلى واسطة بتكرر المشاهدة؛ كقولنا: القمر مستفاد من الشمس لاختلاف تشكلاته النورية، بحسب اختلاف أوضاعه من الشمس قرباً وبعداً. (التعريفات للجرجاني ٨٣).

(٤) البديهيات: هي التي لا يتوقف حصولها على نظر وكسب، سواء احتاج إلى شيء آخر من حدس أو تجربة أو غير ذلك، أو لم يحتج فيراد به=

الذي يتمثل في الحواس الخمس[١]؛ وهي: البصر ـ وهو أقواها ـ ثم السمع، ثم الشم، ثم اللمس، ثم الذوق، لكنه لا يقتصر في معرفة الأشياء والحكم عليها على هذه الخمس، بل لابد أن يستعين بالأمور المذكورة أعلاه، ومن أهمها التجربة؛ وقد مر الإنسان بتجارب عديدة، وهي من خير البراهين، ومن أقوى وسائل الاعتبار، ومن لم يعتبر بغيره اعتبر في نفسه، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «السعيد من وعظ بغيره»، وقال معاوية: «لا حكيم إلا ذو تجربة»، وفي الحديث: (لا يُلدغ المؤمن من جُحر واحد مرتين)[٢]، ولقد قرر ذلك ابن تيمية فقال: «إنما يحكم

= الضروري، وقد يراد به ما لا يحتاج بعد توجه العقل إلى شيء أصلاً، فيكون أخص من الضروري؛ كتصور الحرارة والبرودة، وكالتصديق بأن النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان.

(١) هذه الحواس الخمس المشهورة، وللإنسان وسائل إحساس أخرى؛ كالتي يعرف بها ثقل جرم أو سمكه ونحوه.

(٢) البخاري: ٦١٣٣، ومسلم: ٢٩٩٨، وأبو داود: ٤٨٦٢، قال ابن حجر في الفتح ـ ج١٠ ـ ص٦٤٩و ٦٥٠: وأخرجه البخاري في الأدب المفرد من طريق علي بن مسهر عن هشام عن أبيه قال: «كنت جالساً مع معاوية فحدث نفسه ثم انتبه فقال: «لا حليم إلا ذو تجربة» قالها ثلاثاً ـ صححه الألباني موقوفاً عليه كما في (صحيح الأدب المفرد: ٥٦٤/٤٤٠، ص٢١٢)، وأخرج من حديث أبي سعيد مرفوعاً: (لا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة) وأخرجه أحمد وصححه ابن حبان ـ (وهو في ضعيف الأدب المفرد: ٥٦٥/٨٦ ـ ١، ص٥٨).

قال ابن الأثير: معناه لا يحصل الحلم حتى يرتكب الأمور ويعثر فيها فيعتبر بها، ويستبين مواضع الخطأ ويجتنبها. وقال غيره: المعنى لا يكون حليماً كاملاً إلا من وقع في زلة وحصل منه خطأ فحينئذ يخجل، فينبغي لمن كان كذلك أن يستر من رآه على عيب فيعفو عنه، وكذلك من جرب الأمور علم نفعها وضررها، فلا يفعل شيئاً إلا عن حكمة. قال الطيبي: ويمكن أن =

العقل على النظائر بالتشبيه، وهو قياس التمثيل، والحدسيات عند من يثبتها منهم من جنس التجريبات، لكن الفرق: أن التجربة تتعلق بفعل المجرب؛ كالأطعمة والأشربة والأدوية، والحدس يتعلق بغير فعل، كاختلاف أشكال القمر عند اختلاف مقابلته للشمس، وهو في الحقيقة تجربة علمية بلا عمل، فالمستفاد به أيضاً أمور معينة جزئية لا تصير عامة إلا بواسطة قياس التمثيل.

وأما البديهيات؛ وهي العلوم الأولية التي يجعلها الله في النفوس ابتداء بلا واسطة، مثل الحساب، وهي كالعلم بأن الواحد نصف الإثنين، فإنها لا تفيد العلم بشيء معين موجود في الخارج، مثل الحكم على العدد المطلق والمقدار المطلق، وكالعلم بأن الأشياء المساوية لشيء واحد هي متساوية في أنفسها، فإنك إذا حكمت على موجود في الخارج لم يكن إلا بواسطة الحس، مثل العقل؛ فإن العقل إنما هو عقل ما علمته بالإحساس الباطن أو الظاهر، بعقل المعاني العامة أو الخاصة، فأما أن العقل الذي هو عقل الأمور العامة التي أفرادها موجودة في الخارج يحصل بغير حس فهذا لا يتصور، وإذا رجع الإنسان إلى نفسه

= يكون تخصيص الحليم بذي التجربة؛ للإشارة إلى الحكيم بخلافه، وأن الحليم الذي ليس له تجربة قد يعثر في مواضع لا ينبغي له فيها الحلم، بخلاف الحليم المجرب، وبهذا تظهر مناسبة أثر معاوية لحديث الباب، والله تعالى أعلم.

وقال حول دلالة الحديث: قال الخطابي: هذا لفظه خبر ومعناه أمر؛ أي ليكن المؤمن حازماً حذراً، لا يؤتى من ناحية الغفلة فيخدع مرة بعد أخرى، وقد يكون ذلك في أمر الدين كما يكون في أمر الدنيا، وهو أولاهما بالحذر.

وقال أبو عبيد: معناه: ولا ينبغي للمؤمن إذا نكب من وجه أن يعود إليه.

قلت: وهذا هو الذي فهمه الأكثر ومنهم الزهري راوي الخبر.

وقيل المراد بالمؤمن في هذا الحديث الكامل؛ الذي قد أوقفته معرفته على غوامض الأمور حتى صار يحذر مما سيقع، وأما المؤمن المغفل فقد يلدغ مراراً.

وجد أنه لا يعقل ذلك مستغنياً عن الحس الباطن والظاهر لكليات مقدرة في نفسه، مثل: الواحد، والاثنين، والمستقيم، والمنحني، والمثلث، والمربع، والواجب، والممكن، والممتنع، ونحو ذلك مما يفرضه هو ويقدره، فأما العلم بمطابقة ذلك المقدر للموجود في الخارج، والعلم بالحقائق الخارجية، فلابد فيه من الحس الباطن أو الظاهر، فإذا اجتمع الحس والعقل كاجتماع البصر والعقل، أمكن أن يدرك الحقائق الموجودة المعينة، ويعقل حكمها العام الذي يندرج فيه أمثالها لا أضدادها، ويعلم الجمع والفرق، وهذا هو اعتبار العقل وقياسه.

وإذا انفرد الإحساس الباطن أو الظاهر، أدرك وجود الموجود المعين، وإذا انفرد المعقول المجرد علم الكليات المقدرة فيه، التي قد يكون لها وجود في الخارج وقد لا يكون، ولا يعلم وجود أعيانها وعدم وجود أعيانها إلا بإحساس باطن أو ظاهر، فإنك إذا قلت: موجود أن المائة عشر الألف، لم تحكم على شيء في الخارج، بل لو لم يكن في العالم ما يعد بالمائة والألف لكنت عالماً بأن المائة المقدرة في عقلك عشر الألف، ولكن إذا أحسست بالرجال والدواب والذهب والفضة، وأحسست بحسك أو بخبر من أحس أن هناك مائة رجل أو درهم، وهناك ألف ونحو ذلك، حكمت على أحد المعدودين بأنه عشر الآخر، فأما المعدودات فلا تدرك إلا بالحس، والعدد المجرد يعقل بالقلب، وبعقل القلب والحس يعلم العدد والمعدود جميعاً، وكذلك المقادير الهندسية هي من هذا الباب، فالعلوم الأولية البديهية العقلية المحضة ليست إلا في المقدرات الذهنية، كالعدد والمقدار، لا في الأمور الخارجية الموجودة[1]».

---

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٩ ـ ص٧٠ ـ ٧٢.

هـ لا تعارض بين ما جاء به ﷺ وبين ما هو معلوم بالعقل أو مركوز في الفطر:

لقد قرر الإمام ابن تيمية هذه الحقيقة في مواضع كثيرة جدّاً من كتبه وفتاويه، بل أفرد لذلك مصنفاً، لأن أكثر من خالف الرسول ﷺ إنما خالفه بعقله، بل هواه، فإن ما جاء به الرسول ﷺ هو الهدى، وما خالفه هو الهوى؛ الذي يهوي بصاحبه في مهاوي الردى، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

قال رحمه الله: «والمقصود أن ما جاء عن النبي في هذا الباب وغيره كله حق يصدق بعضه بعضاً، وهو موافق لفطرة الخلائق وما جعل فيهم من العقول الصريحة والقصود الصحيحة، لا يخالف العقل الصريح ولا القصد الصحيح، ولا الفطرة المستقيمة، ولا النقل الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ، وإنما يظن تعارضها مَن صدق بباطل من النقول، أو فهم منه ما لم يدل عليه، أو اعتقد شيئاً ظنه من العقليات وهو من الجهليات، أو من الكشوفات وهو من الكسوفات إن كان ذلك معارضاً لمنقول صحيح، وإلا عارض بالعقل الصريح أو الكشف الصحيح ما يظنه منقولاً عن النبي ﷺ، ويكون كذباً عليه، أو ما يظنه لفظاً دالّاً على شيء ولا يكون دالّاً عليه[1]».

---

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٦ ـ ص٥٨٠، وقد ألف في ذلك كتاباً نفيساً طبع طبعة كاملة باسم: (درء تعارض العقل والنقل) ـ وهذا هو اسمه المشهور ـ عن دار الكنوز الأدبية بالرياض، سنة ١٣٩١هـ بتحقيق: محمد رشاد سالم، وقد طبع مراراً، كما طبع ـ أيضاً ـ باسم: (موافقة المنقول لصريح المعقول)، في مجلدين متوسطي الحجم، بدار الكتب العلمية، ببيروت ١٩٨٥م، كُتب على ظهر غلافه: الطبعة الأولى الكاملة!

و ـ المؤثر التام يستلزم أثره:

قال ـ رحمه الله ـ: «فالمؤثر التام يستلزم أثره، فمتى لم يحصل أثره لم يكن تامّاً، والفعل إذا صادف محلاً قابلاً تمَّ وإلا لم يتم، والعلم بالمحبوب يورث طلبه، والعلم بالمكروه يورث تركه، ولهذا يسمى هذا العلم الداعي، ويقال: الداعي مع القدرة يستلزم وجود المقدور؛ وهو العلم بالمطلوب المستلزم لإرادة المعلوم المراد.

وهذا كله إنما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها، وأما مع فسادها فقد يحس الإنسان باللذيذ فلا يجد له لذة بل يؤلمه، وكذلك يلتذ بالمؤلم لفساد الفطرة، والفساد يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعاً، كالممرور الذي يجد العسل مرّاً، فإنه فسد نفس إحساسه، حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التي مازجته، وكذلك من فسد باطنه[1].

ز ـ التوسط في مبدأ السببية:

تفرق الناس في مبدأ السببية؛ وهو ارتباط الأشياء بمسبباتها، إلى ثلاثة أقسام:

ـ قسم ينكر الأسباب جملة، لاعتقاده أن الأمر كله بيد الله، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا حق، لكن زيد فيه إبطال الأسباب!

ـ وقسم قال بوجود الأسباب، كما هو مشاهد محسوس بالضرورة، إلا أنه غالى؛ فنفى قدرة الله عليها وتدخله فيها، وأنه الخالق لها، لا خالق غيره سبحانه.

---

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٧ ـ ص٢٤ ـ ٢٦، و ج٧ ـ ٥٣٩ بتصرف.

ـ وقسم توسط؛ فجمع ما بين القولين من الحق، ونفى الباطل من كلا القولين، فسلم له الحق وحده، وهذا هو التمييز بعين البصيرة، كما طريقة ابن تيمية وغيره من العلماء الراسخين في العلم، حيث قال: ينبغي أن يُعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

ـ أحدها: أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب، بل لابد معه من أسباب أخر، ومع هذا فلها موانع، فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود، وهو سبحانه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله.

ـ الثاني: أن لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو يخالف الشرع كان مبطلاً؛ مثل من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه نهى عن النذر وقال: (إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل)[1].

ـ الثالث: أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سبباً، إلا أن تكون مشروعة، فإن العبادات مبناها على التوقيف، فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله؛ فيدعو غيره، وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه...، فهو الذي خلق السبب والمسبب، والدعاء من جملة الأسباب التي قدرها الله سبحانه وتعالى، وإذا كان كذلك فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، بل العبد يجب

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج١. ص١٣١، و١٣٧ و١٣٨، والحديث عند البخاري: ٦٦٠٨، ومسلم: ١٦٣٩.

أن يكون توكله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله سبحانه وتعالى، والله يقدّر له من الأسباب من دعاء الخلق وغيرهم ما شاء، والدعاء مشروع أن يدعو الأعلى للأدنى والأدنى للأعلى..

٤ ـ ٣ ـ ٣: أساليبه التربوية التي تعنى بالجوانب العقلية وتزكيتها:

لقد كان للإمام ابن تيمية أساليب تربوية كثيرة تعنى بالعقل وتزكيته وتنميته، إلا أنه مراعاة لظروف الدراسة والوقت المتاح لها اكتفى الباحث بالأساليب الآتية:

أ ـ تنمية العقل وتزكيته بعلم الرسول ﷺ والعمل به:

إن مما يزيد في العقل تعلم ما جاء به الرسول ﷺ والعمل به، كما يعلق الله في آيات كثيرة حصول العقل على تدبر آياته والامتثال لأوامره، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٢]، فيجب عدم الاعتماد في إدراك جميع الحقائق أو طلب السعادة على العقل، بل لابد من استضاءته بنور الوحي، وقد قيل:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه ومن لا يعرف الخير من الشر يقع فيه والجاهل بدين الإسلام لا يميّز بين الحلال والحرام، ولا بين السنة والبدعة، وعدم التفريق والتمييز نقص في الدين وقصور في العقل، فالطفل الصغير لا يميّز ـ مثلاً ـ بين مئة درهم وبين خمسة دراهم فيحسبها نفس الشيء لضعف تمييزه، وفي هذا وذاك من الضرر الديني والدنيوي ما فيه، وفي هذا المعنى يقول رحمه الله[1]: قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج١ ـ ص٧ ـ ٨.

ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦]، فبمحمد ﷺ تبيَّن الكفر من الإيمان، والربح من الخسران، والهدى من الضلال، والنجاة من الوبال، والغي من الرشاد، والزيغ من السداد، وأهل الجنة من أهل النار، والمتقون من الفجار، وإيثار سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من سبيل المغضوب عليهم والضالين.

فالنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به واتباعه منها إلى الطعام والشراب؛ فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا، وذاك إذا فات حصل العذاب.

فحق على كل أحد بذْل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به وطاعته؛ إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم، والسعادة في دار النعيم، والطريق إلى ذلك الرواية والنقل، إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل، بل كما أن نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور قدّامه، فكذلك نور العقل؛ لا يهتدي إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة، فلهذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الإسلام، وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجباً على جميع الأنام، والله سبحانه بعث محمداً بالكتاب والسنة، وبهما أتم على أمته المنة، قال تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٠ ـ ١٥٢].

ب ـ التفريق بين هداية الرحمن، وبين ضلالات الشيطان:

إن أسلوب التفريق بين الأشياء المتشابهة والتمييز بينها، من أخص

وظائف العقل والعقلاء، وإلا وقع الناس في فساد لا يعلمه إلا الله، قال ابن القيم[١] رحمه الله:

فعليك بالتفصيل والتمييز فالـ إطلاق والإجمال دون بيان
قد أفسدا هذا الوجود وخبّطا الـ أذهان والآراء كل زمان

ومن أكبر ما وقع فيه كثير من الناس؛ عدم التفريق بين ما هو قربة للرحمن وبين ما هو قربة للشيطان الذي حذر الله منه، وأبدى فيه وأعاد، وكرر قصته مع أبينا آدم في سور مختلفة، وبأساليب متنوعة، وذلك لعظيم خطره، فبيَّن عداوته، وكشف حيله وتلبيساته، وذكر لنا أن مهمته في الأرض إغواء بني آدم من طريقين:

الأول ـ طريق الشبهة: وذلك بأن يجعل الأمر مشتبهاً ملتبساً، يخلط فيه الحق بالباطل، فلا يدري العبد حلاله من حرامه، ونحو ذلك، قال ابن تيمية: «لهذا كان ضلال بني آدم من قبل التشابه[٢]»، وله في ذلك أساليب كثيرة متنوعة يصطاد الناس بها؛ كتزيين المحرمات، والتذكير بمحاسنها وفوائدها العاجلة، حتى ينصرف الإنسان إليها غافلاً عن مضارها العاجلة أو الآجلة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١]، وهكذا تغيير أسماء المحرمات من أسماء معلومة الحرمة إلى أسماء جميلة شيقة محبوبة طبعاً، لينسيهم بذلك حرمتها فيقعوا فيها، كما فعل مع أبينا آدم تماماً؛ فبدلاً من أن يَصدقه القول في الشجرة المحرمة التي نهاه الله عنها، قال له: إنها شجرة الخلد! مع أنه ـ لعنه الله ـ لما أراد

---

(١) ابن القيم ـ الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ـ الرياض ـ دار ابن خزيمة ـ ص٨٢.

(٢) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٣ ـ ص٦٣.

الخلود لم يأكل منها، وإنما سأل واهب الحياة سبحانه فقال: ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤].

الثاني ـ طريق الشهوة: إذ إنه عَلِم ما جُبل عليه الإنسان من حبها وطلبها، فلما ابتلى الله الإنسان بحل بعض تلك الشهوات وتحريم بعضها لينظر مدى استجابته لخالقه ـ علماً بأن ما أحله أكثر مما حرمه بكثير ـ أبى الشيطان إلا أن يوسوس للإنسان في صدره، ليقع في تلك المحرمات على اختلافها وشدة ضررها، ويستخدم لذلك أساليب متنوعة يصطادهم بها؛ كما ضحك على آدم ﷺ بأنه سيخلد إن هو أكل من الشجرة! وحب الخلود وكراهية الموت محبوب للإنسان بطبعه ـ خصوصاً المنعّم في هذه الحياة ـ ولهذا لا يزال يجند للمساعدة في مهمته اللعينة أعواناً من بني آدم علاوة على من معه من شياطين ذريته، إذ إنه قد فطن أن أفضل أسلوب لمهاجمة خصمه؛ تفريق كلمته، وتجنيد أبنائه للهجوم عليه، وقد استجاب له أكثرهم فنجح فيما خطط له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سبأ: ٢٠]، وأخطر ما أوقعهم فيه هو الكفر والإشراك بالله بكل أنواعه وصوره، واستغل لذلك جهل الناس بدينهم، وانغماسهم في طلب الدنيا ليل نهار.

قال الإمام ابن تيمية: فالغفلة والشهوة أصل الشر؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل، وإلا فصاحب الهوى إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً انصرفت نفسه عنه بالطبع؛ فإن الله تعالى جعل في النفس حبّاً لما ينفعها وبغضاً لما يضرها، فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً، بل متى فعلته كان لضعف العقل، ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل، وذو نهى، وذو حِجى.

ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان لا من مجرد النفس؛ فإن

الشيطان يزيّن لها السيئات ويأمرها بها، ويذكر لها ما فيها من المحاسن التي هي منافع لا مضار[١]، كما فعل إبليس بآدم وحواء...، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]؛ بتوسيط تزيين الملائكة والأنبياء والمؤمنين للخير، وتزيين شياطين الجن والإنس للشر.

فأصل ما يوقع الناس في السيئات الجهل وعدم العلم بكونها تضرهم ضرراً راجحاً، أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً، ولهذا قال الصحابة ﷺ: «كل من عصى الله فهو جاهل»، وفسروا بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]...، ولهذا يسمى حال فعل السيئات: الجاهلية؛ فإنه يصاحبها حال من حال جاهلية.

قلت: ومما يبين ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]، وكل من خشيه وأطاعه وترك معصيته فهو عالم...[٢].

ولقد كان للإمام ابن تيمية دور كبير في بيان تلبيساتهم وما يروجونه لإضلال عقول الناس وإيقاعهم في الحيرة بل والشرك الصريح باسم كرامات الأولياء ونحوها، ولقد أبدى في ذلك وأعاد، كما هي عادته في الاهتمام الزائد بما التبس على الناس، وكثر خطره وضرره[٣]، فقال:

---

(١) هكذا عبارة الأصل، والصواب: والتي هي مضار لا منافع.

(٢) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج١٤ ـ ص٢٨٩ ـ ٢٩٢، ولهذا كان العلماء الذين هم ورثة الأنبياء أشد الناس على شياطين الإنس والجن، يبصرون الناس من العمى ويهدونهم سبل الرشاد، ويحذرونهم كيد الشيطان ومداخله.

(٣) حتى إنه ألف في ذلك مؤلفاً مستقلاً، طبع ضمن مجموع الفتاوى، ج١١، وطبع مستقلاً باسم: (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)، كما في طبعة المكتب الإسلامي ببيروت، عام ١٩٨٨م، وهي الطبعة الرابعة.

والناس في خوارق العادات على ثلاثة أقسام:

ـ قسم يكذِّب بوجود ذلك لغير الأنبياء، وربما صدق به مجملاً، وكذب ما يذكر له عن كثير من الناس لكونه عنده ليس من الأولياء.

ـ ومنهم من يظن أن كل من كان له نوع من خرق العادة كان وليّاً لله، وكلا الأمرين خطأ؛ ولهذا تجد أن هؤلاء يذكرون أن للمشركين وأهل الكتاب نصراء يعينونهم على قتال المسلمين، وأنهم من أولياء الله، وأولئك يكذِّبون أن يكون معهم من له خرق عادة، والصواب:

ـ القول الثالث؛ وهو أن معهم من ينصرهم من جنسهم لا من أولياء الله عزّ وجلّ، وهؤلاء العباد والزهاد الذين ليسوا من أولياء الله المتقين المتبعين للكتاب والسنة، تقترن بهم الشياطين فيكون لأحدهم من الخوارق ما يناسب حاله، لكن خوارق هؤلاء يعارض بعضها بعضاً، وإذا حصل من له تمكن من أولياء الله تعالى أبطلها عليهم، ولا بد أن يكون في أحدهم من الكذب جهلاً أو عمداً، ومن الإثم ما يناسب حال الشياطين المقترنة بهم، ليفرق الله بذلك بين أوليائه المتقين وبين المتشبهين بهم من أولياء الشياطين؛ قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢]، والأفاك: الكذاب، والأثيم: الفاجر.

ومن أعظم ما يقوي الأحوال الشيطانية سماع الغناء والملاهي، وهو سماع المشركين..(١)؛ فكان المشركون يتخذون هذا عبادة، وأما النبي

(١) قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال: ٣٥] قال ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم وغيرهما من السلف: التصدية: التصفيق باليد، والمكاء: مثل الصفير.

وأصحابه فعبادتهم ما أمر الله به من الصلاة والقراءة والذكر ونحو ذلك، والاجتماعات الشرعية، ولم يجتمع النبي وأصحابه على استماع غناء قط، لا بكف، ولا بدف، ولا تواجد، ولا سقطت بردته، بل كل ذلك كذب، باتفاق أهل العلم بحديثه، وكان أصحاب النبي إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ والباقون يستمعون.. (١).، ومثل هذا السماع هو سماع النبيين وأتباعهم كما ذكره الله في القرآن.. (٢).، ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم من زيادة الإيمان، واقشعرار الجلد، ودمع العين، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. ..، وأما السماع المحدث؛ سماع الكف والدف والقصب فلم تكن الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأكابر من أئمة الدين يجعلون هذا طريقاً إلى الله تبارك وتعالى، ولا يعدونه من القرب والطاعات، بل يعدونه من البدع المذمومة؛ حتى قال الشافعي: «خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير، يصدون به الناس عن القرآن».

---

(١) قال رحمه الله: وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري: ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون، ومر النبي ﷺ بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال له: (مررت بك البارحة وأنت تقرأ، فجعلت أستمع لقراءتك)، فقال: لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً؛ أي لحسنته لك تحسيناً، كما قال النبي: (زينوا القرآن بأصواتكم)، وقال ﷺ: (لله أشد أذناً؛ أي استماعاً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته).

(٢) قال رحمه الله: فقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال في أهل المعرفة: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وأولياء الله العارفون يعرفون ذلك، ويعلمون أن للشيطان فيه نصيباً وافراً، ولهذا تاب منه خيار من حضره منهم، ومن كان أبعد عن المعرفة وعن كمال ولاية الله كان نصيب الشيطان منه أكثر، وهو بمنزلة الخمر، يؤثر في النفوس أعظم من تأثير الخمر، ولهذا إذا قويت سكرة أهله نزلت عليهم الشياطين، وتكلمت على ألسنة بعضهم، وحملت بعضهم في الهواء، وقد تحصل عداوة بينهم كما تحصل بين شرّاب الخمر، فتكون شياطين أحدهم أقوى من شياطين الآخر فيقتلونه، ويظن الجهال أن هذا من كرامات أولياء الله المتقين، وإنما هذا مبعد لصاحبه عن الله، وهو من أحوال الشياطين؛ فإن قتل المسلم لا يحل إلا بما أحله الله، فكيف يكون قتل المعصوم مما يكرم الله به أولياءه؟!

وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة، فلم يكرم الله عبداً بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه، ويزيده مما يقربه إليه ويرفع به درجته، وذلك أن الخوارق:

- منها ما هو من جنس العلم؛ كالمكاشفات.

- ومنها ما هو من جنس القدرة والملك؛ كالتصرفات الخارقة للعادات.

- ومنها ما هو من جنس الغنى عن جنس ما يعطاه الناس في الظاهر من العلم والسلطان والمال والغنى.

وجميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور إن استعان به على ما يحبه الله ويرضاه، ويقربه إليه، ويرفع درجته، ويأمره الله به ورسوله، ازداد بذلك رفعة وقرباً إلى الله ورسوله، وعلت درجته، وإن استعان به على ما نهى الله عنه ورسوله؛ كالشرك والظلم والفواحش استحق بذلك الذم

والعقاب، فإن لم يتداركه الله تعالى بتوبة أو حسنات ماحية، وإلا كان كأمثاله من المذنبين.

ولهذا كثيراً ما يعاقب أصحاب الخوارق تارة بسلبها، كما يعزل الملك عن ملكه، ويسلب العالم علمه، وتارة بسلب التطوعات، فينقل من الولاية الخاصة إلى العامة، وتارة ينزل إلى درجة الفساق، وتارة يرتد عن الإسلام، وهذا يكون فيمن له خوارق شيطانية، فإن كثيراً من هؤلاء يرتد عن الإسلام.

وكثير منهم لا يعرف أن هذه شيطانية، بل يظنها من كرامات أولياء الله، ويظن من يظن منهم أن الله عزّ وجلّ إذا أعطى عبداً خرق عادة لم يحاسبه على ذلك، كمن يظن أن الله إذا أعطى عبداً ملكاً ومالاً وتصرفاً لم يحاسبه عليه، ومنهم من يستعين بالخوارق على أمور مباحة لا مأموراً بها ولا منهيا عنها، فهذا يكون من عموم الأولياء، وهم الأبرار المقتصدون، وأما السابقون المقربون فأعلى من هؤلاء، كما أن العبد الرسول أعلى من النبي الملك.

ولما كانت الخوارق كثيراً ما تنقص بها درجة الرجل، كان كثير من الصالحين يتوب من مثل ذلك! ويستغفر الله تعالى، كما يتوب من الذنوب كالزنى والسرقة، وتعرض على بعضهم فيسأل الله زوالها! وكلهم يأمر المريد السالك أن لا يقف عندها، ولا يجعلها همته، ولا يتبجح بها، مع ظنهم أنها كرامات، فكيف إذا كانت بالحقيقة من الشياطين تغويهم بها؟!

فإني أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع! وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها، وأعرف من يخاطبهم الحجر والشجر وتقول: هنيئاً لك يا ولي الله!

فيقرأ آية الكرسي فيذهب ذلك!

وأعرف من يقصد صيد الطير فتخاطبه العصافير وغيرها؛ تقول: خذني حتى يأكلني الفقراء، ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل في الإنس ويخاطبه بذلك.

ومنهم من يكون في البيت وهو مغلق فيرى نفسه خارجه، وهو لم يفتح وبالعكس! وكذلك في أبواب المدينة، وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة، أو تمر به أنوار، أو تحضر عنده من يطلبه، ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه، فإذا قرأ آية الكرسي مرة بعد مرة ذهب ذلك كله.

وأعرف من يخاطبه مخاطب ويقول له: أنا من أمر الله، ويَعِدُه بأنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ ويظهر له الخوارق؛ مثل أن يخطر بقلبه تصرف في الطير والجراد في الهواء، فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يميناً أو شمالاً ذهب حيث أراد، وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي أو نومه أو ذهابه حصل له ما أراد من غير حركة منه في الظاهر، وتحمله إلى مكة وتأتي به، وتأتيه بأشخاص في صورة جميلة، وتقول له: هذه الملائكة الكروبيون أرادوا زيارتك! فيقول في نفسه: كيف تصوروا بصورة المردان، فيرفع رأسه فيجدهم بلحى! ويقول له: علامة أنك أنت المهدي، أنك تنبت في جسدك شامة، فتنبت ويراها! وكله من مكر الشيطان.

وهذا باب واسع لو ذكرت ما أعرفه منه لاحتاج إلى مجلد كبير، وقد قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦]، قال الله تبارك وتعالى: (كَلَّا)، ولفظ كلا فيها زجر وتنبيه؛ زجر عن مثل هذا القول، وتنبيه على ما يخبر به ويؤمر به بعده؛ وذلك أنه ليس كل من حصل له

نعم دنيوية تعد كرامة، يكون الله عزّ وجلّ مكرماً له بها، ولا كل من قدر عليه ذلك يكون مهيناً له بذلك، بل هو سبحانه يبتلي عبده بالسراء والضراء، فقد يعطي النعم الدنيوية لمن لا يحبه ولا هو كريم عنده ليستدرجه بذلك، وقد يحمي منها من يحبه ويواليه، لئلا تنقص بذلك مرتبته عنده، أو يقع بسببها فيما يكرهه منه.

وأيضاً كرامات الأولياء لابد أن يكون سببها الإيمان والتقوى، فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان فهو من خوارق أعداء الله لا من كرامات أولياء الله، فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة، والقراءة، والذكر، وقيام الليل، والدعاء، وإنما تحصل عند الشرك؛ مثل دعاء الميت، والغائب، أو بالفسق والعصيان، وأكل المحرمات؛ كالحيات والزنابير والخنافس والدم وغيره من النجاسات، ومثل الغناء والرقص - لا سيما مع النسوة الأجانب والمردان - وحالة خوارقه تنقص عند سماع القرآن، وتقوى عند سماع مزامير الشيطان، فيرقص ليلاً طويلاً، فإذا جاءت الصلاة صلى قاعداً، أو ينقر الصلاة نقر الديك، وهو يبغض سماع القرآن وينفر عنه، ويتكلّفه؛ ليس له فيه محبة ولا ذوق ولا لذة عند وجده، ويحب سماع المكاء والتصدية، ويجد عنده مواجيد، فهذه أحوال شيطانية، وهو ممن يتناوله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦][1].

ج - ترويض العقل وإثارته بما يناسبه من المهارات العقلية والعلمية النافعة:

قد تقدم أن العقل يزيد وينقص، فينبغي للإنسان أن يشغل عقله بما

(١) ابن تيمية - المرجع السابق - ج١١ - ص٢٩٤ - ٣٠٢، بتصرف يسير.

ينفعه ويزيده، خصوصاً ما يجمع بين المتعة والفائدة، ولهذا يقول: إن الإنسان يلتذ بعلم ما لم يكن علمه، وسماع ما لم يكن سمعه، إذا لم يكن مشغولاً عن ذلك بما هو أهم عنده منه(١)، كما قد يلتذ بأنواع من الأفعال التي هي من جنس اللهو واللعب، وأيضاً ففي الإدمان على معرفة ذلك، تعتاد النفس العلم الصحيح والقضايا الصحيحة الصادقة، والقياس المستقيم، فيكون في ذلك تصحيح الذهن والإدراك، وتعود النفس أنها تعلم الحق وتقوله، لتستعين بذلك على المعرفة التي هي فوق ذلك، ولهذا يقال: إنه كان أوائل الفلاسفة أول ما يعلمون أولادهم العلم الرياضي، وكثير من شيوخهم في آخر أمره إنما يشتغل بذلك، لأنه لما نظر في طرقهم وطرق من عارضهم من أهل الكلام الباطل، ولم يجد في ذلك ما هو حق، أخذ يشغل نفسه بالعلم الرياضي، كما كان يتحرى مثل ذلك من هو من أئمة الفلاسفة؛ كابن واصل وغيره، وكذلك كثير من متأخري أصحابنا يشتغلون وقت بطالتهم بعلم الفرائض والحساب والجبر والمقابلة والهندسة ونحو ذلك، لأن فيه تفريجاً للنفس، وهو علم صحيح لا يدخل فيه غلط، وقد جاء عن عمر بن الخطاب أنه قال: «إذا لهوتم فالهوا بالرمي، وإذا تحدثتم فتحدثوا بالفرائض»، فإن حساب الفرائض علم معقول مبني على أصل مشروع، فتبقى فيه رياضة العقل وحفظ الشرع، لكن ليس هو علماً يطلب لذاته، ولا تكمل به النفس.

---

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٩ ـ ص١٢٩، وهو يقرر بذلك: أن الذهن لابد أن يكون مشغولاً بشيء، فإن أثير انتباهه إلى ما ينفعه وإلا شغل بغيره، قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤].

د ـ توفير بيئة سليمة فكرياً تحفظ العقل من الانحراف:

لابد من توفير بيئة سليمة للناشئ، سواء في البيت أو المدرسة أو المجتمع الذي يعيش ويترعرع فيه، لأن من معاني التربية الرعاية والمحافظة، فدورها في ذلك انتقائي ودفاعي، فهي تنتقي الجو الصالح للمتعلم، وتدافع عن الفضائل التي فُطر عليها، وتبعد الرذائل عن الجو الذي يعيش فيه، لأن العقل مبني على سلامة الفطرة، وفي هذا الصدد يقول رحمه الله: إن مبنى العقل على صحة الفطرة وسلامتها، ومبنى السمع على تصديق الأنبياء صلوات الله عليهم، ثم الأنبياء صلوات الله عليهم، كملوا للناس الأمرين؛ فدلّوهم على الأدلة العقلية التي بها تعلم المطالب التي يمكنهم علمهم بها بالنظر والاستدلال، وأخبروهم مع ذلك من تفاصيل الغيب بما يعجزون عن معرفته بمجرد نظرهم واستدلالهم[١].

وقال أيضاً: ومثل الفطرة مع الحق مثل ضوء العين مع الشمس، وكل ذي عين لو ترك بغير حجاب لرأى الشمس، والاعتقادات الباطلة العارضة؛ من تهود وتنصر وتمجس مثل حجاب يحول بين البصر ورؤية الشمس، وكذلك أيضاً كل ذي حس سليم يحب الحلو إلا أن يعرض في الطبيعة فساد يحرفه حتى يجعل الحلو في فمه مرّاً، ولا يلزم من كونهم مولدين على الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل، فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً، ولكن سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق الذي هو الإسلام، بحيث لو ترك من غير مغيّر لما كان إلا مسلماً، وهذه القوة العلمية العملية التي تقتضي بذاتها الإسلام ما لم يمنعها مانع؛ هي فطرة الله التي فطر الناس عليها[٢].

---

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٩ ـ ص٢٢٦.

(٢) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٤ ـ ص٢٤٧.

هـ التمثيل والتصوير الذهني، والاعتبار بالمعلوم لتصور المذكور الغيبي:

يؤكد ابن تيمية على استعمال أسلوب المقايسة والتمثيل والتصوير الذهني العقلي للتمكن من إدراك حقائق الأشياء الغائبة التي لا يعلمها المخاطب إلا بالخبر الصادق، لكنه لا يتمكن من تمييزها ذهنيّاً إلا إذا مثلت بغيرها مما هو معلوم عنده مسبقاً، والحكم على الشيء فرع عن تصوره، فيقول: إن اليقين لا يحصل في هذه الأمور إلا أن يحصل بالتمثيل، فيكون العلم بما لم يعلم من المفردات الموجودة في الخارج قياساً على ما علم منها، وهذا حق لا ينازع فيه عاقل، بل هذا من أخص صفات العقل التي فارق بها الحس، إذ الحس لا يعلم إلا معيناً، والعقل يدركه كليّاً مطلقاً، لكن بواسطة التمثيل، ثم العقل يدركها كلها مع عزوب الأمثلة المعينة عنه، لكن هي في الأصل إنما صارت في ذهنه كلية عامة، بعد تصوره لأمثال معينة من أفرادها، وإذا بعد عهد الذهن بالمفردات المعينة فقد يغلط كثيراً، بأن يجعل الحكم إما أعم وإما أخص، وهذا يعرض للناس كثيراً، حيث يظن أن ما عنده من القضايا الكلية صحيح، ويكون عند التحقيق ليس كذلك.

ويقول: إنا لا نعلم ما غاب عنا إلا بمعرفة ما شهدناه، فنحن نعرف أشياء بحسنا الظاهر أو الباطن، وتلك معرفة معينة مخصوصة، ثم إنا بعقولنا نعتبر الغائب بالشاهد، فيبقى في أذهاننا قضايا عامة كلية، ثم إذا خوطبنا بوصف ما غاب عنا لم نفهم ما قيل لنا إلا بمعرفة المشهود لنا، فلولا أنا نشهد من أنفسنا جوعاً وعطشاً وشبعاً ورياً وحباً وبغضاً ولذة وألماً ورضى وسخطاً، لم نعرف حقيقة ما نخاطب به إذا وصف لنا ذلك وأخبرنا به عن غيرنا، وكذلك لو لم نعلم ما في الشاهد حياة وقدرة

وعلماً وكلاماً لم نفهم ما نخاطب به إذا وصف الغائب عنا بذلك، وكذلك لو لم نشهد موجوداً لم نعرف وجود الغائب عنا، فلابد فيما شهدناه وما غاب عنا من قدر مشترك، هو مسمى اللفظ المتواطئ، فبهذه الموافقة والمشاركة والمشتبهة والمواطأة نفهم الغائب ونثبته، وهذا خاصة العقل ولولا ذلك لم نعلم إلا ما نحسه، ولم نعلم أموراً عامة ولا أموراً غائبة عن أحاسيسنا الظاهرة والباطنة، ولهذا من لم يحس الشيء ولا نظيره لم يعرف حقيقته.

ثم إن الله تعالى أخبرنا بما وعدنا به في الدار الآخرة من النعيم والعذاب، وأخبرنا بما يؤكل ويشرب وينكح ويفرش وغير ذلك، فلولا معرفتنا بما يشبه ذلك في الدنيا لم نفهم ما وعدنا به، ونحن نعلم مع ذلك أن تلك الحقائق ليست مثل هذه، حتى قال ابن عباس رضي الله عنه: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء. وهذا تفسير قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، على أحد الأقوال، ولهذا كان قول من قال: إن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله حقّاً، وقول من قال: إن الراسخين في العلم يعلمون تأويله حقّاً ـ وكلا القولين مأثور عن السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ـ فالذين قالوا: إنهم يعلمون تأويله مرادهم بذلك أنهم يعلمون تفسيره ومعناه، وإلا فهل يحل لمسلم أن يقول إن النبي ﷺ ما كان يعرف معنى ما يقوله ويبلغه من الآيات والأحاديث؟! بل كان يتكلم بألفاظ لها معانٍ لا يعرف معانيها! ومن قال: «إنهم لا يعرفون تأويله، أرادوا به الكيفية الثابتة التي اختص الله بعلمها[١]».

---

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٥ ـ ص٣٤٦ ـ ٣٤٨، وج٩ ـ ص١٢٠.

و ـ إبعاد العقل عما لا دخل له فيه:

إن العقل إن لم يتقيد بالشرع في الغيبيات أو ما يسميه الفلاسفة ونحوهم: ما وراء الطبيعة؛ أو ما وراء الحس، وقع في الوهم؛ وهو تصور الشيء على خلاف ما هو عليه، فإن للعقل مجالاً يعمل فيه؛ وهو الحسيات والمشاهدات والمعقولات، فلا يجوز إعماله في الغيبيات، إذ إنها من اختصاص عالم الغيب والشهادة سبحانه، كمثل ميزان الذهب الذي يعطي أحكاماً دقيقة لما يوضع فيه من الذهب والمجوهرات ونحوها، فإذا وضع فيه ما يفوق تحمله ـ كحجر مثلاً ـ أخطأت أحكامه ولا بدَّ، ولهذا وصف ابن تيمية صاحب الخلوة المعتمد على عقله بأنه أصيب بثلاث توهمات:

ـ **أحدها**: أن يعتقد في نفسه أنه أكمل الناس استعداداً.

ـ **والثاني**: أن يتوهم في شيخه أنه أكمل من على وجه الأرض.

ـ **والثالث**: أن يتوهم أنه يصل إلى مطلوبه بدون سبب، وأكثر اعتماده على القوة الوهمية، فقد تعمل الأوهام أعمالاً لكنها باطلة؛ كالمشيخة الذين لم يسلكوا الطرق الشرعية النبوية نظراً أو عملاً بل سلكوا الصابئية.

وهو يقرر أن العقل قد يتصور أشياء لا وجود لها البتة في الواقع، وإنما يكون وجودها ذهنيّاً؛ أي في ذهن وعقل متصورها، كما يرد على الاتحادية اعتقادهم اتحاد الخالق مع المخلوق؛ وهو مبني على تصور إمكانية اجتماع ذاتين في ذات واحدة! ومعلوم أن الذات الواحدة منفصلة متميزة عن غيرها، قال رحمه الله: إن متصورات العقل ومقدراته أوسع مما هو موجود حاصل بذاته، كما يتصور المعدومات والممتنعات

والمشروطات، ويقدر ما لا وجود له البتة مما يمكن أو لا يمكن، ويأخذ من المعينات صفات مطلقة فيه، ومن الموجودات ذوات متصورة فيه[(١)].

ز ـ عدم إعمال العقل في الضروريات والبديهيات:

هناك أمور عقلية لا يحتاج الإنسان فيها إلى نظر واستدلال لأنها معلومة ببداهة العقل، وهي مما يشترك فيه كل العقلاء، فلا داعي إلى تضييع الوقت والجهد في تعلمها، فإن ذلك من تحصيل الحاصل، فمن طلب تعلم مثل تلك العلوم لينمي أو يزكي عقله بها، فإنما هو يفسده من حيث يظن أنه يصلحه، فقال رحمه الله[(٢)]: «والتحقيق أن العلم بأن المحدَث لابد له من محدِث هو علم فطري ضروري في المعينات الجزئية، وأبلغ مما هو في القضية الكلية، فإن الكليات إنما تصير كليات في العقل بعد استقرار جزئياتها في الوجود.

وكذلك عامة القضايا الكلية التي يجعلها كثير من النظار المتكلمة والمتفلسفة أصول علمهم؛ كقولهم الكل أعظم من الجزء، أو النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، والأشياء المساوية لشيء واحد متساوية، ونحو ذلك، فإنَّ أيَّ كليٍّ تصوره الإنسان علم أنه أعظم من جزأيه وإن لم تخطر له القضية الكلية، كما يعلم أن بدن الإنسان بعضه أكثر من بعض، وأن الدرهم أكبر من بعضه، وأن المدينة أكثر من بعضها، وأن الجبل أكبر من بعضه، وكذلك النقيضان؛ وهما الوجود والعدم، فإن العبد إذا تصور وجود أي شيء كان وعدمه، علِم أن ذلك الشيء لا يكون موجوداً معدوماً في حالة واحدة، وأنه لا يخلو من الوجود والعدم، وهو يقضي بالجزئيات المعينة، وإن لم يستحضر القضية الكلية، وهكذا أمثال ذلك.

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٢ ـ ص٥٨، وج٥ ـ ص٢٧١.
(٢) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج١ ـ ص٤٧ ـ ٤٩، وج٢ ـ ص٧٢.

ولما كان القياس الكلي فائدته أمر مطلق لا معين، كان إثبات الصانع بطريق الآيات هو الواجب، كما نزل به القرآن وفطر الله عليه عباده، وإن كانت الطريقة القياسية صحيحة، لكن فائدتها ناقصة، والقرآن إذا استعمل في الآيات الإلهيات استعمل قياس الأولى لا القياس الذي يدل على المشترك، فإنه ما وجب تنزيه مخلوق عنه من النقائص والعيوب التي لا كمال فيها، فالباري تعالى أولى بتنزيهه عن ذلك، وما ثبت للمخلوق من الكمال الذي لا نقص فيه؛ كالحياة والعلم والقدرة، فالخالق أولى بذلك منه، فالمخلوقات كلها آيات للخالق، والفرق بين الآية وبين القياس: أن الآية تدل على عين المطلوب الذي هي آية وعلامة عليه، فكل مخلوق فهو دليل وآية على الخالق نفسه، فمعرفة الإضافة متوقفة على تصور المضاف والمضاف إليه، لكن قد لا يكون الإنسان عالماً بالإضافة، ولا كونه دليلاً، فإذا تصوره عرف المدلول إذا عرف أنه مستلزم له، والناس يعلمون أن هذه المخلوقات آيات ودلائل للخالق، فلابد أن يكونوا يعرفونه حتى يعلموا أن هذه دلائل مستلزمة له.

والمقصود أن هذه الطرق العقلية الفطرية هي التي جاء بها القرآن واتفق العقل والشرع، وتلازم الرأي والسمع.

ويقول: إن الآية هي العلامة، وهي ما تستلزم بنفسها لما هي آية عليه من غير توسط حدّ أوسط، ينتظم به قياس مشتمل على مقدمة كلية؛ كالشعاع فإنه آية الشمس، وكذلك النبات للمطر في الأرض القفر، والدخان للنار، وإن لم ينعقد في النفس قياس، بل العقل يعلم تلازمهما بنفسه، فيعلم من ثبوت الآية ثبوت لازمها، والعلم بالتلازم قد يكون فطرياً، وقد لا يكون».

ح - إبعاد العقل عما يزيله أو يؤثر على عمله أو فطرته:

إن من معاني التربية المحافظة على الإنسان من كل ما من شأنه التأثير على فهمه وتفكيره، وهذا هو دورها الوقائي، ولهذا نجد ابن تيمية لا يقصر سكر العقل بالخمر ونحوها مما يخامر العقل ويستره، بل يتعداه إلى كل ما من شأنه مخامرة العقل، فإن النبي ﷺ قد أرسل بجوامع الكلم، ومن هنا قال: **(كل مسكر حرام)**[1]، فقال ـ رحمه الله ـ: وكل ما يغيب العقل فإنه حرام وان لم تحصل به نشوة ولا طرب، فإن تغيب العقل حرام بإجماع المسلمين، وكل ما يزيل العقل فإنه يحرم أكله، ولو لم يكن مسكراً، كالبنج؛ فإن السكر يجب فيه الحد، وغير المسكر يجب فيه التعزير[2].

وقال: والله تعالى بعث الرسل بتكميل الفطرة، فدلّوهم على ما ينالون به النعيم في الآخرة، وينجون من عذاب الآخرة، فالفرق بين المأمور والمحظور هو كالفرق بين الجنة والنار، واللذة والألم، والنعيم والعذاب، ومن لم يدرك هذا الفرق فإن كان لسبب أزال عقله هو به معذور، وإلا كان مطالباً بما فعله من الشر وتركه من الخير.

ولا ريب أن في الناس من قد يزول عقله في بعض الأحوال، ومن الناس من يتعاطى ما يزيل العقل؛ كالخمر وكسماع الأصوات المطربة، فان ذلك قد يقوى حتى يسكر أصحابها، ويقترن بهم الشياطين، فيقتل بعضهم بعضاً في السماع المسكر، كما يقتل شراب الخمر بعضهم بعضاً إذا سكروا، وهذا مما يعرفه كثير من أهل الأحوال، لكن منهم من يقول:

---

(١) البخاري: ٤٣٤٣، ومسلم: ١٧٣٣.

(٢) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٣٤ ـ ص٢١١.

المقتول شهيد! والتحقيق: أن المقتول يشبه المقتول في شرب الخمر، فإنهم سكروا سكراً غير مشروع، لكن غالبهم يظن أن هذا من أحوال أولياء الله المتقين، فيبقى القتيل فيهما، كالقتيل في الفتنة، وليس هو الذي تعمد قتله، ولا هو كالمقتول ظلماً من كل وجه.

فإن قيل: فهل هذا الفناء يزول به التكليف؟

قيل: إن حصل للإنسان سبب يعذر فيه، زال به عقله الذي يميز به، فكان بمنزلة النائم والمغمى عليه، والسكران سكراً لا يأثم به، كمن سكر قبل التحريم، أو أوجر الخمر، أو أكره على شربها ـ عند الجمهور ـ.

وأما إن كان السكر لسبب محرم، فهذا فيه نزاع معروف بين العلماء[١].

ط ـ غض البصر عن الحرام وفضول النظر وما لا يحتاج إليه:

لقد أمر الله أمر بغضّ البصر مطلقاً في بعض الآيات؛ كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠]، لأن إطلاق البصر فيما لا يحلّ يورث ضعف البصيرة وكثرة النسيان والغفلة، وربما عوقب بانصراف قلبه إلى المحرمات واستساغتها، والعاقل ينأى بنفسه عن كل ما لا مصلحة له فيه، وقد جعل ذلك ﷺ من حسن الإسلام؛ فقال: **(من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)**[٢].

فقال رحمه الله: الفائدة الثانية في غض البصر: فهو نور القلب والفراسة، قال تعالى عن قوم لوط: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٨ ـ ص٣١٢.

(٢) الترمذي: ٢٣١٧، وابن ماجه: ٣٩٧٦.

[الحجر: ٧٢]، فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل، وعمى البصيرة، وسكر القلب ـ بل جنونه ـ كما قيل:

سكران سكر هوى وسكر مدامة فمتى يفيق من به سكران وذكر الله سبحانه آية النور عقيب آيات غض البصر فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥][(١)].

ي ـ حراسة الخواطر، وإشغال البال بما ينفع، والبعد عن مواضع الشرور:

لابد للعبد أن يراقب ما يخطر على باله من الأفكار والوساوس أولاً بأول، فما كان من ذلك إلى الخير فليقْدم عليه، وما كان إلى الشر فليحجم عنه وليبتعد عنه وعن أسبابه ومهيجاته، فإن الوقاية خير من العلاج، فإن لم يفعل هذا الأمر الهين الذي بمقدوره، فإنه يصاب باستحكام المرض والشهوة، فلربما لم يمكنه بعد ذلك اجتثاثها من نفسه والتخلص منها، فيبتلى بها، وقد سئل ابن تيمية عمن أصابه سهم من سهام إبليس المسمومة؛ وهي النظر إلى النساء والمردان؟ فقال: من أصابه جرح مسموم فعليه بما يخرج السم ويبرئ الجرح؛ بالترياق والمرهم، وذلك بأمور؛ منها:

ـ أن يتزوج أو يتسرى؛ فإن النبي قال: (إذا نظر أحدكم إلى محاسن امرأة، فليأت أهله، فإنما معها مثل ما معها)[(٢)]، وهذا مما ينقص الشهوة ويضعف العشق.

---

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج١٥ ـ ص٤٢٥ ـ ٤٢٦.

(٢) مسلم: ١٤٠٣، والترمذي: ١١٥٨، ولفظه: عن جابر بن عبد الله: (أن النبي ﷺ رأى امرأة، فدخل على زينب، فقضى حاجته وخرج وقال: إن المرأة إذا أقبلت، أقبلت في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله، فإن معها مثل الذي معها).

ـ الثاني: أن يداوم على الصلوات الخمس، والدعاء، والتضرع وقت السحر، وتكون صلاته بحضور قلب وخشوع، وليكثر من الدعاء بقوله: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي إلى طاعتك وطاعة رسولك، فإنه متى أدمن الدعاء والتضرع لله صرف قلبه عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

ـ الثالث: أن يبعد عن مسكن هذا الشخص، والاجتماع بمن يجتمع به، بحيث لا يسمع له خبر، ولا يقع له على عين ولا أثر؛ فإن البعد جفا، ومتى قل الذكر ضعف الأثر في القلب، فليفعل هذه الأمور، وليطالع بما تجدد له من الأحوال(١).

ك ـ ترك بعض المصالح لتحصيل مصالح أكبر، أو دفع مفسدة أو مفاسد:

وهذا أسلوب تربوي عقلي لا غنى لعاقل عنه، بل هو قاعدة أصولية شرعية متينة، وقد كان شيخ الإسلام كثيراً ما يطبقها ويلحظها في تصرفاته وتعاملاته مع الموافق والمخالف، فمن ذلك قوله: إن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك، وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان، فلا يحل له ذلك إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به، إذ الرسول بعث بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما أمر الله به فمصلحته راجحة، وما نهى عنه فمفسدته راجحة.

وقال في صلاة ركعتين قبل الجمعة: قد يكون تركها أفضل إذا كان

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٥ ـ ص٣٢.

الجهال يظنون أن هذه سنة راتبة، أو أنها واجبة؛ فتترك حتى يعرف الناس أنها ليست سنة راتبة ولا واجبة، لا سيما إذا داوم الناس عليها فينبغي تركها أحياناً حتى لا تشبه الفرض، كما استحب أكثر العلماء أن لا يداوم على قراءة السجدة يوم الجمعة مع أنه قد ثبت فى الصحيح أن النبي ﷺ فعلها، فإذا كان يكره المداومة على ذلك فترك المداومة على ما لم يسنَّه النبي أولى، وإن صلاها الرجل بين الأذانين أحياناً لأنها تطوع مطلق، أو صلاة بين الأذانين كما يصلي قبل العصر والعشاء لا لأنها سنة راتبة فهذا جائز، وإن كان الرجل مع قوم يصلونها؛ فإن كان مطاعاً إذا تركها وبين لهم السنة لم ينكروا عليه بل عرفوا السنة، فتركها حسن، وإن لم يكن مطاعاً ورأى أن في صلاتها تأليفاً لقلوبهم إلى ما هو أنفع، أو دفعاً للخصام والشر لعدم التمكن من بيان الحق لهم وقبولهم له ونحو ذلك فهذا أيضاً حسن.

فالعمل الواحد يكون فعله مستحبّاً تارة، وتركه تارة باعتبار ما يترجح من مصلحة فعله وتركه، بحسب الأدلة الشرعية، والمسلم قد يترك المستحب إذا كان في فعله فساد راجح على مصلحته، كما ترك النبي بناء البيت على قواعد إبراهيم، وقال لعائشة: (لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لنقضت الكعبة ولألصقتها بالأرض، ولجعلت لها بابين؛ باباً يدخل الناس منه، وباباً يخرجون منه)[1]، فترك النبي هذا الأمر الذي كان عنده أفضل الأمرين للمعارض الراجح؛ وهو حدثان عهد قريش بالإسلام لما في ذلك من التنفير لهم، فكانت المفسدة راجحة على المصلحة، ولذلك استحب الأئمة أحمد وغيره أن يدع الإمام ما هو عنده أفضل، إذا كان فيه تأليف المأمومين؛ مثل أن يكون عنده فصل الوتر

(١) البخاري: ١٢٦، ومسلم: ١٣٣٣.

أفضل بأن يسلم في الشفع، ثم يصلي ركعة الوتر، وهو يؤم قوماً لا يرون إلا وصل الوتر، فإذا لم يمكنه أن يتقدم إلى الأفضل كانت المصلحة الحاصلة بموافقته لهم بوصل الوتر أرجح من مصلحة فصله مع كراهتهم للصلاة خلفه، وكذلك لو كان ممن يرى المخافتة بالبسملة أفضل أو الجهر بها، وكان المأمومون على خلاف رأيه، ففعل المفضول عنده لمصلحة الموافقة والتأليف التي هي راجحة على مصلحة تلك الفضيلة كان جائزاً حسناً.

وكذلك لو فعل خلاف الأفضل لأجل بيان السنة وتعليمها لمن لم يعلمها كان حسناً؛ مثل أن يجهر بالاستفتاح أو التعوذ أو البسملة ليعرف الناس أن فعل ذلك حسن مشروع في الصلاة، كما ثبت في الصحيح أن عمر بن الخطاب جهر بالاستفتاح، فكان يكبر ويقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك» قال الأسود بن يزيد: صليت خلف عمر أكثر من سبعين صلاة فكان يكبر ثم يقول ذلك، رواه مسلم في صحيحه[1]، ولهذا شاع هذا الاستفتاح حتى عمل به أكثر الناس، وكذلك كان ابن عمر وابن عباس يجهران بالاستعاذة، وكان غير واحد من الصحابة يجهر بالبسملة، وهذا عند الأئمة الجمهور الذين لا يرون الجهر بها سنة راتبة، كان ليعلم الناس أن قراءتها في الصلاة سنة، كما ثبت في الصحيح أن ابن عباس صلى على جنازة فقرأ بأم القرآن جهراً، وذكر أنه فعل ذلك ليعلم الناس أنها سنة.

فهذه الأمور وإن كان أحدها أرجح من الآخر، فمن فعل المرجوح

---

(١) قال الألباني في الإرواء (٢/ ٤٩): صح موصولاً عند ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٩٢/ ١)، وزاد: «ثم يتعوذ».

فقد فعل جائزاً، وقد يكون فعل المرجوح أرجح للمصلحة الراجحة، كما يكون ترك الراجح أرجح أحياناً لمصلحة راجحة، وهذا واقع في عامة الأعمال[1]».

ل ـ قيام الشخص المناسب بالعمل المناسب في الوقت المناسب:

إن الأشخاص لهم استعدادات وإمكانات جسدية وروحية إيمانية يتفاضلون فيها، كما أن الأعمال نفسها تتفاضل بحسب أسباب مباشرتها، وبحسب نوعها وكيفيتها وعددها والأجر المرتب عليها، وبحسب منفعتها للشخص وغيره، وبحسب حاجة الإنسان والمجتمع إليها ونحو ذلك، وفعل الشيء المناسب في الوقت المناسب من الشخص المناسب، في المكان المناسب هو المطلوب، وقد قرر رحمه الله هذا الأسلوب الأمثل في عدة مواضع من كتبه؛ منها قوله: الأفضل يتنوع بتنوع أحوال الناس؛ فمن الأعمال ما يكون جنسه أفضل، ثم يكون تارة مرجوحاً أو منهياً عنه؛ كالصلاة، فإنها أفضل من قراءة القرآن، وقراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، ثم الصلاة في أوقات النهي ـ كما بعد الفجر ووقت الخطبة ـ منهي عنها، والاشتغال حينئذ إما بقراءة أو ذكر أو دعاء أو استماع أفضل من ذلك، وكذلك قراءة القرآن أفضل من الذكر، ثم الذكر في الركوع والسجود هو المشروع دون قراءة القرآن، وكذلك الدعاء في آخر الصلاة هو المشروع دون القراءة والذكر، وقد يكون الشخص يصلح دينه على العمل المفضول دون الأفضل، فيكون أفضل في حقه؛ كما أن الحج في حق النساء أفضل من الجهاد، ومن الناس من تكون القراءة أنفع له من الصلاة، ومنهم من يكون الذكر

---

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٢٤ ـ ص١٩٤ ـ ١٩٨.

أنفع له من القراءة، ومنهم من يكون اجتهاده في الدعاء لكمال ضرورته أفضل له من ذكر هو فيه غافل، والشخص الواحد يكون تارة هذا أفضل له، وتارة هذا أفضل له، ومعرفة حال كل شخص وبيان الأفضل له لا يمكن ذكره في كتاب، بل لا بد من هداية يهدي الله بها عبده إلى ما هو أصلح، وما صدق الله عبد إلا صنع له».

وقال: «ولهذا كان الرباط في الثغور أفضل من المجاروة بمكة والمدينة، والعمل بالرمح والقوس في الثغور أفضل من صلاة التطوع، وأما في الأمصار البعيدة من العدو فهو نظير صلاة التطوع...، وهذه الأعمال كل منها له محل يليق به هو أفضل فيه من غيره، فالسيف عند مواصلة العدو، والطعن عند مقاربته، والرمي عند بعده، أو عند الحائل كالنهر والحصن ونحو ذلك، فكلما كان أنكى في العدو وأنفع للمسلمين فهو أفضل، وهذا يختلف باختلاف أحوال العدو، وباختلاف حال المجاهدين في العدو، ومنه ما يكون الرمي فيه أنفع، ومنه ما يكون الطعن فيه أنفع، وهذا مما يعلمه المقاتلون...، وفي الصحيح أن رجلاً قال: «لا أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام»، فقال علي بن أبي طالب: «الجهاد في سبيل الله أفضل من هذا كله»، فقال عمر بن الخطاب: «لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله، ولكن إذا قضيت الصلاة سألته عن ذلك»، فسأله، فأنزل الله هذه الآية[1]، فبين لهم أن الإيمان والجهاد أفضل من عمارة المسجد الحرام والحج والعمرة والطواف، ومن الإحسان إلى الحجاج بالسقاية، ولهذا

---

(١) ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩]، مسلم: ١٨٧٩.

قال أبو هريرةﷺ: «لأن أرابط ليلة في سبيل الله أحب إلي من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود».

وباب تفضيل بعض الأعمال على بعض، إن لم يُعرف فيه التفضيل، وأن ذلك قد يتنوع بتنوع الأحوال في كثير من الأعمال، وإلا وقع فيها اضطراب كثير؛ فإن في الناس من إذا اعتقد استحباب فعل ورجحانه يحافظ عليه ما لا يحافظ على الواجبات(١)، حتى يخرج به الأمر إلى الهوى والتعصب والحمية الجاهلية، كما تجده فيمن يختار بعض هذه الأمور فيراها شعاراً لمذهبه، ومنهم من إذا رأى ترك ذلك هو الأفضل، يحافظ أيضاً على هذا الترك أعظم من محافظته على ترك المحرمات حتى يخرج به الأمر إلى اتباع الهوى والحمية الجاهلية، كما تجده فيمن يرى الترك شعاراً لمذهبه، وأمثال ذلك، وهذا كله خطأ.

والواجب أن يعطى كل ذي حق حقه، ويوسع ما وسعه الله ورسوله، ويؤلف ما ألف الله بينه ورسوله، ويراعى في ذلك ما يحبه الله ورسوله من المصالح الشرعية والمقاصد الشرعية، ويعلم أن خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وأن الله بعثه رحمة للعالمين، بعثه بسعادة الدنيا والآخرة في كل أمر من الأمور، وأن يكون مع الإنسان من التفصيل ما يحفظ به هذا الإجمال، وإلا فكثير من الناس يعتقد هذا مجملاً ويدعه عند التفصيل؛ إما جهلاً، وإما ظلماً وإما اتباعاً للهوى(٢)».

---

(١) وهذه المحافظة لا بأس بها، بل قد تتأكد إذا كانت السنة مجهولة، أو لا يعمل بها إلا القليل لئلا تترك ثم تنسى.

(٢) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٢٢، ص٣٠٨، وج٢٨، ص١١و١٢، وج٢٤، ص١٩٩.

٤ ـ ٣ ـ ٤: أساليبه التربوية التي تعنى بالجوانب التعليمية والتربوية:

لقد باشر الإمام ابن تيمية التربية والتعليم والتوجيه والإشراف التربوي وغيرها شخصياً لسنوات عديدة، وفي بلدان ومناطق مختلفة، وبيئات متنوعة، وثقافات كثيرة، وأحوال مختلفة، مع ما له من العلوم والخبرات التي اكتسبها في صغره، وأثناء تعلمه، كل ذلك مكنه من القيام بهذه المهمة الغالية العالية بفعالية، آتت أكلها في حياته وبعد موته.

٤ ـ ٣ ـ ٥: المبادئ والأسس التي تعنى بالجوانب التربوية والتعليمية:

لقد كان ابن تيمية يسعى دوماً إلى تكثير الخير وتشجيع أهله، وتقليل الشر والفساد بأي وسيلة ممكنة مشروعة جائزة، عن خبرة ودراية ووضوح هدف، مراعيّا التدرج، آخذاً بالأولويات، مجتنباً تضخيم الوسيلة على الهدف، فقرر بذلك مبادئ وأسساً تربوية رفيعة، مأخوذة من الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح؛ كان منها:

أ ـ تربية المتعلم على مبدأ الإخلاص لله، ومتابعة النبي ﷺ:

هذا هو أصل المبادئ التي يجب أن يُربى الناس عليها، فلا يغفل عنها أبداً، ولهذا قال رحمه الله[1]: «على المتعلم أن يحسن نيته في ذلك ويقصد به وجه الله تعالى، وفي الصحيحين أن النبي قيل له: يا رسول الله! الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٢٨ ـ ص١٣ ـ ١٨، و٢١ ـ ٢٢، و٢٥.

الله)[1]، فإذا كان المجاهد الذي يقاتل حمية للمسلمين، أو يقاتل رياء للناس ليمدحوه، أو يقاتل لما فيه من الشجاعة، لا يكون قتاله في سبيل الله عزّ وجلّ، حتى يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فكيف من يكون أفضل تعلمه صناعة القتال مبنيّاً على أساس فاسد، ليعاون شخصا مخلوقاً على شخص مخلوق، فمن فعل ذلك كان من أهل الجاهلية الجهلاء، والتتر الخارجين عن شريعة الإسلام، ومثل هؤلاء يستحقون العقوبة البليغة الشرعية التي تزجرهم وأمثالهم عن مثل هذا التفرق والاختلاف، حتى يكون الدين كله لله، والطاعة لله ورسوله، ويكونون قائمين بالقسط، يوالون لله ورسوله، ويحبون لله ويبغضون لله، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر».

وقال أيضاً: «وجماع الدين شيئان: أحدهما: أن لا نعبد إلا الله تعالى.

والثاني: أن نعبده بما شرع، لا نعبده بالبدع، كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه، قيل له: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، وكان عمر بن الخطاب يقول في دعائه: اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً.

وهذا هو دين الإسلام الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه، وهو الاستسلام لله وحده، فمن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته، وقد

(١) البخاري: ٧٤٥٨، ومسلم: ١٩٠٤.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، ومن يستسلم لله ولغيره كان مشركا، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]». ومن دلائل الإخلاص النصح للمتعلم كما قال: «وعلى المعلم أن ينصح للمتعلم ويجتهد في تعليمه».

ب ـ التربية على مبدأ: «إنما الطاعة في المعروف[(١)]»:

قال رحمه الله: «وإذا جنى شخص فلا يجوز أن يعاقب بغير العقوبة الشرعية، وليس لأحد من المتعلمين والأستاذين أن يعاقبه بما يشاء، وليس لأحد أن يعاونه ولا يوافقه على ذلك؛ مثل أن يأمر بهجر شخص فيهجره بغير ذنب شرعي، أو يقول: أقعدته أو أهدرته أو نحو ذلك، فإن هذا من جنس ما يفعله القساقسة والرهبان مع النصارى، والحزابون مع اليهود، ومن جنس ما يفعله أئمة الضلالة والغواية مع أتباعهم، وقد قال الصديق الذي هو خليفة رسول الله في أمته: «أطيعوني ما أطعت الله، فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم»، وقد قال النبي ﷺ: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[(٢)]، وقال: (من أمَرَكم بمعصية الله فلا تطيعوه)[(٣)]، فإذا كان المعلم أو الأستاذ قد أمر بهجر شخص، أو بإهداره وإسقاطه وإبعاده ونحو ذلك، نظر فيه؛ فإن كان قد فعل ذنباً شرعيّاً، عوقب بقدر ذنبه بلا زيادة، وإن لم يكن أذنب ذنباً شرعيّاً لم يجز أن يعاقب بشيء لأجل غرض المعلم أو غيره».

---

(١) هو قطعة من حديث أخرجه البخاري: ٤٣٤٠، ومسلم: ١٨٤٠.

(٢) أحمد: ٥/ ٦٦.

(٣) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٢٨ ـ ص١٦، والحديث أخرجه ابن ماجه: ٢٨٦٣.

ج ـ التربية على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبعد عن أسباب الفتن:

لقد أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى، ومدح الأمة بذلك فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وبهذا وصى لقمان ابنه فقال له: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧]، فجمع له بين فعل الخير ودعوة الناس إليه والصبر على ما يلقاه في سبيل ذلك، وهذه هي وظيفة الرسل، فما أحوج المربون والمعلمون ـ اليوم ـ إلى تربية الناس على فعل الخير ودعوة الناس إليه، وترك المنكرات وتحذير الناس منها، وقد أوصى ابن تيمية المعلمين بمثل هذا فقال: «عليهم أن يأتمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر، ولا يدعوا بينهم من يظهر ظلماً أو فاحشة، ولا يدعوا صبيّاً أمرد يتبرج، أو يظهر ما يفتن به الناس، ولا أن يعاشر من يتهم بعشرته، ولا يكرم لغرض فاسد[(١)]».

د ـ تربية المتعلمين على نصرة الحق وأهله:

لابد من التأكيد على هذه الحقيقة، وهي من أهم ما يجب أن يربى عليه الناس، ولهذا يقول: «فإن كان أستاذ أحد مظلوماً نصره، وإذا كان ظالماً لم يعنه على الظلم بل يمنعه منه، كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال ﷺ: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قيل يا رسول الله: أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: تمنعه من الظلم، فذلك نصرك إياه)[(٢)].

---

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٢٨ ـ ص٢٠.

(٢) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٢٨ ـ ص١٦و١٧، والحديث عند البخاري: ٢٤٤٣ و٢٤٤٤، ومسلم: ٢٥٨٤.

وإذا وقع بين معلم ومعلم، أو تلميذ وتلميذ، أو معلم وتلميذ خصومة ومشاجرة، لم يجز لأحد أن يعين أحدهما حتى يعلم الحق، فلا يعاونه بجهل ولا بهوى، بل ينظر في الأمر؛ فإذا تبين له الحق أعان المحق منهما على المبطل، سواء كان المحق من أصحابه أو أصحاب غيره، وسواء كان المبطل من أصحابه أو أصحاب غيره، فيكون المقصود عبادة الله وحده، وطاعة رسوله، واتباع الحق، والقيام بالقسط، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]، يقال لوى يلوي لسانه، فيخبر بالكذب، والإعراض أن يكتم الحق، فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس.

ومن مال مع صاحبه سواء كان الحق له أو عليه فقد حكم بحكم الجاهلية، وخرج عن حكم الله ورسوله، والواجب على جميعهم أن يكونوا يداً واحدة مع الحق على المبطل، فيكون المعظم عندهم من عظمه الله ورسوله، والمقدم عندهم من قدمه الله ورسوله، والمحبوب عندهم من أحبه الله ورسوله، والمهان عندهم من أهانه الله، بحسب ما يرضي الله ورسوله، لا بحسب الأهواء، فإنه من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه، فهذا هو الأصل الذي عليهم اعتماده، وحينئذ فلا حاجة إلى تفرقهم وتشيعهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

هـ التربية على عدم التحزب لأحد من الخلق إلا للحق:

قال رحمه الله: «ليس للمعلمين أن يحزّبوا الناس ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونون مثل الإخوة المتعاونين على البر والتقوى».

وقال عن الطالب: «ولا يشد وسطه لا لمعلمه ولا لغير معلمه، فإن شد الوسط لشخص معين وانتسابه إليه ـ كما ذكر في السؤال ـ من بدع الجاهلية، ومن جنس التحالف الذي كان المشركون يفعلونه، ومن جنس تفرق قيس ويمن، فإن كان المقصود بهذا الشد والإنتماء التعاون على البر والتقوى، فهذا قد أمر الله به ورسوله له ولغيره بدون هذا الشد، وإن كان المقصود به التعاون على الإثم والعدوان، فهذا قد حرمه الله ورسوله، فما قصد بهذا من خير ففي أمر الله ورسوله بكل معروف استغناء عن أمر المعلمين، وما قصد بهذا من شر فقد حرمه الله ورسوله، فليس لمعلم أن يحالف تلامذته على هذا، ولا لغير المعلم أن يأخذ أحداً من تلامذته لينسبوا إليه على الوجه البدعي لا ابتداء ولا إفادة، وليس له أن يجحد حق الأول عليه، وليس للأول أن يمنع أحداً من إفادة التعلم من غيره، وليس للثاني أن يقول: شد لي وانتسب لي دون معلمك الأول، بل إن تعلم من اثنين فإنه يراعي حق كل منهما، ولا يتعصب لا للأول ولا للثاني، وإذا كان تعليم الأول له أكثر، كانت رعايته لحقه أكثر. . . .

ولا شد وسط لشخص ليتابعه في كل شيء، ولا يحالفه على غير ما أمر الله به ورسوله، وحينئذ فلا ينتقل أحد عن أحد إلى أحد، ولا ينتمي أحد لا لقيطاً ولا ثقيلاً ولا غير ذلك من أسماء الجاهلية، فإن هذه

الأمور إنما ولدها كون الأستاذ يريد أن يوافقه تلميذه على ما يريد، فيوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه مطلقاً، وهذا حرام؛ ليس لأحد أن يأمر به أحداً ولا يجيب عليه أحداً، بل تجمعهم السنة وتفرقهم البدعة، ويجمعهم فعل ما أمر الله به ورسوله، وتفرق بينهم معصية الله ورسوله، حتى يصير الناس أهل طاعة الله، أو أهل معصية الله، فلا تكون العبادة إلا لله عزّ وجلّ، ولا الطاعة المطلقة إلا له سبحانه ولرسوله.

ولا ريب أنهم إذا كانوا على عادتهم الجاهلية؛ أي من علّمه أستاذ كان محالفاً له، كان المنتقل عن الأول إلى الثاني ظالماً باغياً ناقضاً لعهده، غير موثوق بعقده، وهذا أيضاً حرام وإثم، هذا أعظم من إثم من لم يفعل مثل فعله، بل مثل هذا إذا انتقل إلى غير أستاذه وحالفه كان قد فعل حراماً، فيكون مثل لحم الخنزير الميت، فإنه لا بعهد الله ورسوله أوفى، ولا بعهد الأول، بل كان بمنزلة المتلاعب الذي لا عهد له ولا دين له ولا وفاء، وقد كانوا في الجاهلية يحالف الرجل قبيلة، فإذا وجد أقوى منها نقض عهد الأولى وحالف الثانية، وهو شبيه بحال هؤلاء، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩١].

ومن حالف شخصاً على أن يوالي من والاه ويعادي من عاداه، كان من جنس التتر المجاهدين في سبيل الشيطان، ومثل هذا ليس من المجاهدين في سبيل الله تعالى، ولا من جند المسلمين، ولا يجوز أن يكون مثل هؤلاء من عسكر المسلمين، بل هؤلاء من عسكر الشيطان، ولكن يحسن أن يقول لتلميذه: عليك عهد الله وميثاقه أن توالي من والى الله ورسوله، وتعادي من عادى الله ورسوله، وتعاون على البر والتقوى، ولا تعاون على الإثم والعدوان، وإذا كان الحق معي نصرت الحق، وإن

كنت على الباطل لم تنصر الباطل، فمن التزم هذا كان من المجاهدين في سبيل الله تعالى، الذين يريدون أن يكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا[(١)]».

و ـ التربية على حرِّية الرأي المنضبط:

لا يجوز كبت حريّات المتعلمين، أو حملهم على انتحال فكرة أو رأي لم يثبت عليه دليل، أو كان له ما يعارضه، بل الواجب إقناعهم بالحق، فإن الله تعالى لم يُكره خلقه على الحق والإيمان مع محبته لهم، وقدرته عليهم، وإنما جعل لهم قوى اختيارية يختارون بها ما يرونه مناسباً، بعدما رغبهم في الخير، وحذرهم من الشر، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]، وفي هذا الصدد يقول رحمه الله: «وليس لأحد منهم[(٢)] أن يأخذ على أحد عهداً بموافقته على كل ما يريده، وموالاة من يواليه ومعاداة من يعاديه، بل من فعل هذا كان من جنس جنكزخان وأمثاله، الذين يجعلون من وافقهم صديقاً والياً، ومن خالفهم عدوّاً باغياً، بل عليهم وعلى أتباعهم عهد الله ورسوله بأن يطيعوا الله ورسوله، ويفعلوا ما أمر الله به ورسوله، ويحرموا ما حرم الله ورسوله، ويدعوا حقوق المعلمين كما أمر الله ورسوله».

ز ـ التربية على مبدأ قبول الحق ممن أتى به:

يجب أن يربى الناس جميعاً على أن يقبلوا الحق ممن أتى به، سواء كان محباً أو مبغضاً، موافقاً أو مخالفاً؛ لأن الحق ضالة المسلم أنى

---

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٢٨ ـ ص١٤ ـ ٢٢، بتصرف يسير.

(٢) أي المعلمين، ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٢٨ ـ ص١٦.

وجدها فهو أحق بها، ولهذا يقول رحمه الله: «فإذا كان المشايخ والعلماء في أحوالهم وأقوالهم المعروف والمنكر، والهدى والضلال، والرشاد والغي، وعليهم أن يردوا ذلك إلى الله والرسول، فيقبلوا ما قبله الله ورسوله، ويردوا ما رده الله ورسوله، فكيف بالمعلمين وأمثالهم، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩][١].

ح ـ التربية على مبدأ احترام المتعلم للمعلم والوفاء له:

لقد أسس هذا المبدأ رسول الله ﷺ، وذلك حين قال: (من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه)[٢]، ولا شك أن التعليم من أجل المعروف وأنفعه، وقد أكد هذا المعنى رحمه الله فقال: «على المتعلم أن يعرف حرمة أستاذه ويشكر إحسانه إليه، فإنه من لا يشكر الناس لا يشكر الله، ولا يجحد حقه ولا ينكر معروفه، وإذا كان الرجل قد علمه أستاذ عرف قدر إحسانه إليه، وشَكَرَه».

ط ـ التربية على مبدأ احترام زملاء المهنة والآخرين:

إن احترام المعلم لرفاقه واجب شرعي، محبوب طبعاً وخُلقاً، مرضي عقلاً، وذلك من معاني قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنٗا وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦]، والصاحب بالجنب هو الرفيق في سفر وعمل

---

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٢٨ ـ ص٧ ـ ٢٥.
(٢) أبو داود: ٥١٠٨.

ومهنة ونحوها، والمربون والمعلمون الذين يجمعهم هدف واحد، ومبنى واحد، وعمل واحد، من أحوج الناس إلى الاجتماع على الحب والخير، والابتعاد عن أسباب الفساد والخصومات؛ لأن ذلك يؤثر سلباً على عملهم، وينعكس على المتعلمين أيضاً، ويورث الأحقاد والضغائن بينهم، إلى غير ذلك من المفاسد التي تعود على المتسبب فيها بالضرر قبل غيره.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله[١]: «ليس لأحد من المعلمين أن يعتدي على الآخر ولا يؤذيه بقول ولا فعل بغير حق، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨]، وليس لأحد أن يعاقب أحداً على غير ظلم ولا تعدي حد، ولا تضييع حق، بل لأجل هواه، فان هذا من الظلم الذي حرم الله ورسوله».

وقال: «إذا اجتمعوا على طاعة الله ورسوله وتعاونوا على البر والتقوى، لم يكن أحد مع أحد في كل شيء، بل يكون كل شخص مع كل شخص في طاعة الله ورسوله، ولا يكونون مع أحد في معصية الله ورسوله، بل يتعاونون على الصدق والعدل والإحسان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصر المظلوم، وكل ما يحبه الله ورسوله، ولا يتعاونون لا على ظلم ولا عصبية جاهلية، ولا اتباع الهوى بدون هدى من الله، ولا تفرق ولا اختلاف».

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٢٨ ـ ص١٤ و١٩.

٤ ـ ٣ ـ ٦: أساليبه التربوية التي تعنى بالجوانب التربوية والتعليمية:

أ ـ استعمال الألفاظ الشرعية عوضاً عن الاصطلاحات المحدثة:

إن استعمال الألفاظ الشرعية يعتبر صمّام أمان لمحافظة العبد على تمسكه بشرع ربه ـ خصوصاً في العقائد، وهكذا سائر الأحكام الشرعية ـ كما أنه يجنبه الوقوع في تحريف الدين لفظاً ومعنى، كما وقعت فيه طوائف، وقد كان ابن تيمية متحرِّياً لاستعمال الألفاظ الشرعية في غالب أحواله، فسلِم بذلك من أنواع التحريف وصوره، ومن ذلك أنه لما كان في مجلس نائب السلطنة الأفرم فسأله عن اعتقاده، وكان الشيخ أحضر عقيدته الواسطية قال: «هذه كتبتها من نحو سبع سنين قبل مجيء التتار إلى الشام، فقُرئت في المجلس، كان سبب كتابتها؛ أن بعض قضاة واسط من أهل الخير والدين شكا ما الناس فيه ببلادهم في دولة التتر من غلبة الجهل والظلم ودروس الدين والعلم، وسألني أن أكتب له عقيدة، فقلت له: قد كتب الناس عقائد أئمة السنة، فألح في السؤال وقال: ما أحب إلا عقيدة تكتبها أنت، فكتبت له هذه العقيدة وأنا قاعد بعد العصر، فأشار الأمير لكاتبه فقرأها على الحاضرين حرفاً حرفاً، فاعترض بعضهم على قولي فيها: «ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل»، ومقصوده أن هذا ينفي التأويل الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره؛ إما وجوباً وإما جوازاً.

فقلت: إني عدلت عن لفظ التأويل إلى لفظ التحريف؛ لأن التحريف اسم جاء القرآن بذمه، وأنا تحريت في هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة،

فنفيت ما ذمه الله من التحريف، ولم أذكر فيها لفظ التأويل؛ لأنه لفظ له عدة معان كما بينته في موضعه من القواعد، فإن معنى لفظ التأويل في كتاب الله غير لفظ التأويل في اصطلاح المتأخرين من أهل الأصول والفقه، وغير معنى لفظ التأويل في اصطلاح كثير من أهل التفسير والسلف.

وقلت لهم: ذكرت في النفي التمثيل ولم أذكر التشبيه؛ لأن التمثيل نفاه الله بنص كتابه حيث قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وأخذوا يذكرون نفي التشبيه والتجسيم ويطنبون في هذا، ويعرِّضون بما ينسبه بعض الناس إلينا من ذلك. فقلت: قولي: «من غير تكييف ولا تمثيل ينفي كل باطل، وإنما اخترت هذين الاسمين لأن التكييف مأثور نفيه عن السلف؛ كما قال ربيعة ومالك وابن عيينة وغيرهم المقالة التي تلقاها العلماء بالقبول: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»، فاتفق هؤلاء السلف على أن الكيف غير معلوم لنا، فنفيت ذلك اتباعاً لسلف الأمة، وهو أيضاً منفي بالنص؛ فإن تأويل آيات الصفات يدخل فيها حقيقة الموصوف، وحقيقة صفاته غير معلومة، وهذا من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله، كما قررت ذلك في قاعدة مفردة ذكرتها في التأويل، والمعنى والفرق بين علمنا بمعنى الكلام وبين علمنا بتأويله، وكذلك التمثيل منفي بالنص والإجماع القديم مع دلالة العقل على نفيه ونفي التكييف؛ إذ كُنْه الباري غير معلوم للبشر، وذكرت في ضمن ذلك كلام الخطابي الذي نقل أنه مذهب السلف؛ وهو إجراء آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها، إذ الكلام في الصفات فرع الكلام في الذات يحتذي حذوه، ويتبع فيه مثاله، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات تكييف، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف.

فقال أحد كبراء المخالفين: «فحينئذ يجوز أن يقال: هو جسم لا كالأجسام! فقلت له أنا وبعض الفضلاء: «إنما قيل إنه يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله، وليس في الكتاب والسنة أن الله جسم حتى يلزم هذا، وأول من قال: إن الله جسم! هشام بن الحكم الرافضي.

وأما قولنا: فهم الوسط في فرق الأمة كما أن الأمة هي الوسط في الأمم، فهم وسط في باب صفات الله بين أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة.

فقيل: أنت صنفت اعتقاد الإمام أحمد، وأرادوا قطع النزاع لكونه مذهباً متبوعاً، قلت: ما خرجت إلا عقيدة السلف الصالح جميعهم، ليس للإمام أحمد اختصاص بهذا، وقلت: قد أمهلت من خالفني في شيء منها ثلاث سنين، فإن جاء بحرف واحد عن القرون الثلاثة يخالف ما ذكرته فأنا أرجع عن ذلك، وعليَّ أن آتي بنقول جميع الطوائف عن القرون الثلاثة يوافق ما ذكرته من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية والأشعرية وأهل الحديث وغيرهم[١].

ب ـ التناسب بين منفعة العمل ومشقته:

لقد قرر هذا الأسلوب بقوله: «الله سبحانه إنما حرم علينا الخبائث لما فيها من المضرة والفساد، وأمرنا بالأعمال الصالحة لما فيها من المنفعة والصلاح لنا، وقد لا تحصل هذه الأعمال إلا بمشقة؛ كالجهاد، والحج، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وطلب العلم، فيحتمل تلك المشقة ويثاب عليها لما يعقبه من المنفعة، كما قال النبي ﷺ لعائشة لما اعتمرت

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٣ ـ ص١٩٤ـ ١٩٧.

من التنعيم عام حجة الوداع: (أجرك على قدر نصبك)[١].

وأما إذا كانت فائدة العمل منفعة لا تقاوم مشقته، فهذا فساد والله لا يحب الفساد، ومثال ذلك منافع الدنيا؛ فإن من تحمل مشقة لربح كثير أو دفع عدو عظيم كان هذا محموداً، وأما من تحمل كلفاً عظيمة ومشاقّاً شديدة لتحصيل يسير من المال أو دفع يسير من الضرر كان بمنزلة من أعطى ألف درهم ليعتاض بمائة درهم، أو مشى مسيرة يوم ليتغدى غدوة يمكنه أن يتغدى خيراً منها في بلده، فالأمر المشروع المسنون جميعه مبناه على العدل والاقتصاد والتوسط الذي هو خير الأمور وأعلاها؛ كالفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، فمن كان كذلك فمصيره إليه إن شاء الله».

ج ـ الحث على العلم النافع والعمل الصالح، والتشجيع عليه بذكر ثوابه:

إن النفس تنشط ـ عادة ـ حينما تشجع ويذكر لها ثواب ما تطالب به من أعمال، ولهذا ذكر الله ثواب الأعمال في آيات كثيرة، حثّاً وترغيباً للنفوس، وتنشيطاً للهمم، أما ابن تيمية فقال: اعلم أن الذي يفعله ـ يعني الدعاء ـ شرعاً وعبادة، إنما يسعى في مصلحة نفسه وطلب حظوظه المحمودة، فهو يطلب مصلحة دنياه وآخرته، بخلاف الذي يفعله طبعا؛ فإنه إنما يطلب مصلحة دنياه فقط؛ كما قال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة: ٢٠١ ـ ٢٠٢]،

---

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٢٥ ـ ص٢٨٢ ـ ٢٨٢، والحديث رواه البخاري: ١٧٨٧، ومسلم: ١٢١١.

وحينئذ فطالب الجنة والمستعيذ من النار إنما يطلب حسنة الآخرة فهو محمود، ومما يبين الأمر في ذلك أن العبد لا يفعل مأموراً ولا يترك محظوراً؛ فلا يصلي، ولا يصوم، ولا يتصدق، ولا يحج، ولا يجاهد، ولا يفعل شيئاً من القربات، فإن ذلك إنما فائدته حصول الثواب ودفع العقاب، فإذا كان هو لا يطلب حصول الثواب الذي هو الجنة، ولا دفع العقاب الذي هو النار فلا يفعل مأموراً ولا يترك محظوراً».

د ـ المكافاة على تعليم الناس الخير:

إن الشرع والعقل والعرف اتفقت على أن الناس أوقاتهم وقدراتهم العلمية والعملية مضمونة، وهي ملك لهم، فمن أراد إشغال شخص في أمر ينفعه، وجب عليه تعويضه عن ذلك بما يتراضيا عليه، ولقد قص لنا القرآن قصة استئجار الرجل الصالح موسى للسقي، وما اتفقا عليه عوض ذلك، فقال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾ [القصص: ٢٧ ـ ٢٨]، فإذا كان هذا في استئجار أجير للسقي بالماء، فما الظن بمن سقى العقول علماً، والنفوس هدى، والقلوب تقى، وتعاهدها بالسقي حتى زكت ونمت وأثمرت؟!

ولقد زوج النبي ﷺ رجلاً، وجعل مهر المرأة تعليمه إياها القرآن[1].

وقد أكد رحمه الله هذا المعنى فقال: «وللمعلمين أن يطلبوا جعلاً ممن يعلمونه هذه الصناعة، فإنّ أخذ الجعل والعوض على تعليم هذه

(١) البخاري: ٥٨٧١ و ٢٣١٠، ومسلم: ١٤٢٥.

الصناعه جائز، والاكتساب بذلك أحسن المكاسب، ولو أهدى المعلم[١] لأستاذه لأجل تعليمه، وأعطاه ما حصل له من السبق أو غير السبق عوضاً عن تعليمه وتحصيله الآلات واستكرائه الحانوت، كان ذلك جائزاً للأستاذ قبوله، وبذل العوض في ذلك من أفضل الأعمال[٢]».

هـ بذل الجوائز على تعلم الخير، وما فيه مصلحة للمسلمين، والتنافس في ذلك:

وفي هذا الصدد يقول رحمه الله: «إن الشريعة مضت بأنه يجوز أن يبذل العوض للمسابقين من غيرهما، فإذا أخرج ولي الأمر مالاً من بيت المال للمسابقين بالنشاب والخيل والإبل، كان ذلك جائزاً باتفاق الأئمة، ولو تبرع رجل مسلم ببذل الجعل في ذلك كان مأجوراً على ذلك، وكذلك ما يعطيه الرجل لمن يعلمه ذلك، هو ممن يثاب عليه، وهذا لأن هذه الأعمال منفعتها عامة للمسلمين، فيجوز بذل العوض من آحاد المسلمين، فكان جائزاً.

وإن أخرجا جميعاً العوض، وكان معهما آخر محللاً يكافيها، كان ذلك جائزاً، وإن لم يكن بينهما محلل فبذل أحدهما شيئاً طابت به نفسه من غير إلزام له، أطعم به الجماعة أو أعطاه للمعلم، أو أعطاه لرفيقه كان ذلك جائزاً.

وأصل هذا أن يعلم أن هذه الأعمال عون على الجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله مقصوده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا[٣]».

---

(١) هكذا بالأصل، ولعله أراد: المعلَّم أو المتعلم.

(٢) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٢٨ ـ ص٩ ـ ١٣، وص٢٢.

(٣) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٢٨ ـ ص٢٢.

و ـ تعويد الصبي فعل الخير، وبيان حكمة القيام به، وتشجيعه عليه بكل ممكن:

إن طبيعة الإنسان التشجع على العمل إذا علم نفعه وفائدته، بخلاف ما لو كانت حكمته لا تظهر لصاحبه، كالأعمال التي يُختبر بها طاعته؛ فلا يدري لم يقوم بها، ولهذا جاءت نصوص كثيرة تبيّن وجه الحكمة من الأمر أو النهي، والصبيان أشد رغبة في معرفة ما الذي يستفيدونه مما يقومون به، فينبغي العناية بذلك، ومن هنا قال ابن تيمية مؤكداً هذه الحقيقة: «فالصبي يثاب على صلاته وصومه وحجه وغير ذلك من أعماله، ويفضل بذلك على من لم يعمل كعمله، وهذا غير ما يفعل به إكراماً لأبويه، كما أنه في النعم الدنيوية قد ينتفع بما يكسبه وبما يعطيه أبواه، ويتميز بذلك على من ليس كذلك».

وقال أيضاً[(١)] ينبغي تيسير طريق الخير والطاعة والإعانة عليه، والترغيب فيه بكل ممكن، مثل أن يبذل لولده وأهله أو رعيته ما يرغبهم في العمل الصالح من مال أو ثناء أو غيره، ولهذا شرعت المسابقة بالخيل والإبل والمناضلة بالسهام، وأخذ الجعل عليها، لما فيه من الترغيب في إعداد القوة ورباط الخيل للجهاد في سبيل الله، حتى كان النبي ﷺ يسابق بين الخيل هو وخلفاؤه الراشدون، ويخرجون الأسباق من بيت المال، وكذلك عطاء المؤلفة قلوبهم، فقد روي أن الرجل كان يسلم أول النهار رغبة في الدنيا فلا يجيء آخر النهار إلا والإسلام أحب إليه مما طلعت عليه الشمس.

---

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٤ ـ ص٢٧٨، وج٢٨ ـ ص٣٦٩ـ٣٧٠.

ز ـ مبادرة القدوة إلى العمل بما يطالب الناس به:

لقد ذمَّ ربنا تعالى من يدعو الناس إلى شيء وهو لا يفعله[1]، إذ إن من دواعي امتثال الناس إلى ما يطالبون به من الخير هو مشاهدة فعل من يقتدون به، ليحصل لهم بذلك اليقين بصدقه فيما يدعو إليه، فيتشجعوا على الامتثال له، ولهذا لما قال ﷺ لأصحابه في صلح الحديبية: **(قوموا فانحروا ثم احلقوا)**، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث

---

(١) كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٣]، قال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة: ٤٤]، (١/ ١٣٥ ـ ١٣٧): قال ابن جريج: أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة ويدعون العمل بما يأمرون به الناس، فعيّرهم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة. . .، فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقال رسول الله ﷺ: (مثل العالم الذي يعلِّم الناس الخير ولا يعمل به، كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه)، حسنه المنذري وجوَّده الألباني في الصحيحة (٧/ ١١٣٣)، وقال ﷺ: (مررت ليلة أسري بي على أناس تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم) وهو في الصحيحة (١/ ٥٨٦)، وقال ﷺ: (يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى بالنار فتندلق به أقتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطوف به أهل النار فيقولون: يا فلان ما أصابك؟! ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه) رواه البخاري: ٣٢٦٧، ومسلم: ٢٩٨٩. انتهى بتصرف.

مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك؛ نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا![(١)]

ولهذا قال ابن تيمية: ليس كل من كان قادراً أو مريداً كان حكيماً، ولا كل من كان له علم يكون حكيماً حتى يكون عاملاً بعلمه، قال ابن قتيبة وغيره: الحكمة هي العلم والعمل به[(٢)] . . .، ولما أفتى ـ رحمه الله ـ الناسَ بالفطر مدة قتالهم التتار، أفطر أمامهم، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده، ليعلمهم أن فطرهم أقوى لهم على قتال العدو، فأفطر الناس، وكان يتأول في الشاميين قوله ﷺ: (إنكم ملاقو العدو غداً، والفطر أقوى لكم)، فعزم عليهم ﷺ في الفطر عام الفتح[(٣)].

ح ـ الوقاية من الفتن والتفطن لمواضع الخلل والقضاء عليها قبل استفحالها:

إن الوقاية خير من العلاج، ومعظم النار من مستصغر الشرر، فيجب على المربي الترقب لمواضع الخلل والنقص والمعايب وتلافيها، أو

(١) البخاري: ٢٧٣١ و٢٧٣٢، وأحمد: ١٨٩٠٩ و١٨٩١٠.
(٢) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٨ ـ ص٢٩٨.
(٣) كما في حديث أبي سعيد الخدري عند مسلم: ٢٦٢٤ و١١٢٠، وبهذا يكون قد جمع ـ رحمه الله ـ بين تذكير الناس بالسنة وتطبيقها العملي، والتخفيف عليهم، وطمأنتهم، وإزالة ما قد يساورهم من الفطر في نهار رمضان.

محاولة سدها وإصلاحها أولاً بأول، ولا يستهين بها فيتركها حتى تستفحل وتنتشر ثم لا تنفع معها المعالجة، وربما كلفت كثيراً، أو جرت شراً مستطيراً، وقد أكد الإمام ابن تيمية هذه الحقيقة فقال: «وحسم الشر بحسم أصله ومادته، أجود من دفعه بعد وقوعه[١]».

ومن هذا المنطلق قال رحمه الله: «الشر والمعصية ينبغي حسم مادته وسد ذريعته ودفع ما يفضي إليه إذا لم يكن فيه مصلحة راجحة، مثال ذلك ما نهى عنه النبي فقال: (لا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان)، وقال: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يومين إلا ومعها زوج أو ذو محرم)، فنهى ﷺ عن الخلوة بالأجنبية والسفر بها لأنه ذريعة إلى الشر، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما كان يعس بالمدينة فسمع امرأة تتغنى بأبيات تقول فيها:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها   هل من سبيل إلى نصر بن حجاج

فدعا به، فوجده شاباً حسناً، فحلق رأسه، فازداد جمالاً! فنفاه إلى البصرة لئلا تفتتن به النساء، وروي عنه: أنه بلغه أن رجلاً يجلس إليه الصبيان، فنهى عن مجالسته، فإذا كان من الصبيان من تخاف فتنته على الرجال أو على النساء، مُنع وليه من إظهاره لغير حاجة، أو تحسينه لاسيما بتبرجه في الحمامات، وإحضاره مجالس اللهو والأغاني، فإن هذا مما ينبغي التعزير عليه، وكذلك من ظهر منه الفجور يمنع من تملك الغلمان المردان الصباح، ويفرق بينهما[٢].

---

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج١٧ ـ ص٥٣٦.

(٢) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٢٨ ـ ص٣٧٠ ـ ٢٧١.

ط ـ إسناد الأمور إلى الأقدر عليها والأحفظ لها دون غيره:

ينبغي أن تسند الأمور إلى الشخص المناسب لها من جهة علمه بها، وقدرته عليها، وحفظه لها، وأداء الأمانة فيها، كما قالت تلك المرأة اللبيبة لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأن لا توكل إلى شركاء متشاكسون فإنه مضيعة لها، وقد لحظ هذا الأسلوب الإمام ابن تيمية فقال: «وقد عرف بالعادة أن ما يتناوب الناس على حفظه ضاع، ومن الأمثال السائرة: لا يصلح القدر بين طباخين».

وقال أيضاً: «فاختيار أحدهما ـ يعني الأبوين ـ يضعف رغبة الآخر في الإحسان والصيانة، فلا يبقى الأب تام الرغبة ولا الأم تامة الرغبة في حفظها، وليس الذكر كالأنثى كما قالت امرأة عمران...، فهذه مريم احتاجت إلى من يكفلها ويحضنها حتى أسرعوا إلى كفالتها، فكيف غيرها من النساء، وهذا أمر معروف بالتجربة؛ إن المرأة تحتاج من الحفظ والصيانة ما لا يحتاج إليه الصبي، وكل ما كان أستر لها وأصون كان أصلح لها».

وقال: «إذا كان لابد من رعاية حفظها وصيانتها، وأن للأب أن ينتزعها من الأم إذا لم تكن حافظة لها بلا ريب، فالأب أقدر على حفظها وصيانتها، وهي مميزة لا تحتاج في بدنها إلى أحد، والأب له من الهيبة والحرمة ما ليس للأم، وأحمد وأصحابه إنما يقدمون الأب إذا لم يكن عليها في ذلك حرز، فلو قدر أن الأب عاجز عن حفظها وصيانتها، أو مهمل لحفظها وصيانتها فإنه يقدم الأم في هذه الحالة.

فكل من قدمناه من الأبوين إنما نقدمه إذا حصل به مصلحتها أو اندفعت به مفسدتها، فأما مع وجود فساد أمرها مع أحدهما، فالآخر

أولى بها بلا ريب، حتى الصغير إذا اختار أحد أبويه وقدمناه إنما نقدمه بشرط حصول مصلحته وزوال مفسدته، فلو قدرنا أن الأب ديوث لا يصونه والأم تصونه لم نلتفت إلى اختيار الصبي، فإنه ضعيف العقل قد يختار أحدهما لكونه يوافق هواه الفاسد، ويكون الصبي قصده الفجور ومعاشرة الفجار، وترك ما ينفعه من العلم والدين والأدب والصناعة، فيختار من أبويه من يحصل له معه ما يهواه، والآخر قد يرده ويصلحه، ومتى كان الأمر كذلك فلا ريب أنه لا يمكّن من يفسد معه حاله، والنبي ﷺ قال: (**مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع**)[١].

فمتى كان أحد الأبوين يأمره بذلك، والآخر لا يأمره، كان عند الذي يأمره بذلك دون الآخر، لأن ذلك الآمر له هو المطيع لله ورسوله في تربيته، والآخر عاصٍ لله ورسوله، فلا نقدم من يعصي الله فيه على من يطع الله فيه. . .، ولو اختار الصبي غيره، بل كل من لم يقم بالواجب في ولايته فلا ولاية له عليه، بل إما ترفع يده عن الولاية ويقام من يفعل الواجب، وإما أن نضم إليه من يقوم معه بالواجب، . . .، فلا يمكن أن يقال كل أب فهو أصلح للمميز من الأم، ولا كل أم هي أصلح له من الأب، بل قد يكون بعض الآباء أصلح وبعض الأمهات أصلح، وقد يكون الأب أصلح في حال والأم أصلح في حال، فلم يمكن أن يعين أحدهما في هذا[٢].

(١) أبو داود: ٤٩٤، وصححه الحاكم وابن حبان والألباني وغيرهم.

(٢) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٣٤ ـ ص١٢٢ و١٣١، و ج٣٤ ـ ص١٢٩.

ي - الحوار والمناقشة مع الإنصاف والعدل والاستعداد:

إن طريقة الحوار والسؤال والجواب، من الأساليب التربوية الناجحة قديماً وحديثاً، وقد تكررت في القرآن الكريم، وفي سنة النبي ﷺ مع أصحابه والمخالفين؛ لما فيها من لفت انتباه السامعين، وإعداد أذهانهم لتلقي الجواب الصحيح، وهي من أنفع الأساليب الدعوية لإقناع المخالفين، قال سبحانه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ولابد مع ذلك من العدل وإنصاف الخصم، فالعدل مأمور به في جميع الأحوال، قال القحطاني في نونيته:

ناظر أديباً منصفاً لك عاقلاً وانصفه أنت بحسب ما تريان

ولابد أيضاً من الإخلاص وإرادة النصح وإزاحة الشبهة وبيان الحق بدليله، فيلزم الاستعداد لذلك، ومعرفة مكمن الخطأ المراد توضيحه ومنشؤه، وكيفية الجواب عنه، وأن يكون مطمئناً واثقاً من نفسه، مع العلم بلسان المخالف وأدلته، وطريقته في الحوار ومدى صراحته ومحبته للحق مع الصبر والرفق به ما أمكن، قال رحمه الله: «والمناظرة والمحاجة لا تنفع إلا مع العدل والإنصاف، وإلا فالظالم يجحد الحق الذي يعلمه، وهو المسفسط والمقرمط، أو يمتنع عن الاستماع والنظر في طريق العلم، وهو المعرض عن النظر والاستدلال، فكما أن الإحساس الظاهر لا يحصل للمعرض ولا يقوم للجاحد، فكذلك الشهود الباطن لا يحصل للمعرض عن النظر والبحث.

ولما كانت المحاجة لا تنفع إلا مع العدل، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فالظالم ليس علينا أن نجادله بالتي هي أحسن، وإذا حصل من مسلمة أهل الكتاب الذين علموا ما عندهم بلغتهم، وترجموا لنا بالعربية، انتُفع

بذلك في مناظرتهم ومخاطبتهم، كما كان عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وكعب الأحبار وغيرهم يُحدثون بما عندهم من العلم، وحينئذ يستشهد بما عندهم على موافقة ما جاء به الرسول، ويكون حجة عليهم من وجه، وعلى غيرهم من وجه آخر، كما بيناه في موضعه.

فإذا أراد المجادل منهم أن يذكر ما يطعن في القرآن بنقل أو عقل؛ مثل أن ينقل عما في كتبهم عن الأنبياء ما يخالف ما جاء به محمد، أو خلاف ما ذكره الله في كتبهم؛ كزعمهم للنبي: «أن الله أمرهم بتحميم[(١)] الزاني دون رجمه»، أمكن للنبي والمؤمنين أن يطلبوا التوراة ومن يقرؤها بالعربية، ويترجمها من ثقات التراجمة، كعبد الله بن سلام ونحوه، لما قال لحبرهم: «ارفع يدك عن آية الرجم»، فإذا هي تلوح، ورجم النبي ﷺ الزانيين منهما بعد أن أقام عليهم الحجة من كتابهم، وذلك أنه موافق لما أنزل الله عليه من الرجم، وقال: (اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه)[(٢)]، ولهذا قال ابن عباس: محمد من النبيين الذين أسلموا، وهو لم يحكم إلا بما أنزل الله عليه، كما قال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، فإذا احتج أحدهم على خلاف القرآن برواية عن الرسل المتقدمين؛ مثل الذي يروى عن موسى أنه قال: «تمسكوا بالسبت ما دامت السموات والأرض»، أمكننا أن نقول لهم: في أي كتاب هذا أحضروه، وقد علمنا أن هذا ليس في كتبهم، وإنما هو مفترى مكذوب[(٣)]».

(١) قال في اللسان مادة (حمم): حَمَمْت وجهه تحميماً: إذا سودته بالفحم.
(٢) مسلم: ١٧٠٠، وأبو داود: ٤٤٤٧ و ٤٤٤٨، وابن ماجه: ٢٥٥٨.
(٣) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٤ ـ ص١٠٩ ـ ١١٢، بتصرف.

ك ـ تعلم اللغات الأخرى وترجمتها:

إن في تعلم لغات الآخرين منفعة عامة للمتعلم والمسلمين وغيرهم، وأيضا مصلحة للدعوة وتبليغ الدين لغير المسلمين، وهذا واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولهذا كان للنبي ﷺ مترجمون، كما أن في ذلك أمان من كيد الأعداء في كثير من الأحيان، ومن هنا نهى ﷺ أن يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه، فإن ذلك يحزنه[١]، إذ إنه لا يسمع ما يتناجون به، فهكذا الذي لا يفهم ما يقوله أو يكتبه غيره؛ لأنه بمنزلة من يرى متكلماً ولا يسمع ما يقول، ولقد تتطرق ابن تيمية للمعاني السابقة وذكر ضوابط ذلك فقال: يمكن أن يُقرأ من نسخة مترجمة بالعربية، قد ترجمها الثقات بالخط واللفظ العربيين، يُعلم بهما ما عندهم بواسطة المترجمين الثقات من المسلمين، أو ممن يعلم خطهم منا كزيد بن ثابت ونحوه...، والمكاتبة بخطهم، والمخاطبة بلغتهم من جنس واحد، وإن كانا قد يجتمعان، وقد ينفرد أحدهما عن الآخر، مثل كتابة اللفظ العربي بالخط العبري وغيره من خطوط الأعاجم، وكتابة اللفظ العجمي بالخط العربي، وقيل يكتفى بذلك...، ويكذبون ـ أي اليهود ـ في كلامهم وكتابهم، فلهذا لا تقبل الترجمة إلا من ثقة[٢]...، وأما مخاطبة أهل اصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك، وكانت المعاني

---

(١) مسلم: ٢١٨٣.

(٢) (الثقة): كلمة تتضمن عدة معانٍ يجب أن تتوافر في المترجم، فهو يقرر بذلك قاعدة علمية متينة يجب على المترجمين أن يعوها، حتى يصان كلام المتكلم عن العبث به والذهاب به إلى ما يخالف مراده منه، وفي ذلك من قبح تحريف الكلام وإيقاع الضرر بالناس ما فيه، قال ابن كثير في قصص الأنبياء (٢٧): إن نقل الكلام من لغة إلى لغة لا يتيسر لكل أحد، ولا سيما ممن لا يكاد يعرف لغة العرب جيداً، ولا يحيط علماً بفهم كتابه أيضاً.

صحيحة؛ كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم، فإن هذا جائز حسن للحاجة، وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه، ولهذا قال النبي لأم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص ـ وكانت صغيرة ولدت بأرض الحبشة لأن أباها كان من المهاجرين إليها ـ فقال لها: (يا أم خالد هذا سنا)[١]، والسنا بلسان الحبشة الحسن لأنها كانت من أهل هذه اللغة، وكذلك يترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهيمه إياه بالترجمة، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم ويترجمها بالعربية، كما أمر النبي زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود ليقرأ له ويكتب له ذلك، حيث لم يأمن من اليهود عليه[٢].

وقال: وهكذا مناظرة الصابئة الفلاسفة، والمشركين، ونحوهم، فإن الصابىء الفيلسوف إذا ذكر ما عند قدماء الصابئة الفلاسفة من الكلام الذي عُرِّب وتُرجم بالعربية وذكره؛ إما صرفاً، وإما على الوجه الذي تصرف فيه متأخروهم بزيادة أو نقصان، وبسط واختصار، ورد بعضه، وإتيان بمعان أخر ليست فيه، ونحو ذلك. والترجمة والتفسير ثلاث طبقات:

---

(١) البخاري: ٣٠٧١ و ٥٨٢٣، ولفظه: «أتيَ رسول الله ﷺ بثياب فيها خميصة سوداء»، قال: (من ترون نكسوها هذه الخميصة)، فأسكت القوم، قال: (ائتوني بأم خالد)، فأتي بي النبي ﷺ فألبسنيها بيده، وقال: (أبلي واخلقي) مرتين، فجعل ينظر إلى علم الخميصة ويشير بيده إليّ ويقول: (يا أم خالد هذا سنا)، وفي لفظ: أتيت رسول الله ﷺ مع أبي وعليَّ قميص أصفر، قال رسول الله ﷺ: (سنه سنه)، قال عبد الله: وهي بالحبشية حسنة.

(٢) البخاري: ٧١٩٥، وأبو داود: ٣٦٤٥، والترمذي: ٢٧١٥، وفيه قول زيد: «فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له. . .»، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة: ١٨٧.

إحدهما: ترجمة مجرد اللفظ؛ مثل نقل اللفظ بلفظ مرادف، ففي هذه الترجمة تريد أن تعرف أن الذي يعني بهذا اللفظ عند هؤلاء هو بعينه الذي يعني باللفظ عند هؤلاء، فهذا علم نافع؛ إذ كثير من الناس يقيد المعنى باللفظ، فلا يجرده عن اللفظين جميعاً.

والثاني: ترجمة المعنى وبيانه؛ بأن يصور المعنى للمخاطب، فتصوير المعنى له وتفهيمه إياه قدر زائد على ترجمة اللفظ، كما يشرح للعربي كتاباً عربيّاً قد سمع ألفاظه العربية لكنه لم يتصور معانيه ولا فهمها، وتصوير المعنى يكون بذكر عينه أو نظيره، إذ هو تركيب صفات من مفردات يفهمها المخاطب، يكون ذلك المركب صوّر ذلك المعنى، إما تحديداً وإما تقريباً.

الدرجة الثالثة: بيان صحة ذلك وتحقيقه؛ بذكر الدليل والقياس الذي يحقق ذلك المعنى، إما بدليل مجرد، وإما بدليل يبين علة وجوده، وهنا قد يحتاج إلى ضرب أمثلة ومقاييس تفيده التصديق بذلك المعنى، كما يحتاج في الدرجة الثانية إلى أمثلة تصور له ذلك المعنى، وقد يكون نفس تصوره مفيداً للعلم بصدقه، وإذا كفى تصور معناه في التصديق به لم يحتج إلى قياس، ومَثل، ودليل آخر، فإذا عُرف القرآن هذه المعرفة، فالكلام الذي يوافقه أو يخالفه من كلام أهل الكتاب والصابئين والمشركين لا بد فيه من الترجمة للفظ والمعنى أيضاً، وحينئذ فالقرآن فيه تفصيل كل شيء. ..ومعلوم أن الأمة مأمورة بتبليغ القرآن لفظه ومعناه كما أمر بذلك الرسول، ولا يكون تبليغ رسالة الله إلا كذلك، وأن تبليغه إلى العجم قد يحتاج إلى ترجمة لهم، فيترجم لهم بحسب الإمكان، والترجمة قد تحتاج إلى ضرب أمثال لتصوير المعاني، فيكون ذلك من تمام الترجمة، وإذا كان من المعلوم أن أكثر المسلمين بل أكثر المنتسبين

منهم إلى العلم لا يقومون بترجمة القرآن وتفسيره وبيانه، فلأن يعجز غيرهم عن ترجمة ما عنده وبيانه أولى بذلك؛ لأن عقل المسلمين أكمل، وكتابهم أقوم قيلاً، وأحسن حديثاً، ولغتهم أوسع، لا سيما إذا كانت تلك المعاني غير محققة، بل فيها باطل كثير، فإن ترجمة المعاني الباطلة وتصويرها صعب، لأنه ليس لها نظير من الحق من كل وجه، فإذا سُئلنا عن كلام يقولونه: هل هو حق أو باطل؟ ومن أين يتبين الحق فيه والباطل؟ قلنا من القول بالحجة والدليل؛ كما كان المشركون وأهل الكتاب يسألون رسول الله ﷺ عن مسائل أو يناظرونه، وكما كانت الأمم تجادل رسلها[(١)].

ل ـ الموعظة والمجادلة الحسنة:

إن الموعظة الحكيمة الصادقة تنطبع في الذهن وتؤثر في السلوك، ولهذا كان ﷺ يعظ أصحابه المواعظ المؤثرة بحسب ما يناسب المقام، وكان لا يكثر منها خشية السآمة عليهم، فإن لم تفد وإلا فالمجادلة الحسنة إلا مع الظلمة إن أمنت المفسدة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]، وقد قرر ابن تيمية طرق الدعوة وأساليبها الثلاثة فقال: «الموعظة الحسنة تجمع التصديق بالخبر والطاعة للأمر، ولهذا يجيء الوعظ في القرآن مراداً به الأمر والنهي بترغيب وترهيب، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٦]، وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً﴾

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٣ ـ ص٣٠٦ و٣٠٧، وج٤ ـ ص١٠٩ و١١٣و١١٩.

[البقرة: ٦٦]؛ أي يتعظون بها، فينتبهون وينزجرون...، وكذلك الجدل الأحسن يجمع الجدل للتصديق وللطاعة.

ويقال: الناس ثلاثة أقسام: «إما أن يعترف بالحق ويتبعه، فهذا صاحب الحكمة، وإما أن يعترف به لكن لا يعمل به، فهذا يوعظ حتى يعمل، وإما أن لا يعترف به، فهذا يجادل بالتي هي أحسن، لأن الجدال في مظنة الإغضاب، فإذا كان بالتي هي أحسن حصلت منفعته بغاية الإمكان، كدفع الصائل».

وقال: «الآيات أفقية، وأرضية، وقرآنية؛ وهي أدلة العلم، والإنذار يقتضي الخوف، فالآيات لمن إذا عرف الحق عمل به، فهذا تنفعه الحكمة، والإنذار لمن يعرف الحق وله هوى يصده، فينذر بالعذاب الذي يدعوه إلى مخالفة هواه؛ وهو خوف العذاب، وهذا هو الذي يحتاج إلى الموعظة الحسنة، وآخر لا يقبل الحق فيحتاج إلى الجدل، فيجادل بالتي هي أحسن[١]».

م ـ مراعاة الفروق الفردية[٢]:

إن البشر ليسوا على استعداد واحد، وقابلية واحدة، وذكاء واحد، فالله ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وهذا التفاوت قد يكون خِلقياً، وقد يكون مكتسباً، فلابد من مراعاة أوضاع المتعلمين وظروفهم وأحوالهم، واستخدام الأسلوب المناسب معهم، قال ابن تيمية: «قد يكون النظري عند شخص بديهيّاً عند غيره...، ومعلوم أن الناس

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٢ ـ ص٤٥، وج١٦ ـ ص٥٨٥.
(٢) انظر المبدأ الثاني: (مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين والمكلفين)، في الدراسة السابقة الثانية.

يتفاوتون في قوى الأذهان أعظم من تفاوتهم في قوى الأبدان؛ فمن الناس من يكون في سرعة التصور وجودته في غاية يباين بها غيره مباينة كثيرة، وحينئذ فيتصور الطرفين تصوراً تاماً بحيث يتبين بذلك التصور التام اللوازم التي لا تتبين لمن لم يتصوره، وكون الوسط ـ الذي هو الدليل ـ قد يفتقر إليه في بعض القضايا بعض الناس دون بعض أمر بيّن؛ فإن كثيراً من الناس تكون عنده القضية حسية أو مجربة أو برهانية أو متواترة، وغيره إنما عرفها بالنظر والاستدال، ولهذا كثير من الناس لا يحتاج في ثبوت المحمول للموضوع إلى دليل لنفسه بل لغيره، ويبين ذلك لغيره بأدلة هو غني عنها حتى يضرب له أمثال. . .، فعامة الصفات التي يتصف بها الموصوفون تقبل التفاضل، ولهذا كان العقل يقبل التفاضل، والإيجاب والتحريم يقبل التفاضل، فيكون إيجاب أقوى من إيجاب، وتحريم أقوى من تحريم، وكذلك المعرفة التي في القلوب تقبل التفاضل على الصحيح عند أهل السنة، وفي هذا كله نزاع. . . . وأمة محمد وإن وجب عليهم جميعهم الإيمان بعد استقرار الشرع، فوجوب الإيمان بالشيء المعين موقوف على أن يبلغ العبد إن كان خبراً، وعلى أن يحتاج إلى العمل به إن كان أمراً، وعلى العلم به إن كان علماً، وإلا فلا يجب على كل مسلم أن يعرف كل خبر وكل أمر في الكتاب والسنة، ويعرف معناه ويعلمه، فإن هذا لا يقدر عليه أحد، فالوجوب يتنوع بتنوع الناس فيه، ثم قُدَرِهم في أداء الواجب متفاوتة، ثم نفس المعرفة تختلف بالإجمال والتفصيل، والقوة والضعف، ودوام الحضور، ومع الغفلة، فليست المفصلة المستحضرة الثابتة؛ التي يثبت الله صاحبها بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، كالمجملة التي غفل عنها، وإذا حصل له ما يريبه فيها وذكرها في قلبه ثم رغب إلى الله في كشف الريب، ثم

أحوال القلوب وأعمالها...؛ مما يتفاضل الناس فيها تفاضلاً لا يعرف قدره إلا الله عزّ وجلّ، ومن أنكر تفاضلهم في هذا فهو إما جاهل لم يتصوره، وإما معاند».

وقال: «إن الأعمال المشروعة يختلف الناس فيها بحسب اختلاف أحوالهم، فليس ما يؤمر به الفقير كما يؤمر به الغني، ولا ما يؤمر به المريض كما يؤمر به الصحيح، ولا ما يؤمر به عند المصائب هو ما يؤمر به عند النعم، ولا ما تؤمر به الحائض كما تؤمر به الطاهرة، ولا ما تؤمر به الأئمة كالذي تؤمر به الرعية، فأمر الله لعباده قد يتنوع بتنوع أحوالهم، كما قد يشتركون في أصل الإيمان بالله وتوحيده والإيمان بكتبه ورسله».

وقال: «إن أصول الشريعة تفرق في جميع مواردها بين القادر والعاجز، والمفرط والمعتدي، ومن ليس بمفرط ولا معتد، والتفريق بينهما أصل عظيم معتمد، وهو الوسط الذي عليه الأمة الوسط، وبه يظهر العدل بين القولين المتباينين[1]».

ن ـ الدعوة والدعاء:

قد يكون الإنسان في وضع لا يمكنه إبداء ما معه من العلم والهدى؛ إما لخوف، أو لشغل، أو لمانع؛ كإحراج أو فوات فرصة ونحو ذلك، فيستخدم هذا الأسلوب لإيصال الخير والحق للناس، وهكذا استطاع ابن تيمية تذكير أميره بالحق؛ فقد ذكر ابن كثير: «أن قازان طلب من شيخ الإسلام الدعاء له، فقال في دعائه: اللهم إن كان هذا عبدك محمود، إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا، وليكون الدين كله لك، فانصره وأيده

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٩ ـ ص١٠٣ و١٠٤، وج٧ ـ ص٤٠٧ ـ ٥١٣، وج٢١ ـ ص١٤١.

وملكه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياء وسمعة، وطلباً للدنيا، ولتكون كلمته هي العليا، وليذل الإسلام وأهله، فاخذله وزلزله ودمره وأقطع دابره.

قال: وقازان يؤمن على دعائه ويرفع يديه...[1]».

س - فحص وتحليل النصوص وغربلتها لمعرفة ما يثبت وما لا يثبت منها:

لقد استخدم ابن تيمية أسلوب تحقيق النصوص وفحصها بغية التوصل إلى معرفة نسبتها إلى من تعزى إليه منذ أكثر من ستة قرون، فيكون بذلك قد سبق كثيراً من مناهج وأساليب تحقيق النصوص الحديثة[2].

قال ابن القيم: «ولما كان في بعض الدول التي خفيت فيها السنة وأعلامها، أظهر طائفة منهم كتاباً قد عتقوه وزوروه، وفيه: «أن النبي أسقط عن يهود خيبر الجزية، وفيه شهادة علي بن أبي طالب وسعد بن معاذ وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم، فراج ذلك على من جهل سنة رسول الله ومغازيه وسيره، وتوهموا - بل ظنوا - صحته، فَجَروْا على حكم هذا الكتاب المزور حتى ألقي إلى شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه، وطُلب منه أن يعين على تنفيذه والعمل عليه، فبصق عليه! واستدل على كذبه بعشرة أوجه! منها:

---

(١) ابن كثير - البداية والنهاية - المصدر السابق - ج١٤ - ص١١٣ - ١١٤، وقد تقدم بقية ما جرى بعد ذلك.

(٢) قال عبدالسلام محمد هارون في كتابه: (تحقيق النصوص ونشرها: ٤٢): هذا هو الاصطلاح المعاصر الذي يقصد به بذل عناية خاصة بالمخطوطات، حتى يمكن التثبت من استيفائها لشرائط معينة، فالكتاب المحقق: «هو الذي صح عنوانه، واسم مؤلفه، ونسبة الكتاب إليه، وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها المؤلف».

ـ أن فيه شهادة سعد بن معاذ! وسعد توفي قبل خيبر قطعاً.

ـ ومنها: أن في الكتاب أنه أسقط عنهم الجزية، والجزية لم تكن نزلت بعد، ولا يعرفها الصحابة حينئذ، فإن نزولها كان عام تبوك؛ بعد خيبر بثلاثة أعوام.

ـ ومنها أنه أسقط عنهم الكلف والسخر، وهذا محال! فلم يكن في زمانه كلف ولا سخر تؤخذ منهم ولا من غيرهم، وقد أعاذه الله وأعاذ أصحابه من أخذ الكلف والسخر، وإنما هي من وضع الملوك الظلمة، واستمر الأمر عليها[1].

---

(١) قال رحمه الله في (مجموع الفتاوى: ج٣٠، ص٣٣٨) في شأن الكلف والسخر والمكوس ونحوها: «المظالم المشتركة التي تطلب من الشركاء؛ مثل المشتركين في قرية أو مدينة إذا طلب منهم شيء يؤخذ على أموالهم أو رؤوسهم مثل؛ الكلف السلطانية التي توضع عليهم كلهم ـ إما على عدد رؤوسهم، أو عدد دوابهم، أو عدد أشجارهم، أو على قدر أموالهم ـ كما يؤخذ منهم أكثر من الزكوات الواجبة بالشرع، أو أكثر من الخراج الواجب بالشرع، أو تؤخذ منهم الكلف التي أحدثت في غير الأجناس الشرعية، كما يوضع على المتبايعين للطعام، والثياب، والدواب، والفاكهة، وغير ذلك، يؤخذ منهم إذا باعوا، ويؤخذ ذلك تارة من البائعين، وتارة من المشترين، وإن كان قد قيل: إن بعض ذلك وضع بتأويل وجوب الجهاد عليهم بأموالهم، واحتياج الجهاد إلى تلك الأموال ـ كما ذكره صاحب (غياث الأمم) وغيره، مع ما دخل في ذلك من الظلم الذي لا مساغ له عند العلماء، ومثل الجبايات التي يجبيها بعض الملوك من أهل بلده كل مدة، ويقول: إنها مساعدة له على ما يريد.

ومثل ما يطلبه الولاة أحياناً ـ من غير أن يكون راتباً ـ إما لكونهم جيشاً قادمين يجمعون ما يجمعونه لجيشهم، وإما لكونهم يجمعون لبعض العوارض، كقدوم السلطان، أو حدوث ولد له، ونحو ذلك، وإما أن ترمى عليهم سلع تباع منهم بأكثر من أثمانها، وتسمى: الحطائط. =

ـ ومنها أن هذا الكتاب لم يذكره أحد من أهل العلم على اختلاف أصنافهم، فلم يذكره أحد من أهل المغازي والسير، ولا أحد من أهل الحديث والسنة، ولا أحد من أهل الفقه والإفتاء، ولا أحد من أهل التفسير، ولا أظهروه في زمان السلف، لعلمهم أنهم إن زوروا مثل ذلك عرفوا كذبه وبطلانه، فلما استخفوا بعض الدول في وقت فتنة وخفاء بعض السنة، زوروا ذلك وعتقوه وأظهروه، وساعدهم على ذلك طمع بعض الخائنين لله ولرسوله، ولم يستمر لهم ذلك حتى كشف الله أمره، وبين خلفاء الرسل بطلانه وكذبه[1]».

ع ـ تصور المسألة قبل الحكم فيها:

ينبغي للمربي أن يتصف بالأناة والتريث، وأن يتصور المسائل المعروضة عليه قبل القول فيها أو الحكم عليها، إذ كيف يحكم على شيء لا يعلمه؟! فإن الحكم على الشيء فرع تصوره، ولهذا ينبغي التبين

= ومثل القافلة؛ الذين يسيرون حجاجا أو تجارا أو غير ذلك، فيطلب منهم على عدد رؤوسهم، أو دوابهم، أو قدر أموالهم، أو يطلب مطلقا منهم كلهم، سواء كان الطالب ذا السلطان في بعض المدائن والقرى، كالذين يقعدون على الجسور، وأبواب المدائن، فيأخذون ما يأخذونه، أو كان الآخذون قطاع طريق؛ كالأعراب، والأكراد، والترك الذين يأخذون مكوسا من أبناء السبيل، ولا يمكنونهم من العبور حتى يعطوهم ما يطلبون، فهؤلاء المكرَهون على أداء هذه الأموال. . . ، ليس لبعضهم أن يظلم بعضا فيما يطلب منهم، بل عليهم إلتزام العدل فيما يؤخذ منهم بغير حق، كما عليهم إلتزام العدال فيما يؤخذ منهم بحق. . . ، وليس هذا بمنزلة أن يدفع عن نفسه الظلم من غير ظلم لغيره، فإن هذا جائز مثل أن يمتنع عن أداء ما يخصه فلا يؤخذ ذلك منه ولا من غيره».

(١) ابن القيم ـ زاد المعاد ـ بيروت ـ مؤسسة الرسالة ـ ١٩٩٦م ـ ج٣ ـ ص١٥٤.

من الأشياء قبل الحديث عنها؛ فإن من الأمور ما تكون مشتبهة بغيرها، أو يكون قصد صاحبها خلاف المتبادر منها، ولقد استخدم ابن تيمية هذا الأسلوب في مواضع من كتبه؛ فلما سئل عن فعل العازم على الإثم فلم يمكّن منه، هل يأثم؟ فقال: هذه المسألة ونحوها تحتاج قبل الكلام في حكمها إلى حسن التصور لها؛ فإن اضطراب الناس في هذه المسائل وقع عامته من أمرين:

أحدهما: عدم تحقيق أحوال القلوب وصفاتها التي هي مورد الكلام.

والثاني: عدم إعطاء الأدلة الشرعية حقها، ولهذا كثر اضطراب كثير من الناس في هذا الباب؛ حتى يجد الناظر في كلامهم أنهم يدعون إجماعات متناقضة في الظاهر...[١].

ف ـ دفع السيئات بالحسنات:

لا ينفك الإنسان عن القصور والتقصير؛ سواء في أداء حقوق مولاه أو في أداء حقوق الخلق على اختلاف مراتبهم وصلاتهم، فإن أعز الواجبات أداء: إعطاء كل ذي حق حقه، ولهذا فإن أفضل أسلوب للسلامة من أثر تبعات التقصير في الدنيا والآخرة هو الإكثار من فعل الحسنات الماحية، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود: ١١٤]، ولهذا أوصى النبي ﷺ كلاً من أبي ذر ومعاذ بن جبل بقوله: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن)[٢].

ولهذا قال ابن تيمية: «إن الطبيب متى تناول المريض شيئاً مضرّاً أمره

---

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج١٠ ـ ص٧٢٠، ٧٢١.

(٢) الترمذي: ١٩٨٧، وقال: حسن صحيح، وحسنه الألباني.

بما يصلحه، والذنب للعبد كأنه أمر حتم؛ فالكيس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات، وإنما قدم في لفظ الحديث السيئة وإن كانت مفعولة، لأن المقصود هنا محوها لا فعل الحسنة، فصار كقوله في بول الأعرابي: (صبوا عليه ذنوباً من ماء)[١]. وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات، فإنه أبلغ في المحو، والذنوب يزول موجبها بأشياء:

- أحدها: التوبة.

- الثاني: الاستغفار من غير توبة؛ فإن الله تعالى قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب، فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال.

- الثالث: الأعمال الصالحة المكفرة، إما الكفارات المقدرة...، وإذا كان الأمر كذلك، فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وكان ميتاً فأحياه الله وجعل له نوراً يمشي به في الناس، لا بد أن يلاحظ أحوال الجاهلية، وطريق الأمتين المغضوب عليهم والضالين؛ من اليهود والنصارى، فيرى أن قد ابتلي ببعض ذلك، فأنفع ما للخاصة والعامة: العلم بما يخلص النفوس من هذه الورطات، وهو إتباع السيئات الحسنات، والحسنات ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال، والأخلاق، والصفات[٢].

ص ـ المحافظة على اللغة العربية والشعائر الإسلامية:

وفي هذا المعنى يقول رحمه الله: «وما زال السلف يكرهون تغيير شعائر العرب حتى في المعاملات، وهو التكلم بغير العربية إلا لحاجة، كما نص على ذلك مالك والشافعي وأحمد، بل قال مالك: من تكلم في

(١) البخاري: ٦١٢٨، ومسلم: ٢٨٤.

(٢) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج١٠ ـ ص٦٥٣ ـ ٦٥٧.

مسجدنا بغير العربية أخرج منه، مع أن سائر الألسن يجوز النطق بها لأصحابها، ولكن سوغوها للحاجة وكرهوها لغير الحاجة، ولحفظ شعائر الإسلام، فإن الله أنزل كتابه باللسان العربي، وبعث به نبيه العربي، وجعل الأمة العربية خير الأمم، فصار حفظ شعارهم من تمام حفظ الإسلام، فكيف بمن تقدم على الكلام العربي مفرده ومنظومه، فيغيره ويبدله ويخرجه عن قانونه، ويكلف الانتقال عنه، إنما هذا نظير ما يفعله بعض أهل الضلال من الشيوخ الجهال، حيث يصمدون إلى الرجل العاقل، فيولهونه ويخنثونه، فإنهم ضادوا الرسول؛ إذ بعث بإصلاح العقول والأديان، وتكميل نوع الإنسان، وحرم ما يغير العقل من جميع الألوان، فإذا جاء هؤلاء إلى صحيح العقل فأفسدوا عقله وفهمه، وقد ضادوا الله وراغموا حكمه، والذين يبدلون اللسان العربي ويفسدونه لهم من هذا الذم والعقاب بقدر ما يفتحونه، فإن صلاح العقل واللسان مما يؤمر به الإنسان، ويعين ذلك على تمام الإيمان، وضد ذلك يوجب الشقاق والضلال والخسران، والله أعلم[١]».

٤ ـ ٣ ـ ٧: الأساليب التربوية التي تعنى بالجوانب الاجتماعية:

لقد نشأ ابن تيمية وتربى على حب المخالطة والمشاركة الاجتماعية النافعة الهادفة، فقد كان يخالط الصغار والكبار، والشريف والوضيع، والرئيس والمرؤوس، والأقارب والأباعد، والأصدقاء والأعداء، والموافقين والمخالفين؛ كل بحسبه، ولقد كان له أساليب تربوية هادفة مع كل منهم بما يناسبه، ينطلق في ذلك كله من الاجتماع على الحق والخير، لا على الشر والعدوان، ومن هنا قاتل التتار مع طوائف وأناس

---

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٣٢ ـ ص٢٥٥.

ليسوا على منهجه وطريقته، لكن لما كان الهدف مشتركاً، والعمل مشروعاً صاحبهم فيه، فلم يخرج بذلك عن منهجه وأسسه التربوية، وهذا يدل على أنه لم يكن يبغض الشخص لذاته، أو ينتقم لنفسه، بل بحسب ما يتلبس به الشخص مما يقربه إلى الله أو يباعده منه، ومما يبرهن دعوته المسلمين جميعاً إلى الاجتماع على الهدى والخير ـ خصوصاً الذين تجمعهم مصالح مشتركة ـ قوله فيما يخص المعلمين: «وعلى المعلمين أن يكونوا متعاونين على البر والتقوى، كما أمر النبي ﷺ بقوله: (مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر)[(١)]، وقوله: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحبه لنفسه)، وقوله: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه)[(٢)]، وقال: (لا تحاسدوا، ولا تقاطعوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً)، وهذا كله في الصحيح[(٣)]».

٤ ـ ٣ ـ ٨: أما أساليبه التربوية في هذا الشأن فكثيرة أيضاً، منها:

أ ـ التعاون والاجتماع لتحصيل الخير ودفع الشر:

إن الاجتماع على الخير محبوب عرفاً وعقلاً، مطلوب شرعاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]، وقد أكد النبي ﷺ هذا المعنى في سنته القولية والفعلية والتقريرية الكثيرة؛ ففي حديث سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: (البركة

(١) البخاري: ٦١١، ومسلم: ٢٥٨٦.
(٢) البخاري: ٤٨١، ومسلم: ٢٥٨٥.
(٣) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٢٨. ص١٣و١٤، والحديث أخرجه البخاري: ٦٠٦٥، ومسلم: ٢٥٥٩.

في ثلاثة: في الجماعة، والثريد، والسحور)[١]. إذ ما يمكن تحصيله بالانفراد يكون تحصيله بالاشتراك من باب أولى، وذلك مدعاة لتوفير الجهود والأوقات، وزيادة في المحبة والألفة، فإن الاجتماع رحمة وبركة، والتفرق عذاب ونقمة، فلا بد للمربي من غرس روح المشاركة الإيجابية مع الجماعة في نفس من يربيه، ولقد كان لابن تيمية الدور الفعال في المشاركة الاجتماعية بقوله وفعله، كما هو معلوم من سيرته طيلة حياته، ونصحه للمسلمين، ومحبته لمساعدتهم؛ كما ذكره غير واحد ممن عاصره، وقد تقدم بعض ذلك، وأما قوله فإنه أكثر من أن يحاط به، فقد قال رحمه الله: «من المعلوم ببديهة العقل أن الصفات بأسرها من القدرة وغيرها كلَّما كان محلها متحداً مجتمعاً كان أكمل لها من أن يكون متعدداً متفرقاً، ولهذا كان الاجتماع والاشتراك في الخلق بأن يوجب لها من القوة والقدرة ما لا يحصل لها إذا تفرقت وانفردت، وإن كانت إحداها باقية، بل الأشخاص والأعضاء وغيرها من الأجسام المتفرقة قد قام بكل منها قدرة، فإذا قدر اتحادها واجتماعها كانت تلك القدرة أقوى وأكمل، لأنه حصل لها من الاتحاد والاجتماع بحسب الإمكان ما لم يكن حين الافتراق والتعداد.

وهذا يبين أن القدرة القائمة باثنين إذا قدر أن ذينك الاثنين كانا شيئاً واحداً، تكون القدرة أكمل، فكيف لا تكون مساوية للقدرة القائمة بمحلين...، فتبين أنه من الممكن في المشتركين على المفعول الواحد أن يكون كل منهما قادراً عليه، بل من الممكن أن يكونا شيئاً واحداً

---

(١) أخرجه الطبراني والبيهقي كما في صحيح الجامع: ٢٨٨٣، ج١ ـ ص.٥٥٧، وهو في الصحيحة: ١٠٤٥.

قادراً عليه، فتبين أن كلًّا منهما يمكن أن يكون أكمل مما هو عليه، وأن يكون بصفة أخرى، إذا كان يمكن في كل منهما أن تتغير ذاته وصفاته، ومعلوم أنه هو لا يمكن أن يكمل نفسه وحده ويغيرها، إذ التقدير أنه عاجز عن الانفراد بمفعول منفصل عنه، فأن يكون عاجزاً عن تكميل نفسه وتغييرها أولى[١]».

ب ـ الاستفادة من خبرات وتجارب الآخرين ومعارفهم:

إن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، فلا يستقل بتحصيل مصالحه بنفسه، ولا يمكنه الاستغناء ـ تماماً ـ عن غيره من البشر والاستفادة منهم ـ وهذا على مستوى الأفراد وعلى مستوى المجتمعات والشعوب ـ خصوصاً إذا أُمنت المفسدة، وقد أكد ابن تيمية هذا الأسلوب التربوي الاجتماعي فقال: «إن ذكْر ما لا يتعلق بالدين؛ مثل مسائل الطب، والحساب المحض...، ما غايته انتفاع بآثار الكفار والمنافقين في أمور الدنيا فهذا جائز؛ كما يجوز السكنى في ديارهم، ولبس ثيابهم، وسلاحهم، وكما تجوز معاملتهم على الأرض، كما عامل النبي يهود خيبر، وكما استأجر النبي هو وأبو بكر لما خرجا من مكة مهاجرين ابن أريقط ـ رجلاً من بني الديل هاديا خريتاً ـ والخريت: الماهر بالهداية، وائتمناه على أنفسهما ودوابهما، وواعداه غار ثور صبح ثالثة، وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله مسلمهم وكافرهم، وكان يقبل نصحهم، وكل هذا في الصحيحين، وكان أبو طالب ينصر النبي ويذب عنه مع شركه، وهذا كثير؛ فإن المشركين وأهل الكتاب فيهم المؤتمن كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ

---

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٢ ـ ص٣٣ ـ ٣٤.

بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]، ولهذا جاز ائتمان أحدهم على المال، وجاز أن يستطب المسلم الكافر إذا كان ثقة، نص على ذلك الأئمة؛ كأحمد وغيره، إذ ذلك من قبول خبرهم فيما يعلمونه من أمر الدنيا، وائتمان لهم على ذلك، وهو جائز إذا لم يكن فيه مفسدة راجحة؛ مثل ولايته على المسلمين وعلوّه عليهم ونحو ذلك[١]. . فأخذ علم الطب من كتبهم مثل الاستدلال بالكافر على الطريق واستطبابه، بل هذا أحسن؛ لأن كتبهم لم يكتبوها لمعين من المسلمين حتى تدخل فيها الخيانة، وليس هناك حاجة إلى أحد منهم بالخيانة، بل هي مجرد انتفاع بآثارهم كالملابس والمساكن والمزارع والسلاح ونحو ذلك».

ج ـ التمايز وعدم التشبه بغير المسلمين فيما هو من خصائصهم:

إن عدم مشابهة الكفار أو مخالطتهم ـ لغير حاجة ـ وسيلة للحفاظ على الهوية والشخصية الإسلامية المتميزة، حتى لا يختلط الحابل بالنابل، فإن الصاحب ساحب، ولهذا تكاثرت نصوص الشريعة في النهي عن التشبه بغير المسلمين فيما هو من خصائصهم، خصوصاً بعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة النبوية.

قال ابن تيمية: في حديث: (من جامع المشرك وسكن معه فإنه مِثله)[٢]: المشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة، والمشاركة في الهدي الظاهر توجب مناسبة وائتلافاً

---

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٤ ـ ص١١٤.١١٥.

(٢) الألباني ـ صحيح الجامع ـ المصدر السابق .: ج٢ ـ ص١٠٦٤ ـ رقم: (٦١٨٦).

وإن بعد المكان والزمان، وهذا أمر محسوس، فمرافقتهم ومساكنتهم - ولو قليلاً - سبب لوقوع ما مرّ، واكتساب أخلاقهم التي هي ملعونة، ولما كان مظنة الفساد منضبط علق الحكم به وأدير التحريم عليه، فمساكنتهم في الظاهر سبب ومظنة لمشابهتهم في الأخلاق والأفعال المذمومة بل في نفس الاعتقادات، فيصير مساكن الكافر مثله، وأيضاً المشاركة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة، وهذا مما يشهد به الحس؛ فإن الرجلين إذا كانا من بلد واجتمعا في دار غربة كان بينهما من المودة والائتلاف أمر عظيم بموجب الطبع، وإذا كانت المشابهة في أمور دنيوية تورث المحبة والموالاة، فكيف المشابهة في الأمور الدينية؟ فالموالاة للمشركين تنافي الإيمان؛ ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١][(١)].

---

(١) المناوي - فيض القدير - المرجع السابق - ج٦ - ص١٣٨ - ١٣٩، وقال: المراد الكافر، ونص على الشرك لأنه الأغلب حينئذ، (وسكن معه)؛ أي في ديار الكفر (فإنه مثله)؛ أي من بعض الوجوه، لأن الإقبال على عدو الله وموالاته توجب إعراضه عن الله، ومن أعرض عنه تولاه الشيطان ونقله إلى الكفران.
قال الزمخشري: «وهذا أمر معقول؛ فإن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان، قال:

تَوَدُّ عدوي ثم تزعم أنني صديقك ليس النَّوْكُ عنك بعازِبِ

وفيه إبرام وإلزام بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم، والتحرز عن مخالطتهم ومعاشرتهم ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، والمؤمن أولى بموالاة المؤمن، وإذا والى الكافر جرّه ذلك إلى تداعي ضعف إيمانه، فزجر الشارع عن مخالطته بهذا التغليظ العظيم حسماً لمادة الفساد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران: ١٤٩]، ولم =

وقال أيضاً: «المشابهة فى الأمور الظاهرة تورث تناسباً وتشابهاً في الأخلاق والأعمال، ولهذا نهينا عن مشابهة الكفار، ومشابهة الأعاجم، ومشابهة الأعراب، ونهي كل من الرجال والنساء عن مشابهة الصنف الآخر؛ كما في الحديث المرفوع: (من تشبه بقوم فهو منهم)(١)، و(ليس منا من تشبه بغيرنا)(٢)، والرجل المتشبه بالنساء يكتسب من أخلاقهن بحسب تشبهه، حتى يفضي الأمر به إلى التخنث المحض، والتمكين من نفسه كأنه امرأة، ولما كان الغناء مقدمة ذلك وكان من عمل النساء، كانوا يسمون الرجال المغنين مخانيث، والمرأة المتشبهة بالرجال تكتسب من

= يمنع من صلة أرحام من لهم من الكافرين، ولا من مخالطتهم في أمر الدنيا بغير سكنى فيما يجري مجرى المعاملة؛ من نحو بيع وشراء وأخذ وعطاء، ليوالوا في الدين أهل الدين، ولا يضرهم أن يبارزوا من لا يجاريهم من الكافرين.

وأفاد الخبر: وجوب الهجرة؛ أي على من عجز عن إظهار دينه وأمكنته بغير ضرر».

وهذا يبين بوضوح وسطية وعدالة الإسلام، فبينما نهى عن التشبه والمخالطة لغير المسلمين التي تورث التقليد الأعمى، والانهزام النفسي والشخصي، والانسياق وراء أعداء الله، والتبعية لهم، مع الغفلة عن عزة الإسلام والمسلمين، فإنه لم يمنع صلة الأرحام، وتبادل المنافع والمصالح المشتركة، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩].

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٢٢ ـ ص١٥٤، والحديث أخرجه أبو داود: ٤٠٣١، وصححه الألباني في الإرواء: ١٢٦٩، و٢٣٨٤.

(٢) الترمذي: ٢٦٩٥، وضعفه، وتمامه: (لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى، فإن تسليم اليهود الإشارة بالأصابع، وتسليم النصارى الإشارة بالأكف)، وقد حسنه الألباني في صحيح الجامع: ٥٤٣٤، والصحيحة: ٢١٩٤.

أخلاقهم، حتى يصير فيها من التبرج والبروز ومشاركة الرجال ما قد يفضي ببعضهن إلى أن تظهر بدنها كما يظهره الرجل، وتطلب أن تعلو على الرجال كما تعلو الرجال على النساء، وتفعل من الأفعال ما ينافي الحياء والخفر المشروع للنساء، وهذا القدر قد يحصل بمجرد المشابهة».

وقال في حديث[(١)]: (نهي أن يجلس الرجل في الصلاة وهو معتمد على يده اليسرى، وقال: إنها صلاة اليهود): «فيه تنبيه على أن كل ما يفعله المشركون من العبادات ونحوها مما يكون معصية بالنية نهي المؤمنون عن ظاهره، وإن لم يقصدوا به قصد الكافرين، حسماً للباب».

د ـ المحافظة على الهوية الإنسانية وعدم التشبه بالناقص:

إن تشبه الإنسان بغيره سببه ضعف الهوية والشخصية، وقلة معرفته لقدْره وما شرفه به خالقه سبحانه، مع قلة بصيرة بضعف ونقص المخلوقات الأخرى، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[(٢)] [الاسراء: ٧٠]، وهي قد خلقت لحكمة عظيمة، فهي

---

(١) المناوي ـ المرجع السابق ـ ج٦ ـ ص٤٢٤، والحديث في صحيح الجامع، المصدر السابق: ج٢، ص١١٥٣.

(٢) قال القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ـ المصدر السابق ـ ج١٠ ـ ص٢٩٩ ـ ٣٠٠: «كرّمنا تضعيف كرم؛ أي جعلنا لهم كرما أي شرفاً وفضلاً، وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال، وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة، وحملهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون؛ يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره، وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس، وهذا لا يتسع فيه اتساع بني آدم لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان، ويلبسون الثياب، ويأكلون المركّبات من الأطعمة، وغاية كلّ حيوان يأكل لحماً =

مسخرة لما خُلقت له، فعلى العاقل أن يحافظ على كرامته؛ فلا يتشبه بالهائم العجماوات ونحوها في كل ما يخصهن، كما لا يرضى أن يقال له: «حيوان»!

قال الإمام ابن تيمية: «التشبه بالبهائم في الأمور المذمومة في الشرع مذموم منهي عنه في أصواتها وأفعالها ونحو ذلك؛ مثل أن ينبح نبيح الكلاب، أو ينهق نهيق الحمير ونحو ذلك، وذلك لوجوه:

أحدها: أنا قررنا في (اقتضاء الصراط المستقيم)[1] نهي الشارع عن التشبه بالآدميين الذين جنسهم ناقص؛ كالتشبه بالأعراب، وبالأعاجم، وبأهل الكتاب، ونحو ذلك في أمور من خصائصهم، وبيّنّا أن من أسباب ذلك:

أن المشابهة تورث مشابهة الأخلاق، وذكرنا أن من أكثر عشرة بعض الدواب اكتسب من أخلاقها؛ كالكلابين والجمّالين، وذكرنا ما في

= نيئاً، أو طعاماً غير مركب. . .، وقال الطبري: بتسليطهم على سائر الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم. وقيل بالكلام والخط، وقيل بالفهم والتمييز.
والصحيح الذي يعول عليه: أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله ويفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه، وتصديق رسله، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد، بعث الرسل، وأنزلت الكتب، فمثال الشرع الشمس، ومثال العقل العين، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس، وأدركت تفاصيل الأشياء، وقد جعل الله في بعض الحيوان خصالاً يفضل بها ابن آدم أيضاً؛ كجري الفرس وسمعه وإبصاره، وقوة الفيل، وشجاعة الأسد، وكرم الديك، وإنما التكريم والتفضيل بالعقل كما بيناه والله أعلم».

(١) أراد به كتابه الفذ؛ والمسمى: (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم)، وهو مطبوع متداول.

النصوص من ذم أهل الجفاء وقسوة القلوب؛ أهل الإبل، ومن مدح أهل الغنم، فكيف يكون التشبه بنفس البهائم فيما هي مذمومة؟! بل هذه القاعدة تقتضي بطريق التنبيه النهي عن التشبه بالبهائم مطلقاً فيما هو من خصائصها، وإن لم يكن مذموماً بعينه؛ لأن ذلك يدعو إلى فعل ما هو مذموم بعينه، إذ من المعلوم أن كون الشخص أعرابياً أو عجمياً خير من كونه كلباً أو حماراً أو خنزيراً، فإذا وقع النهي عن التشبه بهذا الصنف من الآدميين في خصائصه لكون ذلك تشبهاً فيما يستلزم النقص ويدعو إليه، فالتشبه بالبهائم فيما هو من خصائصها أولى أن يكون مذموماً ومنهياً عنه.

الوجه الثاني: أن كون الإنسان مثل البهائم مذموم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. الوجه الثالث: أن الله سبحانه إنما شبه الإنسان بالكلب والحمار ونحوهما في معرض الذم له؛ كقوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦ - ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] الآية، وإذا كان التشبه بها إنما كان على وجه الذم من غير أن يقصد المذموم التشبه بها، فالقاصد أن يتشبه بها أولى أن يكون مذموماً، لكن إن كان تشبه بها في عين ما ذمه الشارع صار مذموماً من وجهين، وإن كان فيما لم يذمه بعينه صار مذموماً من جهة التشبه المستلزم للوقوع في المذموم بعينه، يؤيد هذا:

الوجه الرابع: أن التمثيل بالكلب مثل سوء، والمؤمن منزه عن مثل

السوء، فإذا كان له مثل سوء من الكلب كان مذموماً بقدر ذلك المثل السوء. . . .

وبالجملة فالتشبه بالشيء يقتضي من الحمد والذم بحسب الشبه، لكن كون المشبه به غير مكلف لا ينفي التكليف عن المتشبه، كما لو تشبه بالأطفال والمجانين.

الوجه السادس: أن النبي لعن المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال(١)، وذلك لأن الله خلق كل نوع من الحيوان، وجعل صلاحه وكماله في أمر مشترك بينه وبين غيره وبين أمر مختص به، فأما الأمور المشتركة فليست من خصائص أحد النوعين؛ ولهذا لم يكن من مواقع النهي، وإنما مواقع النهي الأمور المختصة، فإذا كانت الأمور التي هي من خصائص النساء ليس للرجال التشبه بهن فيها، والأمور التي هي من خصائص الرجال ليس للنساء التشبه بهم فيها، فالأمور التي هي من خصائص البهائم لا يجوز للآدمي التشبه بالبهائم فيها بطريق الأولى والأحرى، وذلك لأن الإنسان بينه وبين الحيوان قدر جامع مشترك، وقدر فارق مختص، ثم الأمر المشترك كالأكل، والشرب، والنكاح، والأصوات، والحركات، لما اقترنت بالوصف المختص، كان للإنسان فيها أحكام تخصه ليس له أن يتشبه بما يفعله الحيوان فيها، فالأمور المختصة به أولى، مع أنه في الحقيقة لا مشترك بينه وبينها، ولكن فيه أوصاف تشبه أوصافها من بعض الوجوه، والقدر المشترك إنما وجوده في الذهن لا في الخارج، وإذا كان كذلك فالله تعالى قد جعل الإنسان مخالفاً بالحقيقة للحيوان، وجعل كماله وصلاحه

(١) البخاري: ٥٨٨٥.

في الأمور التي تناسبه؛ وهي جميعها لا يماثل فيها الحيوان، فإذا تعمّد مماثلة الحيوان وتغيير خلق الله، فقد دخل في فساد الفطرة والشرعة، وذلك محرم، والله أعلم».

وقال: وأيضاً فعن عبدالرحمن بن شبل رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله عن نقر الغراب، وافتراش السبع، وأن يوطن الرجل المكان في المسجد كما يوطن البعير[١]»، وإنما جمع بين الأفعال الثلاثة وإن كانت مختلفة الأجناس لأنه يجمعها مشابهة البهائم في الصلاة[٢]».

هـ ـ العناية بما يجهله الناس من الخير وإظهاره قولاً وعملاً:

إن من الأساليب التربوية الهادفة النافعة، تذكير الناس بما جهلوه من الشريعة وأحكامها، خصوصاً ما اندرس منها أو كاد، فإن الناس «أعداء ما جهلوا»، فهم يسارعون إلى إنكار أي شيء لم يعتادوه أو لم يعرفوه أو لم يسمعوا به، كما قال قائلهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، فبدلاً من أن يجعلوا ما سمعوه من الحق زيادة علم لم يعلموه، وهو من معاني قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، يجعلون ذلك عذراً لهم في ردهم وإنكارهم له ولو كان دليله بيناً!

ولهذا ينبغي للمربي القدوة أن يعتني بما غفل عنه الناس أكثر من عنايته بما هو معلوم لهم[٣]، وإظهاره لهم إذا أُمنت المفسدة، ولقد فطن

(١) أبو داود: ٨٦٢، والنسائي: ١١١٢.

(٢) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٢٢ ـ ص٥٣٧، وج٣٢ ـ ص٢٥٧ ـ ٢٦٠.

(٣) حتى يكون في زمرة من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، وحتى يكون ممن شارك في التجديد وإصلاح ما أفسد الناس، وممن قام بواجب البيان =

ابن تيمية لذلك، فغالب علومه التي بثها في الناس من هذا القبيل، وقد قال: «إن في المداومة على نوع دون غيره هجران لبعض المشروع، بحيث يصير في نفوس كثير من العامة أنه ليس من الدين، وفي نفوس خاصة هذه العامة عملهم مخالف علمهم؛ فإن علماءهم يعلمون أنه من الدين ثم يتركون بيان ذلك؛ إما خشية من الخلق، وإما اشتراء بآيات الله ثمناً قليلاً من الرئاسة والمال، كما كان عليه أهل الكتاب، كما قد رأينا من تعود أن لا يسمع إقامة إلا موترة، أو مشفوعة، فإذا سمع الإقامة الأخرى نفر عنها وأنكرها، ويصير كأنه سمع أذاناً ليس أذان المسلمين، وكذلك من اعتاد القنوت قبل الركوع أو بعده.

وهجران بعض المشروع سبب لوقوع العداوة والبغضاء بين الأمة، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة: ١٤]، فأخبر سبحانه أن نسيانهم حظاً مما ذكروا به سبب لإغراء العداوة والبغضاء بينهم، فإذا اتبع الرجل جميع المشروع المسنون، واستعمل الأنواع المشروعة؛ هذا تارة وهذا تارة، كان قد حفظت السنة علماً وعملاً، وزالت المفسدة المخوفة من ترك ذلك، ونكتة هذا الوجه: أن في العمل به تارة حفظ للشريعة، وترك ذلك قد يكون سبباً لإضاعته ونسيانه[1]».

و ـ تمييز الشخص أو الشيء بما يدل عليه ويعرف به:

إن التمييز والتفصيل والبيان أمر مهم؛ يندفع به كثير من الإشكالات والملابسات، ولهذا سمى الله كتابه فرقاناً؛ لأنه يفرق بين الحق

= عملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٢٤ ـ ص٢٥٠.

والباطل، وهذا ما جرى عليه ابن تيمية في كتبه وفتاويه وردوده؛ فقد كان محبّاً للبيان والتمييز حتى في تسمية الأشياء وأوصافها، لئلا تلتبس بغيرها مما قد يشابهها، ولهذا قال: «أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء»، وقال: «لهذا احتيج في الأعلام إلى التمييز باسم الأب، أو الجد مع الأب إذا لم يحصل التمييز باسمه واسم أبيه، وإن حصل التمييز بذلك اكتفي به، كما فعل النبي في كتابة الصلح بينه وبين قريش، حيث كتب: (هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو)،[١] بعد أن امتنع المشركون أن يكتبوا محمداً رسول الله، وهو ﷺ متميز بصفة الرسالة والنبوة عند الله، فلما غير تمييزه بوصفه الذي يوجب تصديقه والإيمان به، وافقهم على التمييز باسم أبيه».

ز ـ الابتعاد عما يفرق الناس بواقع العِرق أو اللون ونحو ذلك:

إن مما يفرق الجماعة ويفت في عضدها، ويوغر الصدور، ويثير الأحقاد؛ احتقار الناس وتقييمهم بواقع العرق، أو اللون، أو الأحساب والأنساب، أو الأوطان والقوميات على اختلافها، ونحو ذلك مما لا يزال الشيطان يكيد به الإنسان منذ ابتدأ باحتقار أبينا آدم بغير حق، فقال معجباً بنفسه: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص: ٧٦]، وهذه طريقة المفلسين؛ إذ ليس ذلك مما يقدم أو يؤخر؛ لأنه لا حيلة للإنسان فيه، وإنما الذي يقدم المرء أو يؤخره عمله، وتقواه لمولاه[٢]، وقد بين

---

(١) ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ج٢٠ ـ ص٤١٦ ـ ٤١٧، والحديث عند البخاري: ٢٦٩٩، ومسلم: ١٧٨٣.

(٢) روى الإمام مالك في (الموطأ: ٢٨٤٢، ج٤/ ص١١١٧) عن يحيى بن سعيد: أن أبا الدرداء كتب إلى سلمان الفارسي: أن هلم إلى الأرض =

سبحانه الهدف من جعلنا كذلك؛ وهو التعارف، بحيث نعرف أنسابنا، ونصل أرحامنا، فنقوم بما أمرنا به نحوهم[1]، قال ابن تيمية: «ذكر الناس بما يكرهون هو في الأصل على وجهين؛ أحدهما: ذكر النوع، والثاني: ذكر الشخص المعين الحي أو الميت.

= المقدسة. فكتب إليه سلمان: إن الأرض لا تقدس أحداً، وإنما يقدس الإنسان عمله. . . ، فإذا كان هذا في القدس التي أسرى الله برسوله إليها فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، فما الظن بالذين يتفاخرون بما دونها من الأوطان؟!

(١) قال ابن كثير في تفسيره (ج٤، ص٢٧٧ ـ ٢٧٨): «جميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية؛ وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً، منبهاً على تساويهم في البشرية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ أي ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته، وقال مجاهد: «كما يقال فلان بن فلان من كذا وكذا» أي من قبيلة كذا وكذا. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (تعلَّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر) ـ أخرجه الترمذي: ١٩٧٩، وصححه الألباني في الصحيحة: ٢٧٩، وأصله في البخاري: ٥٩٨٥ ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾؛ أي إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب، وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ انتهى، وقد روى أبو هريرة عن النبي قال ﷺ: (لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجُعَل الذي يُدَهْده الخراء بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم عُبيّة الجاهلية، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب)؛ أخرجه الترمذي: ٣٩٥٥، وحسنه، وحسنه الألباني.

أما الأول فكل صنف ذمه الله ورسوله يجب ذمه وليس ذلك من الغيبة، كما أن كل صنف مدحه الله ورسوله يجب مدحه، وما لعنه الله ورسوله لُعن. . . .

فإذا كان المقصود الأمر بالخير والترغيب فيه، والنهي عن الشر والتحذير منه فلا بد من ذكر ذلك. . .، وليس لأحد أن يُعلق الحمد والذم، والحب والبغض، والموالاة والمعاداة، والصلاة واللَّعن، بغير الأسماء التي علق الله بها ذلك؛ مثل أسماء القبائل، والمدائن، والمذاهب، والطرائق المضافة إلى الأئمة والمشايخ، ونحو ذلك مما يراد به التعريف ليتميز عن غيره، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. .، فأما الحمد والذم، والحب والبغض، والموالاة والمعاداة، فإنما تكون بالأشياء التي أنزل الله بها كتابه. . .، وأما الشخص المعين فيذكر ما فيه من الشر في مواضع. . . .

وقال: العبرة بالأسماء التي حمدها الله تعالى وذمها؛ كالعالم والجاهل، والمؤمن والكافر، والبر والفاجر، وقد جاء الكتاب بمدح بعض الأعاجم؛ قال تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ [الجمعة: ٢ ـ ٣][1]، وفي الترمذي (٣٢٦٠) عن أبي هريرة مرفوعاً في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، أنهم: «من أبناء فارس».

ورويت آثار كثيرة في فضائل رجال فارس؛ كالحسن، وابن سيرين،

---

(١) فيض القدير ـ المصدر السابق ـ ج٥ ـ ص٣٩٢، بتصرف، وفي الصحيحين تفسير الآية بوضع النبي ﷺ يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء»، وأما حديث الترمذي فصححه الألباني.

وعكرمة، إلى أن وجد معهم من المبرزين في الدين والعلم، حتى صاروا أفضل في ذلك من كثير من العرب، والفضل الحقيقي هو اتباع ما بعث الله به محمداً من الإيمان والعلم، فكل من كان فيه أمكن كان أفضل».

ح ـ أساليبه التربوية في مناصحة الناس وتغيير المنكر:

لقد راعى ابن تيمية التدرج المقصود الهادف في ذلك؛ فهو يغير باليد فيما قدر عليه بلا مفسدة، ورأى المصلحة في المبادرة إلى تغييره؛ إما بإزالته بالكلية، وإما بتخفيف ضرره، وإما بتغييره عن وجهه الذي كان عليه ونحو ذلك، ويغير باللسان في أكثر أحيانه، وربما كاتب أصحاب المنكر وبين لهم ضرره، وحثهم على تركه، أو بين لهم المعروف الواجب عليهم وحثهم على فعله، مراعياً في كل ذلك أحوال المدعو، مستعيناً بالوسائل المشروعة والمتيسرة لديه، ومن تلك الأساليب:

أولاً ـ تغيير المنكر باليد:

لقد قطع الصخرة التي كانت بنهر قلوط[١] تزار وينذر لها! فقطعها وأراح المسلمين منها، ومن الشرك بها، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً.

وطاف هو وأصحابه على الخمارات والحانات، فكسروا آنية الخمور، وشققوا الظروف، وأراقوا الخمور، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش، ففرح الناس بذلك[٢].

---

(١) قلوط: نهر بالشام.

(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص١٦، وهذا من الأساليب العلاجية للحاضرين، والوقائية للاحقين، وإنما قام بالتغيير باليد لأنه كان ممكناً في تلك الفترة، مع تحقق المصلحة وانتفاء المفسدة.

ثانياً ـ تعزير المفسدين (أسلوب العقاب البدني):

وهو أيضاً من الأساليب التربوية الشرعية التي تعلمها ابن تيمية وعمل بها، وهي من باب: «آخر الدواء الكي»، وقد ورد هذا الأسلوب في القرآن لعلاج نشوز المرأة، وفي السنة لتأديب الصبي على ترك الصلاة، قال ابن كثير[١]: «وفي رجب أُحضر إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية شيخ كان يلبس دلقاً[٢] كبيراً متسعاً جدّاً، يسمى: المجاهد إبراهيم القطا، فأمر بتقطيع ذلك الدلق، فتناهبه الناس من كل جانب، وقطعوه حتى لم يدعوا فيه شيئاً، وأمر بحلق رأسه ـ وكان ذا شعر ـ، وقلم أظفاره ـ وكانوا طوالاً جداً ـ، وحف شاربه المسبل على فمه، المخالف للسنة، واستتابه من كلام الفحش، وأكل ما يغير العقل من الحشيشة وما لا يجوز من المحرمات وغيرها».

ثالثاً ـ منع من يتكلم بلا علم من الفتيا فيما لا يعلم:

هذا أيضاً من الأساليب التربوية الشرعية التي تعنى بحفظ الناس من التقول على الله بغير علم، فإنه محرم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، كما أن في ذلك صيانة لعقول المجتمع من تلاعب الأفاكين والمتخرصين، وما أكثرهم في المجتمعات، ولهذا استحضر محمد الخباز البلاسي، فاستتابه أيضاً عن أكل المحرمات ومخالطة أهل الذمة، وكتب عليه مكتوباً: أن لا يتكلم في تعبير المنامات، ولا في غيرها بما لا علم له به[٣]».

---

(١) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٤٤، في حوادث سنة أربع وسبعمائة.

(٢) الدلق: فرو الهرة ونحوه.

(٣) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٤٥.

رابعاً ـ مناصحة الكبار وأصحاب القرار بالسر، ومكاتبتهم:

لم يكن تمنع ابن تيمية هيبةُ عظيم من البشر أن يذكر بحق إذا رآه أو سمعه، وكان يسلك في ذلك أساليب متعددة متنوعة؛ تارة بالسر والمخافتة، وتارة بالجهر والعلانية؛ كما قال نوح ﷺ: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، وقال: ﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح: ٥، ٨ ـ ٩]، ولهذا نهى رحمه الله حسام الدين مهنا بن عيسى بن مهنا ـ أمير العرب بالشام ـ: «أن يُغير بعضهم على بعض، وعرّفهم أن ذلك حرام، وله في ذلك مصنف جليل[(١)]».

خامساً ـ مناصحة ولاة الأمر والصدع بالحق:

إن النصيحة ينبغي أن تكون بالسر والرفق ـ خاصة مع ولاة الأمر ـ حتى تكون أدعى للقبول؛ كما قال تعالى لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤]، لكنها قد تكون جهراً أو بشيء من الشدة في بعض الأحوال، وهذا يختلف باختلاف المقام، والأشخاص، ونحو ذلك، بل ربما كان ذلك سبباً لإظهار الحق والتذكير به عند المعاند والمداهن والمنافق ونحوهم، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٣]، قال ابن القلانسي: «تكلم الوزير في إعادة أهل الذمة إلى لبس العمائم البيض بالعلائم، وأنهم قد التزموا للديوان بسبع مائة ألف في كل سنة، زيادة على الحالية، فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام، وكبار العلماء من أهل مصر والشام، من جملتهم ابن الزملكاني، فجثا

---

(١) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ج١٤ ـ ص٢١٧ ـ ٢١٨، وج١٤ ـ ص٦٩.

الشيخ تقي الدين على ركبتيه وتكلم مع السلطان في ذلك بكلام غليظ، وردَّ على الوزير ما قاله ردّاً عنيفاً، وجعل يرفع صوته، والسلطان يتلافاه ويسكته بترفق وتؤدة وتوقير، وبالغ الشيخ في الكلام، وقال ما لا يستطيع أحد أن يقوم بمثله ولا بقريب منه، وبالغ في التشنيع على من يوافق في ذلك، وقال للسلطان: «حاشاك أن يكون أول مجلس جلسته في أبهة الملك تنصر فيه أهل الذمة لأجل حطام الدنيا الفانية، فاذكر نعمة الله عليك إذ رد ملكك إليك، وكبت عدوك ونصرك على أعدائك».

فذكر أن الجاشنكير هو الذي جدد عليهم ذلك، فقال: «والذي فعله الجاشنكير كان من مراسيمك، لأنه إنما كان نائباً لك».

فأعجب السلطان ذلك، واستمر بهم على ذلك، وجرت فصول يطول ذكرها، وقد كان السلطان أعلم بالشيخ من جميع الحاضرين ودينه وزينته، وقيامه بالحق وشجاعته.

وقال في مجلس نائب السلطنة الأفرم، لما قال له من ينازعه في العقيدة الواسطية: «إنه انتسب إلى أحمد أناس من الحشوية والمشبهة ونحو هذا الكلام»، قال: «المشبهة والمجسمة في غير أصحاب الإمام أحمد أكثر منهم فيهم...، وقلت له: من في أصحابنا حشوي بالمعنى الذي تريده؟ الأثرم؟ أبو داود المروزي؟ الخلال؟ أبو بكر عبدالعزيز؟ أبو الحسن التميمي؟ ابن حامد؟ القاضي أبو يعلى؟ أبو الخطاب بن عقيل؟ ورفعت صوتي، وقلت: سمّهم؛ قل لي: من منهم؟[١].

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ المرجع السابق ـ ج٣ ـ ص١٩٧ و١٩٨.



الفصل السادس

الخاتمة



الفصل السادس

الخاتمة

٥ ـ ١ ـ ملخص الدراسة:

تعتبر التربية أحد العناصر الثلاثة المهمة التي تقوم عليها حياة الأمة؛ بجانب الأمن والصحة، ولما كان لابد للتربية من أساليب تناسبها، وكانت الأساليب التي يستخدمها الناس كثيرة متنوعة، لأنها وسائل لتحقيق الأهداف المنشودة، اختار الباحث أن يكون موضوع دراسته: **الأساليب التربوية عند الإمام ابن تيمية**، وذلك لما اختص به هذا الإمام من الفضل والديانة والأثر الإصلاحي الرائد في الأمة، رجاء أن تكون عوناً للقائمين على التربية على اختلاف تخصصاتهم ومستوياتهم.

لقد استخدم الباحث في دراسته المنهج الوصفي، حيث تناول كتاب (مجموع الفتاوى) المكون من سبعة وثلاثين مجلداً بالدراسة والتحليل، مستعيناً ببعض مصادر ترجمة الإمام؛ ككتاب (البداية والنهاية) لابن كثير، إضافة إلى الدراسات السابقة، وبعض المصادر والمراجع.

ولقد قسم الباحث دراسته إلى خمسة فصول بعد الفصل الأول التمهيدي، قسم الفصل الثاني منها قسمين:

ذكر في القسم الأول: التعريف بابن تيمية؛ من جهة نسبه، ومولده، ونشأته، وعصره الذي نشأ فيه وتكونت فيه شخصيته، والمحن التي

عرضت له، وموقفه منها ومن أهلها، وبعض أخلاقه، ومن ثم وفاته وجنازته التي لم يُر مثلها في التاريخ، وثناء العلماء عليه ورثائهم له.

والقسم الثاني: عرض فيه لدراستين عربيتين سابقتين لهما تعلق ببعض جوانب دراسته الحالية، فتناولهما بالعرض، مبيناً وجه الاستفادة منهما.

ثم تناول في الفصل الثالث إجراءات الدراسة، حيث اختار القرن الثامن الهجري مجتمعاً لدراسته؛ وذلك لأنه أشبه العصور ـ فيما يرى ـ بالعصر الحالي كما تقدم، وعرض فيه لعينة الدراسة، والتي تمثلت في اختياره الإمام ابن تيمية كإمام تربوي، لدراسة أساليبه التربوية من خلال كتابه (مجموع الفتاوى)، لما امتاز به من جهد إصلاحي رائد علماً وعملاً.

وقد ذكر في هذا الفصل منهجه الوصفي الذي اتبعه في دراسته، ومنهجيته فيها، متناولا الخطوات التي سلكها حتى خرجت دراسته في شكلها الحالي.

وفي الفصل الرابع أجاب الباحث عن أسئلة الدراسة الثلاثة بما يأتي:

أما بالنسبة للسؤال الأول؛ وهو التعريف بابن تيمية كإمام تربوي؛ فقد عرض الباحث للأسباب التي أدت إلى نبوغه في العلم والعمل والإصلاح، والتي تمثلت في: طلبه للعلم وتبحره فيه، ونشره له باللسان والبنان، وقيامه بواجب النصح للناس كافة على مختلف الجوانب، ودفاعه عن المسلمين، مستعملاً في سبيل ذلك جميع إمكاناته، مبيناً أثر ذلك على من حوله، وما خاضه في سبيل الإصلاح من صراعات فكرية

وتربوية وجهادية، وما خلفها من آثار إيجابية مشهودة معلومة.

وبالنسبة للسؤال الثاني منها، والمتعلق بمفهوم التربية عند الإمام ابن تيمية، فقد رجع الباحث إلى كلام ابن تيمية حول معنى قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦] الآية، وظهر له أن مفهوم التربية عند الإمام ابن تيمية يدور حول: علم المربي بما يربي به، وعمله بما علم، وخبرته بمن يربيه، واستعمال الأسلوب الأمثل في تربيته وتأديبه، وإصلاحه وتزكيته، وتنمية قدراته في مختلف الجوانب شيئاً فشيئاً.

ثم أتبع ذلك بذكر معاني التربية ومشتقاتها في كتب التفسير والمعاجم اللغوية وكتب اللغة وغيرها، وتعريفاتها الإجرائية والإصطلاحية عند كثير من المربين، كما تطرق للأساليب التربوية لغة واصطلاحاً، وبعض ضوابطها.

وفي القسم الثالث منها، والمتعلق بالأساليب التربوية عند الإمام ابن تيمية: تناول الباحث أهم تلك الأساليب، والتي استنبطها من كتاب: (مجموع الفتاوى)، وربما استعان ببعض كتب تلامذته وغيرها التي بها شيء من التفصيل للأسلوب المذكور أو ما يتعلق به، مقتصراً على الجوانب العقلية، والجوانب التربوية والتعليمية، والجوانب الاجتماعية لمزيد الحاجة إليها، ذاكراً بعض الأسس والمبادئ التربوية التي كان ينطلق منها الإمام رحمه الله.

وفي الفصل الأخير تناول الباحث النتائج التي توصل إليها، وصلتها بأسئلة الدراسة، وعلاقتها بمعاني التربية، وقد كان من أهمها نشأة ابن تيميه الدينية في بيت علم وفضل، ساعده على صقل شخصيته منذ

الصغر، كذلك ظروف عصره، وكثرة التيارات الفكرية، وتعدد الصراعات السياسية والعسكرية وغزو التتار، مع حرصه وإخلاصه ومثابرته وتوفيق الله له، كل ذلك مكّنه من القيام بدور إصلاحي على مستويات مختلفة، آتت ثمارها في حياته بالنصر الذي تحقق من طرد التتار، وكذلك أوبة كثير من الناس إلى الرجوع إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، عودة شاملة.

إضافة إلى سعة علمه، ورجاحة عقله، وحسن أساليبه التربوية التي تمكن بها من التعامل مع كثير من الشبهات التي كانت راكدة في أذهان الكثيرين واقتلاعها.

لقد تمسك ابن تيمية بمبدأ أن النجاة في التمسك بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة في كل الأحوال والظروف، ولا أدل على ذلك من موقفه من السلطان الذي دعاه للخروج، فلما وافقه على طلبه، وطلب منه الوقوف للقتال في معسكره، رفض، وبين له: أن السنة أن يقف الرجل مع قومه، وهو من أهل الشام فيقف معهم.

ثم ختم الباحث دراسته بعدد من التوصيات والمقترحات التي من أهمها:

١ ـ مواصلة الدراسات بشأن ضوابط الأساليب التربوية، وإظهار القيم والمبادئ والأسس التربوية المهمة عند ابن تيمية وغيره من أعلام التربية المسلمين، وإبراز مكانتهم الحقيقية، ودورهم في إصلاح الأمة والنهوض بها.

٢ ـ جمع أكبر قدر ممكن من أساليب النبي ﷺ التربوية وأساليب روّاد التربية المسلمين، وتبوبيها على الموضوعات، ليسهل الرجوع إليها والاستفادة منها.

٥ ـ ٢ ـ النتائج التي توصل إليها الباحث:

لقد توصل الباحث إلى النتائج التالية، والتي تمكّن بها من تحقيق أهداف الدراسة، وذلك عن طريق الإجابة عن أسئلتها الثلاثة المذكورة سابقا، والنتائج هي:

أ ـ تبين أن ابن تيمية نشأ في بيت علم وفضل، حيث كانت أسرته تشتغل بالعلم؛

فكان أبوه وجده عالمين كبيرين، وأخواه: عبد الله وعبد الرحمن اشتغلا بالعلم كذلك، وليس هذا فحسب، بل إن أجداده وبعض أمهاته وذويه كانوا علماء كذلك.

إضافة إلى ولادته في عصر صراعات فكرية مختلفة، وتيارات مذهبية عديدة، وأطماع خارجية ممثلة في غزو التتار بلاد العراق والشام، وبقايا الحملات الصليبية في بعض بلاد الإسلام، وانتشار الجرائم والفساد الأخلاقي؛ كشرب الخمر، والزنى، وقطع الطريق، والشعوذة والدجل، بل وصل الحال إلى التعرض لدين الله ورسله ﷺ بالسخرية والاستهزاء، فكان عصره أشبه ما يكون بعصرنا الحالي.

فطلب العلم صغيراً، ورضعه من أحضان أسرته وعلماء بلده التي كان فيها علماء أجلاء كثيرون، وحظي باهتمامهم وتربيتهم له، علاوة على شدة فطنته وفرط ذكائه، وما جبل عليه من محبة الخير وكراهية الشر والظلم بكل أنواعه.

لقد تصدر للتدريس والإفتاء وهو دون العشرين من عمره، وقام بواجب النصح وتغيير المنكر بيده في بعض الأحيان؛ كتعزيره لبعض المفسدين، وبلسانه وقلمه في أحيان كثيرة، كإجابته على تساؤلات الناس

واستفساراتهم، وكشف الشبه عنهم، والرد على المخالفين للسنة، وأعداء الإسلام، وما رد الله به من كيد التتار، حيث شجع على قتالهم بالنفس والمال، وصبّر وصابر، بل وقاتلهم بمن معه من المسلمين، وحصل له بذلك وللمسلمين خير وعزة ورفعة لا توصف.

علاوة على ما خلفه من تلامذة أفذاذ أبرار، واصلوا المشوار في الإصلاح الفكري والعملي، وهذا كله يبرهن مبلغ علمه وخبرته وحنكته وصبره، وكونه إماماً تربوياً يقتدى به، كما أشارت إلى ذلك الدراسة السابقة الأولى في القسم الأول منها.

ب ـ تبين من خلال عرض كلام ابن تيمية حول معنى (رِبِّيُّونَ) في الآية، ومن خلال الاطلاع على معنى التربية في المعاجم اللغوية وكتب غريب الحديث والتفسير وغيرها، أن مفهوم التربية عند الإمام ابن تيمية لا يختلف كثيراً عما ورد في هذه المصادر والمراجع، بل يدور حولها ويرجع إليها، فهو يَعتبر المربي: هو العالم العامل الخبير بمن يربيه، الذي يقوم بتأديب، وإصلاح، وتزكية، وتنمية قدرات من يربيه في مختلف الجوانب، شيئاً فشيئاً.

وإلى نحو هذه المعاني يعود لفظ التربية، وإن كان بعض هذه المعاني لوازم لها وليس حدّاً أو تعريفاً لها.

على أن ماجد عرسان يقول: إن آراء ابن تيمية في التربية تتميز بثلاثة أمور:

الأول: أنه ركز على مفاهيم أساسية تتصل اتصالاً مباشراً بأصول التربية؛ مثل: فلسفة التربية، وأهدافها، والمناهج، وعلاقة التربية بالثقافة، والتراث، إلى غير ذلك من الموضوعات.

الثاني: أن ابن تيمية في كل تقريراته التربوية إنما كان ينطلق من التزام راسخ بما جاء في القرآن والسنة، باعتبارهما المصدر النقي، والموجِّه الصحيح لأي نشاط تربوي.

الثالث: أن البحث في ميدان التربية عند ابن تيمية كان استجابة لمعالجة الانحرافات التي ضربت مؤسسات التربية الإسلامية ومناهجها، ولبلورة البدائل الفكرية والتربوية التي تقوّم هذه الانحرافات وتعالجها(١).

ج ـ لقد تبين أن ابن تيمية قد استخدم أساليب تربوية كثيرة في مجموع الفتاوى، اختار الباحث منها ما يتعلق بالجوانب العقلية التي ظهر أن الإمام كان يوليها عناية فائقة، فكان يبدئ فيها ويعيد، ويدندن حولها، وله في ذلك مؤلف، ويذكر آراءه والمبادئ التي ينطلق منها في نظرته للعقل لما له من أهمية جسيمة.

والباحث عرض لجملة منها، مما ينمي العقل ويحافظ عليه من كل ما يؤثر على فطرته وسلامته في أداء وظيفته.

كما تعرض للأساليب التربوية التي تتعلق بالجوانب التربوية والتعليمية؛ إذ إن التربية والتعليم وجهان لشيء واحد، فلا ينفكان عن بعضهما، فعرض لما يعين الطلاب على التعلم ويشجع عليه، وما يحافظ على كرامة مهنة التعليم ويراعي حال المتعلم والمعلم، وما يكون سبباً لاستمرارية التعلم وجني فائدته، ونحو ذلك.

كما تبين أن الإمام كان يستخدم أساليب تربوية كثيرة تتعلق

(١) ماجد عرسان الكيلاني ـ الفكر التربوي عند ابن تيمية ـ المرجع السابق ـ ص٨٩.

بالمجتمع، بحكم مخالطته للناس ودعوته لهم، وما تعرض له من محن وفتن من موافقين ومخالفين، وقد عرض لجملة نافعة منها مما يعين على التعاون وتحصيل المطلوب والنجاة أو دفع المرهوب، والأساليب التي تزيد في تماسك الجماعة وتُبعد التباغض بين أفرادها، وكذلك الأساليب العلاجية والوقائية لأمراض المجتمع ونحو ذلك.

لقد تبرهن أن ابن تيمية كان يستخدم في كل ذلك أساليب تربوية متنوعة متعددة، تتناسب مع المواقف التي يريد إدخال الإصلاح الإيجابي فيها، ولهذا غير بعض المنكرات باليد، وبعضها أمر أصحابه ليغيروها، تدريباً عملياً لهم على تغيير المنكر، وبعضها طلب من أصحابها تغييرها أو تركها، وبعضها نصح أصحابها وكاتبهم بشأنها، وربما ألف مؤلفاً فيها، وذلك حين يشتد الأمر أو يتفشى، أو تكون له أصول فكرية، كما أنه اكتفى بنصح بعضهم شفويّاً، وأغلظ في أحوال، وألان في أحوال أخرى بحسب المقام.

لقد كان رحمه الله ثابتاً في كل مواقفه وتصرفاته على الأسس التربوية التي اختطها النبي ﷺ، ودرج عليها سلف الأمة، فكانت ماثلة أمامه، وقد ترسمها في حياته في جميع شؤونه وتصرفاته، في حلِّه وترحاله، مع نفسه وتلامذته، مع مجتمعه ومن يخالطه، مع الموافقين والمخالفين، بل حتى مع أعدائه، وقد تقدم رفضه لطلب الأمير في الوقوف معه، فقال له: «إن السنة أن يقف الرجل مع قومه فيقاتل معهم».

كما كان رحمه الله يجمع بين العلم النظري بالأساليب التربوية والتطبيق العملي لها في أكثر الأحيان، وهكذا ينبغي أن يكون المربي مستعداً؛ متزوداً بالعلم النظري الذي يتمكن من تطبيقه والاستفادة منه

وقت الحاجة، وأن يكون عاملاً بما يدعو الناس إليه؛ إذ لا خير في علم لا ينفع، ولا يفيد صاحبه.

ومما سبق يتبين إمكانية الإصلاح الفكري والعملي ـ اليوم ـ إذا ما استخدمت نفس الأساليب التربوية التي استعملها الإمام أو نحوها بحكمة، سواء مع النفس أو العقل أو الآخرين من موافقين ومخالفين، فإن سنة الله لا تتبدل أبداً، والتاريخ كما قيل: «يعيد نفسه»، وهذا ما كان يسعى الباحث إلى التوصل إليه.

٥ ـ ٣ ـ التوصيات:

وفي ضوء ما توصلت إليه الدراسة من نتائج، فإن الباحث يوصي بما يأتي:

١ ـ إبراز مكانة العلماء المسلمين في المجال التربوي وغيره، والاعتزاز بالتراث الإسلامي، من خلال إجراء دراسات حول أعلام الفكر التربوي الإسلامي المستقى من الكتاب السنة وهدي سلف الأمة، وتفنيد المزاعم والشبه التي أثيرت وتثار حول الإمام ابن تيمية وغيره من أعلام التربية في العالم الإسلامي، لتجلية الحقيقة وإظهارها.

٢ ـ إجراء دراسة حول ضوابط الأساليب التربوية، وأسسها، والمبادئ التي يجب أن تنطلق منها، في ضوء استعمالات مفهوم التربية في اللغة العربية والسنة النبوية.

٣ ـ إجراء دراسات حول مدى تطبيق الأساليب التربوية التي خلّفها علماء الإسلام الربانيون في المؤسسات التربوية المختلفة ومناهجها، ومدى استفادة القائمين عليها من تلك الأساليب، وتزويد مكتبات المؤسسات التربوية الخاصة منها والعامة بكتب العلماء الربانيين، حتى

يتمكن المربون ونحوهم من الرجوع إليها عند القيام بالعملية التربوية، في ضوء ما جاء فيها من قيم إسلامية وأساليب تربوية، ترتبط بالعلم، والمتعلم، والمنهج، وأساليب التدريس، وغيرها.

٥ ـ ٤ ـ المقترحات:

وفي نهاية الدراسة يضع الباحث بين يدي القارئ الكريم بعض المقترحات، التي يأمل أن تساهم في رقي التعليم في العالم الإسلامي، وارتباطه بتراث أجداده الخالد، وهي:

١ ـ جمع أكبر قدر ممكن من الأساليب التربوية النبوية وترتيبها على الموضوعات أو المواقف التربوية أو التعليمية، حتى يسهل الرجوع إليها.

٢ ـ إجراء دراسة تتقصى الأساليب التربوية الأصيلة عند بعض أعلام التربية المسلمين البارزين، وترتيبها على الموضوعات أو المواقف التربوية أو التعليمية.

٣ـ مواصلة البحث عن الأساليب التربوية التي استخدمها ابن تيمية في كتبه المختلفة، وخصوصاً كتاب: (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)، وكتاب: (درء تعارض العقل والنقل).

٤ ـ إبراز الفوائد والقيم والأساليب التربوية المستفادة من تراجم ابن تيمية.

٥ ـ دراسة الآثار التربوية المستفادة من حياة الإمام ابن تيمية.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إبراهيم أنيس وآخرون ـ المعجم الوسيط ـ بلا مكان ـ دار إحياء التراث العربي ـ بلا تاريخ.
- إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مفلح ـ المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد ـ الرياض ـ مكتبة الرشد ـ ١٩٩٠م.
- أحمد بن حنبل الشيباني ـ مسند الإمام أحمد ـ بيروت ـ مؤسسة الرسالة ـ ١٤٢١ هـ ٢٠٠١م.
- أحمد بن شعيب النسائي ـ سنن النسائي ـ الرياض ـ بيت الأفكار الدولية ـ بلا تاريخ.
- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ـ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ـ بيروت ـ المكتب الإسلامي ـ الطبعة الرابعة ـ ١٩٨٨م.
- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ـ تفسير آيات أشكلت، بتحقيق عبدالعزيز بن محمد الخليفة ـ الرياض ـ مكتبة الرشد ـ ١٤١٥هـ
- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ـ مجموع الفتاوى ـ الرياض ـ مكتبة العبيكان ـ ١٩٩٨م.
- أحمد بن علي بن أبي بكر الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ بلا تاريخ.
- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ ١٩٨٩م.
- أحمد بن فارس بن زكريا ـ معجم مقاييس اللغة ـ بيروت ـ دار إحياء التراث العربي ـ ٢٠٠١م.

- إسماعيل بن عمر بن كثير ـ البداية والنهاية ـ القاهرة ـ دار ابن حيان ـ ١٩٩٢م.
- إسماعيل بن عمر بن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ الجبيل ـ دار الصدّيق ـ ٢٠٠٤م.
- سلمان خلف الله ـ منهج النبي ﷺ في التعامل مع الناشئة ـ عمّان ـ بيت الأفكار الدولية ـ ١٤٢٠هـ.
- سليمان بن الأشعث السجستاني ـ سنن أبي داود ـ الرياض ـ بيت الأفكار الدولية ـ بلا تاريخ.
- عبد الرحمن الباني ـ مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام ـ الرياض ـ المكتب الإسلامي ـ ١٩٨٣م.
- عبد الرحمن السيوطي ـ طبقات الحفاظ ـ عابدين ـ مكتبة وهبة ـ ١٩٧٣م.
- عبدالرحمن النحلاوي ـ أعلام التربية في تاريخ الإسلام ـ دمشق ـ دار الفكر ـ ١٩٨٦م.
- عبد السلام محمد هارون ـ تحقيق النصوص ونشرها ـ القاهرة ـ مكتبة السنة ـ الطبعة الخامسة ـ ١٤١٠هـ.
- عبد الله بن أحمد العلاف ـ كلنا دعاة ـ مكة المكرمة ـ مكتبة الطرفين ـ ١٤٢٦هـ.
- عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي ـ فقه اللغة ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ بلا تاريخ.
- علي بن محمد بن أبي العز الحنفي ـ شرح العقيدة الطحاوية ـ بيروت ـ المكتب الإسلامي ـ ١٩٨٨م.
- علي بن محمد الجرجاني ـ التعريفات ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ ١٩٩٥م.
- عمر بن علي بن موسى البزار ـ الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ـ بيروت ـ المكتب الإسلامي ـ ط٣ ـ ١٤٠٠هـ.
- ماجد عرسان الكيلاني ـ الفكر التربوي عند ابن تيمية ـ المدينة المنورة ـ دار التراث ـ ط٢ ـ ١٩٨٦م.

- مالك بن أنس ـ الموطأ ـ أبو ظبي ـ مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية ـ ٢٠٠٤م.
- المبارك بن محمد بن الأثير الجزري ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ ١٩٩٧م.
- محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ابن القيم) ـ الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (القصيدة النونية) ـ الرياض ـ دار ابن خزيمة ـ ١٩٩٦م.
- محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ابن القيم) ـ زاد المعاد ـ بيروت ـ مؤسسة الرسالة ـ ١٩٩٦م.
- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ـ مختار الصحاح ـ مكة المكرمة ـ المكتبة التجارية ـ بلا تاريخ.
- محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي ـ الرد الوافر ـ بيروت ـ المكتب الإسلامي ـ ١٣٩٣هـ.
- محمد بن أحمد القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ـ القاهرة ـ دار الحديث ـ ١٩٩٤م.
- محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي ـ العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي ـ بلا تاريخ.
- محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ـ سير أعلام النبلاء ـ بيروت ـ مؤسسة الرسالة ـ ١٩٩٦م.
- محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ـ معجم الشيوخ (المعجم الكبير) ـ الطائف ـ مكتبة الصديق ـ ١٩٨٨م.
- محمد بن إسماعيل البخاري ـ صحيح البخاري ـ الرياض ـ بيت الأفكار الدولية ـ بلا تاريخ.
- محمد بن مكرم بن علي بن محمد الأنصاري (ابن منظور) ـ لسان العرب ـ بيروت ـ دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي ـ ١٩٩٥م.
- محمد بن سليمان المغربي ـ جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد ـ بيروت ـ مكتبة ابن كثير ودار ابن حزم ـ ١٩٩٨م.

- محمد بن عيسى الترمذي ـ جامع الترمذي ـ عمّان ـ بيت الأفكار الدولية ـ بلا تاريخ.
- محمد بن يزيد القزويني ـ سنن ابن ماجة ـ عمّان ـ بيت الأفكار الدولية ـ بلا تاريخ.
- محمد عزيز شمس، وعلي بن محمد العمران ـ الجامع لسيرة شيخ الإسلام ـ مكة المكرمة ـ دار عالم الفوائد ـ ١٤٢٢هـ.
- محمد ناصر الدين الألباني ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ـ بيروت ـ المكتب الإسلامي ـ ط٢ ـ ١٩٨٥م.
- محمد ناصر الدين الألباني ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ الرياض ـ المعارف ـ ط٤ ـ ١٩٨٨م.
- محمد ناصر الدين الألباني ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ بيروت ـ المكتب الإسلامي ـ ط٤ ـ ١٩٨٥م.
- محمد ناصر الدين الألباني ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ـ الرياض ـ المعارف للنشر والتوزيع ـ ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.
- محمد ناصر الدين الألباني ـ صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري ـ القاهرة ـ مكتبة ابن تيمية ـ ١٩٩٤م.
- محمد ناصر الدين الألباني ـ صحيح الترغيب والترهيب ـ الرياض ـ مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ـ ٢٠٠٠م.
- محمد ناصر الدين الألباني ـ صحيح الجامع ـ بيروت ـ المكتب الاسلامي ـ ١٩٨٨م.
- محمد ناصر الدين الألباني ـ ضعيف الأدب المفرد للإمام البخاري ـ القاهرة ـ مكتبة ابن تيمية ـ ١٩٩٤م.
- محمد ناصر الدين الألباني ـ ضعيف سنن أبي داود ـ بيروت ـ المكتب الإسلامي ـ ١٩٩٠م.
- محمد ناصر الدين الألباني ـ ضعيف سنن النسائي ـ بيروت ـ المكتب الإسلامي ـ ١٩٩٠م.

- ياقوت بن عبد الله الحموي ـ معجم البلدان ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ ١٩٩٠م.
- يوسف خطار محمد ـ التربية الإيمانية والنفسية للأولاد في ضوء علم النفس والشريعة الإسلامية ـ دمشق ـ مطبعة نضر ـ ٢٠٠٢م.

فهرس المحتويات

الفصل الأول
الإطار العام للدراسة

الفصل الثاني
نشأة ابن تيمية

الفصل الثالث
الدراسات السابقة

الفصل الرابع
إجراءات الدراسة

الفصل الخامس
نتائج الدراسة

الفصل السادس
الخاتمة